

رياض نجيب الريس

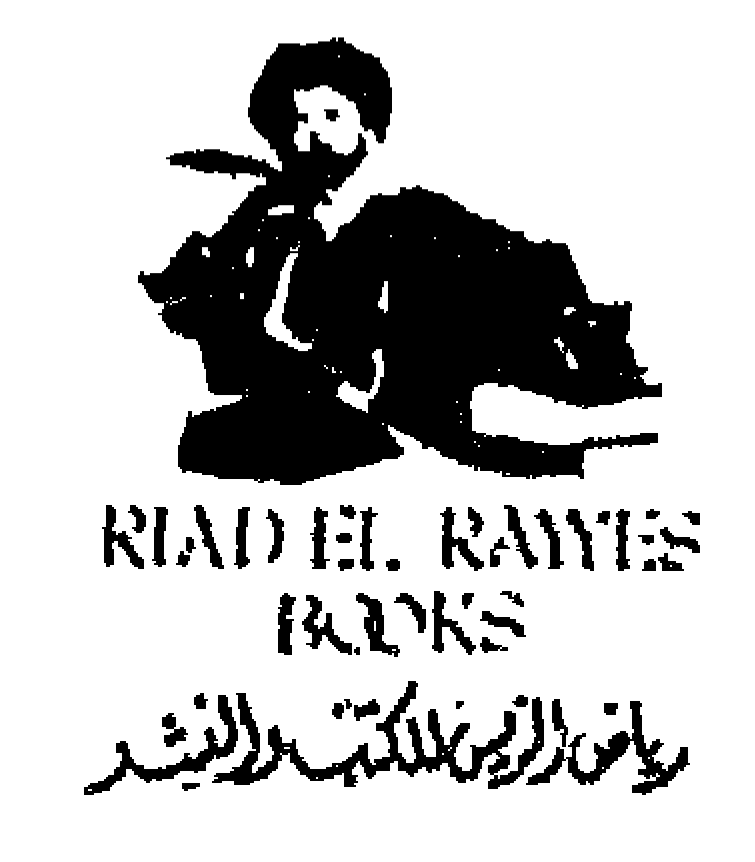
جواسيس العرب

صراع المخابرات الأجنبية

رياض نجيب الريّس

جواسيس العرب

صراع المخابرات الأجنبية



RIAD EL RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

4, Sloane Street, London SW1X9LA

SPIES AMONG THE ARABS
Foreign Agents in the Arab World

by

RIAD N. EL-RAYYES

First Published in Great Britain in 1987

4 Sloane Street, London SW1X 9LA

British Library Cataloguing in Publication Data
El-Rayyes, Riad
Arab Spies.
1. Espionage——Arab countries——History
I. Title
327.1'2'09174927 UB271.A65
ISBN 1 - 869844 - 62 - 9

Photosetting by: Riad El-Rayyes Books Ltd., London
Printed & Bound in Great Britain By: Biddles Ltd., Guildford & King's Lynn

محتويات الكتاب

مقدمة

سباحة في
بحر التاريخ

« أن صراع الانسان ضد السلطة
هو صراع الذاكرة ضد النسيان »
ـ ميلان كونديرا ـ

لهذا الكتاب قصة . فمنذ زمن طويل وعند بدء احترافي الصحافة السياسية قبل سنوات ـ لم يعد يهمني عددها ـ وقعت في عشق التاريخ . ومع مرور الوقت بدأت استبدل الرواية بالتاريخ ، والشعر بالسيرة ، والنقد بالمذكرات ، والقصة بالتحقيق الصحافي . وخسرت دين الادب ولم أربح دنيا الصحافة .

لكن عشقي للتاريخ ظل القاسم المشترك الأعظم الذي يجمع بين نشأتي الادبية وبين مهنتي الصحافية . وصار عندي هاجس التاريخ . وصرت كلما ضاق عليّ فهم مشكلة سياسية معاصرة أو قضية سياسية آنية . هرعت الى التاريخ لأرى كيف كان علاجها بالماضي ، وأين كانت جذورها ، وماذا حل بأشخاصها ، والى أين أدت نتائجها . وفتح التاريخ أمامي أبوابا كثيرة من المتعة والاكتشاف التي لا يمكن وصفها .

ومع توافر البحث العلمي ، وفتح خزائن الارشيف في الدول الغربية أمام الباحثين والمراجعين والمنقبين ، وازدياد حركة نشر كتب التاريخ وسيرة السياسيين والزعماء ، وكتابة المذكرات الشخصية ، وجمع الرسائل المتبادلة بين رجل دولة وآخر ، أصبحت قراءة التاريخ بحراً يُغْتَرف منه . وغرقت في هذا البحر .

الا أن سباحتي ظلت في بحر التاريخ الذي يصل بشواطئه الى بلاد العرب . وكان طوافي طوال السنوات الماضية في مجموعة من الكتب الانكليزية التي صدرت مؤخرا ، وعدد من الوثائق البريطانية التي أفرج عنها وأصبح من المتاح الاطلاع عليها ، والتي تروي حكاية مجموعة من الأشخاص الذين جاءوا الى بلادنا في مطلع هذا القرن ، وافتتحوا لعبة الأمم التي لم نسمع بها ولم نعها الا في السنوات الأخيرة .

وذهلت خلال قراءتي من قدرة هؤلاء الاشخاص في صنع تاريخنا والتحكم بمجرى حياتنا السياسية . وذهلت أكثر من أننا لم نسمع بأسماء أكثر هؤلاء الاشخاص ، ولم نقرأ في كتب التاريخ التي تعلمناها في المدارس شيئا عن

الاسباب التي جاءت بهؤلاء الناس الى بلادنا .

وجمعت مع مرور الايام من هذه الكتب والوثائق المنشـورة حكاية بعض هؤلاء الاشـخـاص ، من انكليـز وفـرنسـيـين وألمان ونمسـاويين وروس وأتراك ، جاءوا الى سورية ولبُنان والعراق وفلسطين والجزيرة العربية ليقوم كل منهم بدور مرسـوم له . في الوقت نفسـه يروي هؤلاء الاشخاص قصة صراع الدول الاوروبية الكبرى للسـيطرة على العالم العربي عند بداية هذا القـرن . والقصة هذه تناقض في أحيان كثيرة ما نعرفه نحن عن تاريخ هذه الفترة ، وتقلب معطيات التاريخ ومسـلماته كما تعلمناها وافترضناها .

الا أن من الممكن التعامل مع قصة هؤلاء الاشخاص التاريخيين كالتعامل مع الروايـة البـوليسـيـة ـ مع فارق بسيط هو ان كل ما فيها حقائق تاريخية ممحصة ومثبت منهـا ـ وهي في الاصـل أيضـا حكـايـة صراع المخـابـرات السيـاسـية والعسكرية للدول الاوروبية الكبرى في الشرق الاوسـط منذ ١٨٩٨ حتى ١٩٢٦ . فكل بطل من أبطال هذه الرواية كانت مهمته التجسس على العرب ، أشخاصاً وحكاماً وزعماءً وجغرافيةً وتاريخاً . وكان التجسس في تلك الايام خليطا من الاكتشاف الجغرافي والتفاوض السياسي والتخابر الشخصي ، مما أضفى على تلك المهنة مسحة من الاحترام بقدر ما أعطاها شغف المغامرة .

ومغامرات هؤلاء « الجواسيس » شملت رقعة جغرافية واسـعة . من برلين الى صنعـاء ، ومن دمشق الى باريس ، ومن بغـداد الى لنـدن ، ومن جدة الى موسكـو ، ومن فيينـا الى بيروت . مسـرح واسع لعب فيه كل هؤلاء الناس لعبتهم بشروط لا تختلف كثيرا عن شروط اليوم ، وإن كانت أكثر إثارة وخطراً . إلّا أن أهم ما فيها ، هو ان ما بدأه هؤلاء المغامرون الاوروبيون قبل ثمانين سنة ما زال مستمراً في بلادنا الى اليوم ، بأسماء جديدة وللأهداف القديمة نفسها .

وهذا الكتاب يعتمد اعتماداً أساسياً في معلوماته على مجموعة من الكتب والوثائق البريطانيـة ، أهمها مؤلفات اتش . في . أف . ونستون المدرجـة أدناه * . فالتاريخ ما زال يعيد النظر باستمرار في حكمه على هذه الحقبة ، وكأنه

---

* H.V.F WINSTONE

The Illicit Adventure Jonathan Cape - London 1982
Captain Shakespear Jonathan Cape - London 1972
Gertrude Bell Jonathan Cape - 1978
Leachman O C Desert Quartet - London 1982

ينتظر السنوات الأخيرة من هذا القرن العشرين ليعلن موقفه النهائي منهم ومنا .

لكنني أستميح القارىء عذراً اذا وقعت في حبائل التاريخ . فالعاشق ـ كالوطن ـ دائماً على حق !

رياض نجيب الريس

مدخل

الدعوة الى الثورة

تتمثل قصتنا خلال السنوات الخمس والعشرين التي سيدور الحديث غنهـا في هذا الكتـاب في شبح طغيان السلطان العثماني عبد الحميد الثـاني، الذي منح رعاياه حكماً دستورياً مرتين: الأولى في بدء حكمه، والثانية في نهايته. فحين ارتقى السلطان عبد الحميد العرش كانت الدولة العثمانية تجتاز طريقاً مظلماً. فقد انتقلت روح الثورة من السر الى العلن، وكانت روسيا تهدد بالحرب، وأوروبا تظهر العداء والتعنّت خاصة بعد الفظائع التركية التي اقترفت في بلغاريا. أما من الناحية المالية، فقد كانت الخزانة العثمانية العامة خاوية، والميزانية مختلّة تعاني من العجز.

وكانت النقمة قد ازدادت على الاتراك في مطلع القرن العشرين، حتى جاء الدستور العثماني يحمل للعرب أملا ما لبث أن تلاشى عندما قام أعضـاء «تـركيا الفتاة» يمهدون لبرنامجهم الخطير الرامي الى تتريك جميع العناصر في البوتقة الطورانية. فاشتدت الحركة العربية وانصرفت النخبة الى تأسيس الجمعيات السرّية، عندما هب دعاة الفكرة القومية العربية الى مقارعة العثمانيين والاتحاديين (نسبة الى جمعية «الاتحاد والترقي» التي أسستها «تركيا الفتاة») علانية.

ورفع لواء الفكرة القومية العربية نفر من المسيحيين والمسلمين العرب على السـواء، غير أنها لم تجد آذاناً صاغية من سواد الشعب لفقدان الوعي القـومي، حتى عندما حاول الاتحاديون أن يفرضوا برنامجهم الطوراني على العرب مسلمين كانوا أو مسيحيين، وسارت الفكرة القومية العربية بين نجاح واخفاق وتقدم وتأخر خلال العهد الحميدي. ومر شهر عسل قصير في علاقات جماعة «تركيا الفتاة» بالعرب حتى وصل نهايته المريرة بقيام الجمعيات السرّية العربية بين عامي ١٩٠٨ و١٩١٤، والى اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى، وما كان لذلك من أثر في مجرى الفكرة القـوميـة العربية وظهور الهاشميين على مسرح الاحداث. ومن بعدها تبلورت فكرة الثورة العربية في دمشق ضدّ العثمانيين وطلب القوميون

العرب من الشريف الحسين بن علي أن يتزعم الثورة ويقودها.

الى أن تم الاتفاق على موعد إعلان الثورة والترتيبات الأخيرة التي قام بها الشريف حسين، حين بدأ الحكم الارهابي في بلاد الشام على يد جمال باشا والبطش بالزعماء العرب في بيروت ودمشق يأخذ مداه، الى اعلان الثورة العربية الكبرى في المدينة في الخامس من حزيران (يونيو) ١٩١٦ «٩ شعبان» وسقوط مكة في العاشر منه وهو التاريخ الرسمي للثورة. كل هذا جعل نتائج الثورة الفورية وردَّ الفعل الذي احدثته في مختلف الاقطار العربية واضحاً في الدور الذي قام به العرب في الحرب من ١٩١٦ حتى الاستيلاء على دمشق عام ١٩١٨، واحتلال سورية بكاملها مع ما رافق ذلك من نشاط سياسي في البلاد من قبل الالمان والانكليز.

وكانت مطامع الحلفاء في ممتلكات الدولة العثمانية واضحة، ومحاولاتهم لاقتسامهم جلد الدب قبل أن يقتنصوه (كما يتمثل ذلك باتفاقية سايكس ـ بيكو بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية) وللوعود المختلفة التي قطعها الحلفاء للعرب، ولوعد بلفور للصهيونيين بالذات وللتأكيدات التي قدمها الحلفاء للعرب، طعم المرارة عند كل الوطنيين. الى ان تمت التسوية بعد الحرب ومني العرب بخيبة أمل كبيرة، مما جعل مؤتمر الصلح بالنسبة اليهم لا نهاية للحرب بل بداية صراع عنيف مع الغرب لا يزال مستمراً حتى يومنا هذا.

وكانت المصالح البريطانية في العراق وفلسطين، والمصالح الفرنسية في سورية ولبنان، والمطامع الصهيونية في فلسطين المرتبطة بالسياسة البريطانية قد خيبت آمال العرب ومزقت بلادهم، فكانت الفترة في ما بين الحربين العالميتين فترة كفاح مرير ضد هذه القوى الثلاث. ولم يساعد تنافس بريطانيا وفرنسا في المنطقة على تحسين الأوضاع بالنسبة الى الحلفاء أو العرب أنفسهم، وعرقل تنافس الاسر العربية الحاكمة سير الفكرة القومية العربية وأخّر في نموها وانتشارها واستقرارها.

أما شبه الجزيرة العربية بعد الحرب العالمية الأولى فقد كانت مسرحاً للنزاع بين خمس من الأسر العربية هي: آل الرشيد في حائل، وآل سعود في نجد، وآل يحيى حميد الدين في اليمن، والأدارسة في عسير، والهاشميون في الحجاز، في حين سيطر البريطانيون على السواحل الشرقية والجنوبية من الكويت الى عدن حيث انتشرت المحميات

والمهادنات ومستعمرات التاج.

واستمر الصراع الهاشمي ـ الوهابي حتى انتهاء الحكم الهاشمي في الحجاز واستيلاء السعوديين على الأراضي المقدسة في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٥، وما تبع ذلك من توسع ابن سعود في عسير (١٩٣٠) وعلاقاته باليمن حتى معاهدة الطائف (١٩٣٤).

ثم جرت الحوادث مجراها المعروف في العراق وسورية ولبنان وفلسطين بعد التسوية التي تبعت الحرب العالمية الأولى وما لحق هذه الاقطار من جراء البدعة السياسية التي اصطنعها الحلفاء، فغلفوا الاستعمار بلباس الانتداب. فوقعت سورية ولبنان تحت نير الانتداب الفرنسي، وفلسطين والعراق تحت ربقة الانتداب البريطاني، واقتطع القسم الجنوبي من سورية الواقع شرقي نهر الاردن امارة وُلّي عليها الأمير عبد الله ثاني أبناء الشريف حسين، وتعرضت فلسطين لأفظع مؤامرة سياسية في التاريخ عندما تحالف العدوان الصهيوني مع المطامع البريطانية وفرض وعد بلفور في صلب صك الانتداب.

* * *

حين اعتلى السلطان عبد الحميد العرش كانت البلاد العربية الخاضعة له في آسيا هي: بلاد الشام، والعراق، وشبه الجزيرة العربية. فلما طبق النظام الاداري على بلاد الشام قسمت هذه المنطقة بجميع ما يتضمنه اسمها من مدلول جغرافي الى ولايتين اثنتين وسنجق واحد. ولكن التجربة دلت على ان هذا التقسيم متداخل يسبب الارتباك، فاستبدل به نظام آخر في عام ١٨٨٧ قسمت بلاد الشام بمقتضاه الى ثلاث ولايات وسنجقين اثنين، هي: ولاية حلب في الشمال، وولاية بيروت في الغرب، وولاية سورية في الشرق، وسنجق جبل لبنان الذي فصل عن ولاية بيروت ليؤلف وحدة ادارية خاصة، وسنجق القدس في الجنوب وكان أيضا ذا كيان اداري متميز. اما العراق فقد مر بفترة تجربة مشابهة، وانتهى به التنظيم أخيراً الى تقسيمه الى ثلاث ولايات، هي: ولاية الموصل في الشمال، وولاية بغداد في الوسط، وولاية البصرة في الجنوب.

أما شبه الجزيرة العربية فلم تسعف الأحوال فيها على التنظيم المتناسق، ولا على اقامة نظام مركزي دقيق. فقد عين على الحجاز وال منذ

عام ١٨٤١. وكان المقصود من ذلك اخضاع البلاد الاسلامية المقدسة لإدارة مباشرة ثنائية، تكون فيها سلطات الوالي مقيدة فلا تطغى على الامتيازات الممنوحة لكبار الأشراف وهم الحكام التقليديون لمكة والمدينة.

أما اليمن فقد أرسلت اليه حملتان عسكريتان لتقيما فيه حكماً تركياً فعالا. وكانت الأولى عام ١٨٤٩، والثانية عام ١٨٧٢، وكان عددها أكبر من الأولى بفضل التسهيلات التي أتاحها شق قناة السويس. وأما في البلاد الواقعة على خليج العرب من شبه الجزيرة العربية، فقد ظل التغلغل التركي محصوراً في منطقة ساحلية واحدة منها، هي: الاحساء، التي تم احتلالها عسكرياً من قبل تركيا عام ١٨٧١.

وأما في الأجزاء الداخلية من شبه الجزيرة فقد كانت أسرة ابن سعود واسرة ابن الرشيد تتصارعان في بلاد نجد وشمر، وتحاول كل منهما ان تزيد من نفوذها ومن رقعتها على حساب جارتها، ولم تلقيا بالاً الى مطالب الاتراك بالسيادة والحكم. وكانتا تديران شؤونهما وتمضيان في حروبهما وكأنهما دولتان حرتان مستقلتان.

وكانت العقبات التي تعترض طريق الأتراك في السيطرة على داخل شبه الجزيرة عقبات لا سبيل الى التغلب عليها، وتتمثل في: بعد المسافة، وندرة وسائل النقل، وضراوة العربي هناك في الذود عن حريته.

وكانت السبيل امام تركيا في المناطق الساحلية أيسر، ولكنها وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام من ينافسها. فقد كانت بريطانيا مضطرة ـ بسبب احتياجات امبراطوريتها في الهند ـ الى ان تبحث عن حلفاء وعن محطات للوقود على شواطىء شبه الجزيرة العربية.

فاحتلت جزيرة بريم في مدخل البحر الأحمر، وعقدت في الوقت نفسه تقريباً، معاهدة مع سلطنة مسقط وعُمان في مدخل خليج العرب، لأسباب تتصل بالتجارة مع بومباي. فكانت التجارة والخطط الحربية تستدعيان ان تكون الطريق الرئيسية محروسة حراسة تكفل حمايتها. وأصبحت حرية البحار المحيطة بشبه الجزيرة العربية من الأسس التي تقوم عليها السياسة البريطانية. فاحتلت عدن عام ١٨٣٩ وضمتها الى ممتلكات التاج البريطاني. ثم عادت الى احتلال بريم، وكان هذه المرة احتلالا دائما. ثم امتد ظل النفوذ البريطاني شمالا شيئاً فشيئاً، خلال القرن التاسع عشر، الى رأس خليج العرب ليقلص من نفوذ الأتراك الذين

اتجهوا جنوباً من البصرة وحاولوا دون جدوى أن يثبتوا سيطرتهم على أطراف شبه الجزيرة العربية بعد أن أفلت الداخل من قبضتهم.

وأما في افريقيا فقد كانت الدولة العثمانية، حين تولى السلطان عبد الحميد الحكم، تشمل تونس وليبيا ومصر والسودان فقط، بعد ان استولت فرنسا على الجزائر عام ١٨٣٠. وقد بدأ عهد السلطان عبد الحميد بداية سيئة فيما يتصل ببقاء البلاد العربية في تلك القارة في حوزته. ففي عام ١٨٨١ أخذت فرنسا منه تونس. وفي السنة التالية احتلت بريطانيا مصر ثم السودان. وقد اعترفت بريطانيا بسيادة السلطان الاسمية على مصر والسودان، ولكن فرنسا لم تعترف بها على تونس. وفي كلتا الحالتين لم يعد عبد الحميد يمارس أية سلطة في حكم هذه البلاد وادارتها. ومعنى هذا ان الشواطىء الافريقية الشمالية جميعها ضاعت من يد الاتراك، ما عدا ليبيا التي سقطت اجزاء كبيرة منها في حوزة إيطاليا عام ١٩١٢. ولكنها قبل ذلك، في الفترة التي نتحدث عنها الآن، كانت ليبيا البقعة الوحيدة في افريقيا التي بقيت خاضعة للسلطان، وكانت مقسومة ادارياً الى ولايتين: ولاية طرابلس، وولاية بنغازي.

* * *

انتعشت آمال العرب في الثورة ضد الاتراك في طول الامبراطورية العثمانية وعرضها. بيد ان الفوارق الاجتماعية والدينية كانت ما تزال تحول دون نشوء وعي قومي صحيح في سورية. فبالاضافة الى الاقليات القومية من اكراد وأرمن وجراكسة متشتتين في البلاد، كانت مصالح البدو والفلاحين وسكان المدن الاقتصادية متباينة تبايناً واسعاً يحول دون توحيد ابناء البلاد المنقسمين الى سنّة وشيعة ودروز من جانب، والى كاثوليك وموارنة وروم كاثوليك تابعين لروما وروم ارثوذكس من جانب آخر. والواقع ان الشعور بقومية واحدة تشد العربي الى العربي في نضال مشترك ضدّ الاتراك الحاكمين لم يستيقظ الا في الأوساط المتعلمة والمثقفة الراقية.

وكان حكم عبد الحميد الاستبدادي قد كبت حرية الفكر والسياسة كبتاً كاملاً، فاضطر جمهرة من العرب، بسبب ذلك وبسبب من تأخر

البلاد الاقتصادي أيضاً، الى الهجرة الى مصر وأميركا. الى ان جاء استيلاء رجال «تركيا الفتاة» على الحكم ليقوي رغبات العرب في التحرر وتقرير المصير. وكان طبيعياً، في مثل هذه الظروف السياسية ان يضطر أحرار العرب الى تشكيل جمعيات سرية، على غرار ما فعل رجال «تركيا الفتاة» أنفسهم.

وبُعيد اعلان الدستور العثماني مباشرة ألّف عدد من العرب المقيمين في القسطنطينية جمعية دعوها «الأخاء العربي العثماني» ابتغاء تعزيز مثلهم العليا في نطاق الدولة الجديدة. ولكن هذه الجمعية حُلت بعد الانقلاب الذي قام به عبد الحميد. وخوفاً من المصير نفسه فقد أسس الموظفون والنواب والكتاب العرب في صيف ١٩٠٩ ناديا ظاهره ادبي محض دعوه «المنتدى الأدبي». وما لبث هذا النادي ان انشأ له فروعا في مصر وسورية، عاملاً في المقام الأول على اثارة الشعور القومي العربي في نفوس الشباب، وفي آذار (مارس) ١٩١٥ حُلت هذه الجمعية.

والواقع ان عددا من كبار موظفي وضباط الدولة العرب أسسوا ـ ضمن هذا النادي ـ لجنة أصغر ذات اهداف سياسية، وسموها «القحطانية». ومنها انبثقت جمعية الضباط المعروفة بـ «العهد» والتي انضم اليها في ما بعد فرع عراقي أفصح عن أهدافه الحقيقية بهذا الإسم الجديد الذي اتخذه: «الثورة العربية».

وفي لبنان، الذي كان يتمتع منذ زمن طويل بادارة تكاد تكون مستقلة عن النفوذ العثماني، أسست جمعية «النهضة اللبنانية» التي قالت بضرورة احتلال فرنسا للبلاد. ومن هنا حظيت بتأييد كبير من جانب القنصل الفرنسي العام في بيروت.

وما لبثت معظم هذه الجمعيات ان ذابت في «الجمعية اللامركزية» التي انشئت في مصر أواخر ١٩١٢ والتي انتشرت فروعها في جميع البلاد الناطقة بالضاد. والى هذه الجمعية ايضاً انضمت جمعية «العربية الفتاة» التي أسسها الطلاب العرب في باريس عام ١٩١١، والتي تعاونت تعاوناً وثيقاً مع جمعية «العهد» وخاصة في أوساط الموظفين المدنيين في سورية. وفي مؤتمر عقد في باريس، في حزيران (يونيو) ١٩١٣، حدد ممثلو هذه الجمعيات مطالبهم، وكان أهمها قصر الخدمة العسكرية على البلاد العربية واعتبار العربية لغة رسمية.

وقد أظهر رجال «تركيا الفتاة» الذين كان لهم مندوبوهم في هذا المؤتمر رغبتهم في الموافقة ـ تحت ضغط الحرب البلقانية ـ على هذه المطالب. حتى اذا نشبت الحرب العالمية الأولى رفض جمال باشا، قائد الجيش الرابع العام في سورية، ان يسمح لهذه الجمعيات بأن تنشط ضد سلامة الدولة. ثم ان المراسلات الدائرة بين هذه الجمعيات وبين جورج بيكو، قنصل فرنسا العام في بيروت، وقعت في يده فأخضع اعضاءها لأقصى عقوبات القانون العسكري، فحكم الديوان العرفي المنعقد في عاليه، لبنان، على ثلاثة وثلاثين منهم بالموت شنقاً.

ولكن آمال الوطنيين العرب انتعشت من جديد وبلغت أوجها عندما اذاعت بريطانيا وفرنسا، في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٨ (بعد هدنة مودروس) بياناً مشتركاً صرحتا فيه أن ما هدفتا إليه من الحرب ـ وهو تحرير الشعوب الخاضعة للنير العثماني ـ قد تحقق الآن، وانهما مستعدتان منذ اليوم لإقامة حكومات مستقلة في سورية والعراق تكفل لهذين القطرين تطوراً سياسياً حراً. ولم يستطع الشريف حسين ـ حتى لو حافظت بريطانيا على وعودها العرجاء ـ ان يلاقي النجاح في توحيد هذه الفئات المتفرقة والمصالح المتباينة، على الرغم من جميع الاتصالات والعلاقات التي انشأها إبنه الأمير فيصل في دمشق.

ولكن اتفاقية سايكس ـ بيكو وتصريح بلفور ـ ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ـ الذي ينص على ان الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، أظهرا وحدهما ان الحلفاء كانوا قد انتهوا الى قرارات مختلفة جداً عن منطوق البيان الفرنسي البريطاني المشترك في ما يتصل بمستقبل الاجزاء العربية المنسلخة عن الامبراطورية العثمانية. وكانت المسألة بالنسبة الى فرنسا، مسألة نفوذ واعتبار، ورغبة في ان تجني آخر الأمر، بعض الفائدة السياسية مما زعمته لنفسها طوال قرون عدة من حقّ حماية النصارى في الشرق، ومما بذلته من جهود ناجحة في سبيل نشر الثقافة الفرنسية في سورية، على الرغم من ان مصالحها الاقتصادية في هذه البلاد لم تكن قد نمت واتسعت بعد.

اما بريطانيا فكان عليها ان تفكر دائما بمصالح امبراطوريتها الحيوية وخاصة في العراق، لكي تصون طرقها البحرية الى الهند من أي

اعتداء تتعرض له من الخليج العربي، ولكي تعزز هذه الطرق بالخطوط الجوية الجديدة، ولتسخّر اخيراً ينابيع النفط الغنية في ايران وفي العراق لخدمة سيادتها البحرية.

* * *

وسعى ابناء الشريف حسين الى انقاذ ما يمكن إنقاذه، على الاقل، بعد ان شيّع أبوهم آماله. وكان فيصل قد روض نفسه على الرضا باحتلال الفرنسيين للمنطقة الساحلية السورية بعد اتفاق سايكس ـ بيكو، راجياً ان يُعتَرفَ به اميراً، على الأقل، في المناطق الداخلية، حيث كان الأمل بانشاء دولة «مستقلة» لا يزال قائماً.

وهكذا سافر فيصل الى لندن، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨، ليفاوض وزارة الخارجية البريطانية والزعماء الصهيونيين. وفي ٦ شباط (فبراير) ١٩١٩ دافع هو ولورانس عن حق العرب في الاستقلال التام أمام مؤتمر الصلح في باريس، على الرغم من ان «الجمعية السورية ـ اللبنانية» في باريس كانت طالبت بأن يكون لسورية ولبنان وضع خاص تحت الانتداب الفرنسي. وكان فيصل يؤكد تأكيداً شديداً على ضرورة الاستماع الى اماني سكان سورية انفسهم. فقد أقر «مجلس الاربعة» المؤلف من ممثلي الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وايطاليا في ٢٥ آذار (مارس) ١٩١٩، اقتراح الرئيس الاميركي ويلسون القاضي بارسال بعثة تحقيق الى سورية مؤلفة من الخبيرين الاميركيين كينغ وكرين. فخيّل لفيصل انه نال ما يبتغي فعاد الى سورية في الاسبوع الأول من نيسان (ابريل) ١٩١٩. وهناك انصرف في الحال للعمل ضد فرنسا. ومن أجل ذلك اكتسب تأييد الاتراك، واكتسب على الخصوص تأييد بريطانيا التي زودته بالمال وزودت انصاره بالسلاح.

وفي أول شباط (فبراير) ١٩١٩ تحوّلت جمعية «العربية الفتاة» السرية الى حزب يعمل في العلن باسم «حزب الاستقلال العربي»، وعقدت مؤتمراً طالب باستقلال سورية وفلسطين تحت تاج فيصل. وعلى الرغم من ان فيصل رفض اخضاع البلاد للانتداب الفرنسي فقد التمس مساعدة اميركية، أو مساعدة بريطانية على اية حال، في اقامة الدولة

الجـديدة. وطافت لجنة كينغ ـ كرين في انحاء فلسطين وسورية طوال أسابيع ستة، ابتداء من ١٠ حزيران (يونيو) ١٩١٩. وقد أيدت اللجنة ملكية فيصل على سورية، وأوصت بتطبيق نظام الانتداب، ولكنها رفضت ان تسلّم فلسطين للصهاينة. واذ كان الرئيس الاميركي ويلسون قد لزم فراش المرض بعد عودة اللجنة مباشرة، فقد أهمل تقريرها ولم يحدث اي تغيير في تقرير مستقبل سورية.

في الوقت نفسه اخفقت فرنسا وبريطانيا في الوصول الى أي اتفاق حول سورية، مما دعا لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا الى دعوة فيصل لزيارة لندن مرة أخرى في آب (اغسطس) ١٩١٩.

وعقـد فيصـل اتفـاقاً مع كليمنصو بباريس، في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر)، بعد ان زوّده لويد جورج بارشاداته. وقد قضى هذا الاتفاق بأن تعتـرف فرنسـا بالدولة الفيصليـة دولة مستقلة (ضمن الحدود التي سيعينها لها مؤتمر الصلح) اذا ما قبل فيصل مساعدة فرنسا في انشاء هذه الدولة. وسرعان ما شرعت بريطانيا، بعد ذلك، في الجلاء عن شمالي سورية، حتى اذا تقدمت القوات الفرنسية لاحتلال هذه المنطقة (أي شمالي سورية) اصطدمت بمقاومة القوات العربية في طرابلس وبعلبك وغيرهما.

والواقع ان اتفاق فيصل مع كليمنصو قوبل، لدى عودته الى سورية، بنقد عنيف. بيد ان الأمير العربي استطاع ان يهدىء من ثائرة أنصاره بعد ان أوضح لهم صفة هذا الاتفاق المؤقتة. وفي ٨ آذار (مارس) ١٩٢٠ عقد في دمشق مؤتمر وطني أعلن فيصلا ملكاً على سورية.

لكن مؤتمر سان ريمو عهد الى فرنسا، في ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٢٠، بالانتـداب على سوريـة كلها. فلم يكن من الجنرال غورو قائد القوات الفـرنسية في لبنان الا ان وجّه ـ استناداً الى هذا القرار ـ انذاراً الى فيصـل في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٢٠ يطلب اليه في الاعتراف بالانتداب الفـرنسي، واخضـاع خطوط السكك الحديد للرقابة الفرنسية، وإقرار العملة الورقية التي اصدرها الجنرال غورو نقداً للبلاد، ومعاقبة «الثوار الوطنيين».

ومـال فيصل بادىء الأمر الى الاذعان، ولكنه اضطر فيما بعد الى رفض الانذار تحت ضغط الرأي العام السوري الهائج. وفي ٢٢ تموز

(يوليو) هزم الجنرال غوابيه جنَوشه. وفي ٢٣ تموز (يوليو) احتلّت حلب لتتبعها دمشق في ٢٥ من الشهر نفسه. وانتظر فيصل ان تنجده بريطانيا. ولكن انتظاره كان على غير طائل.

* * *

وفي معاهدة «سيفر» ـ ١٠ آب (اغسطس) ١٩٢٠ ـ وضعت سورية، كدولة مستقلة، تحت الانتداب الفرنسي ريثما تصبح أهلا للحكم الذاتي. لكن هذا لم يمنع فرنسا من تجزئة سورية الى أربع دول هي:

(أ) لبنان الكبير.
(ب) دمشق.
(ج) حلب.
(د) دولة العلويين.

وضمت بيروت وطرابلس والبقاع الى لبنان أيضاً، حتى حيل بين سورية الأم وبين البحر حيلولة تامة. وبينما كان في لبنان، قبل ذلك، أكثرية من الموارنة الموالين لفرنسا ـ انتهى منذ اليوم الى أن ينتظم الى جانب الموارنة أعداد من النصارى المنتمين الى مختلف الطوائف، بالاضافة الى الأرمن وغيرهم من المسيحيين الاجانب، فضلا عن السنة والشيعة والدروز. اما مقاطعة حوران الدرزية التي كانت حتى ذلك الحين متمتعة باستقلال داخلي فقد ضمت الى دمشق. وفي الدول الأربع جميعاً تقلد أزمة السلطة موظفون فرنسيون، على الرغم من اسناد حكومة دمشق الى حاكم سوري موال للدولة المنتدبة.

لم تكن هذه التجزئة لتهدىء من ثائرة السوريين فهبوا لمقاومتها لا في صحفهم المحلية فحسب، بل بواسطة مواطنيهم في اوروبا أيضاً. وحاولت فرنسا ان تقضي على هذه المعارضة عام ١٩٢٢. فأعلنت دمشق وحلب ودولة العلويين دولة اتحادية سورية، مقابل لبنان الكبير، ولكنها لم تحدث أيما تعديل أساسي في تنظيمها الداخلي. وبموجب دستور ٢٢ أيار (مايو) ١٩٢٦ حوّل لبنان الكبير الى جمهورية.

وحصلت الدولة الاتحادية السورية على مجلس اتحادي ينتخب رئيسه مرة كل عام، ولكن قرارات هذا المجلس لم تكن توضع موضع

التنفيذ إلا بعد ان يصدق عليها المفوض السامي الفرنسي. ومن هنا لم يكن لهـا غير أثـر ضئيل في ادارة كل من دول الاتحاد على حدة، هذه الادارات التـي كانت مستقلة بعضهـا عن البعض الآخـر في سائـر الشؤون. من أجل ذلك الغت فرنسا، بعد اختبار دام سنتين، هذا النظام الاصطناعي الملفق. وفي مطلع كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥ حل الجنرال ويغان، الذي خلف الجنرال غورو، الاتحاد، وأدمج دمشق وحلب في دولة سورية واحدة.

وفي تموز (يوليو) ١٩٢٥ انفجرت نقمة السوريين ـ تلك النقمة التي كانت قيد الاختمار منذ زمن طويل بعد ان رزىء القوم بآمالهم الوطنية ـ في ما بين الدروز الذين كانوا يعتزون باستقلالهم طوال قرون، انضم اليهـا باقي السوريين فيما بعد، وذلك اثر عمل جلف صدر عن ضابط فرنسي هو الكابتن غرابيه، الذي كان يحكمهم بوصفه مندوباً عن المفوض السامي. وعلى الرغم من أن الجنرال ويغان استطاع ان ينقذ في أيلول (سبتمبر)، حملة التأديب الفرنسية التي حاصرها الدروز في السويداء، فقد امتدت الثورة الآن الى دمشق وعمّت البلاد السورية من أقصاها الى أقصاها. ولم يحجم الفرنسيون عن تسليح الجراكسة والأرمن والسماح لهم بأن ينزلوا حيثما شاءوا. وعلى الرغم من إقالة الجنرال ساراي بعد ان أمر بقذف دمشق بالقنابل من الجو ومن القلعة، فقد انساق خلفه، دى جوفنيل ولم يكن عسكرياً، الى ان يسلك مسلك سلفه، في أيار (مايو) ١٩٢٦ . ولم تخمد ثورة الوطنيين السوريين ضد فرنسا نهائياً الا في ربيع ١٩٢٧.

الفصل
الأول

بداية المغامرة

١ الألماني صديق المسلمين

في مســاء ليلة قارصــة من تشرين الثــاني (نــوفمبر) ١٨٩٨، وقف امبراطور المانيا وملك بروسيا ولهلم الثاني.، في مأدبة عشاء في سراي دمشق أقامها الوالي التركي على شرفه، خطيباً في وجهاء المدينة الذين لبوا دعوة الوالي، قائلا :

«قولوا لثلاثمئة مليون مسلم انني صديق لهم».

وصفق الحاضرون كثيراً لامبراطور المانيا الذي جاء الى دمشق عن طريق القدس مروراً بوادي عجلان، ليعلن صداقته للمسلمين. وفي اليوم التــالي، ذهب ولهلم الثاني الى الجامع الأموي ووقف أمام قبر صلاح الدين ووضع عليه اكليلاً من الزهر كتب عليه:

«من ولهلم الثاني، امبراطور المانيا وملك بروسيا، الى ذكرى البطل صلاح الدين الأيوبي».

وهلل العـرب لذلك تهليـلا كبيراً. ولقبوه بـ «الحجي». وأصبح لقب امبراطور المانيا في السنة الأخيرة من القرن التاسع عشر، «الحاج ولهلم».

وبدأت المغامرة.

* * *

في الأيــام الأخيرة من القرن التاسع عشر، والأيام الأولى من القرن العشرين، امتلأت فنادق سورية والعراق ولبنان وايران بنوع جديد من الزوار الذين لم تعتدهم هذه البلدان من قبل. ضباط من جيوش بريطانيا والهند والمانيا. مهندسو سكك حديد من النمسا. علماء آثار من جامعات

بريطانيا وفرنسا والمانيا والمجر. جامعو حشرات من مختبرات فيينا وبراغ. مراقبو عصافير من لندن وبرلين وباريس. بعضهم جاء باللباس العسكري. وبعضهم جاء بالطربوش وبعضهم الآخر جاء بالبرنيطة أو الكوفية والعقال. بعضهم جاء حاملاً البنادق والمسدسات. وبعضهم الآخر جاء حاملاً الكاميرات وآلات التصوير أو عدة الرسم والتلوين. وبعضهم جاء أيضاً حاملاً الحمام الزاجل.

كلهم جاؤوا بعد اعلان امبراطور المانيا الشهير في سراي دمشق في ذلك المساء البارد.

ولحق بهم الجواسيس والعملاء في المدن والقرى والصحاري، حاملين معهم هذه المرة السيارة والقطار والتلغراف. وتبعهم الاداريون والممولون والمكتشفون وضباط المخابرات. وكان همهم أمرين: تحقيق اعلان الامبراطور ولهلم الثاني، أو منع تحقيقه. وانقسمت مهمتهم الى مَن هو مع ومَنْ هو ضد.

من هنا، ومن هذه الساحة كانت البداية.

على هذه الساحة، ومن على هذا المسرح، كان هناك ثلاثة لاعبين اساسيين.

● الأول: بريطانيا.

● الثاني: المانيا والامبراطورية النمساوية ـ المجرية التي تدور في فلكها.

● الثالث: تركيا، حاكمة هذه البلاد بامبراطورية مترامية الأطراف.

الباقي كانوا مجرد ممثلين قانونيين، يكبر دورهم أو يصغر، حسب الظروف.

- كان الصراع الأساسي بين دولتي اوروبا القويتين، بريطانيا والمانيا، بعد أن كانت المانيا قد طردت روسيا وفرنسا من اللعبة، مما أوصل الى تحالف بريطاني ـ فرنسي ـ روسي، ضد المانيا والنمسا والمجر التي كانت تعرف باسم «الامبراطورية الرومانية المقدسة» ـ التي لم تكن بالفعل لا امبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة ـ ومما دفع المانيا الى التحالف مع تركيا وامبراطوريتها العثمانية المريضة.

في الوقت الذي كان فيه امبراطور المانيا يخطب في دمشق (١٨٩٨) كانت الملكة فيكتوريا تستقبل بقصرها في لندن سردار جيش مصر، السير

هربرت هوراشيو كيتشنر ـ الذي أصبح اللورد كيتشنر بعدها ـ لتهنئته بهزيمة جيش الخليفة المهدي في السودان. كان ونستون تشرشل وقتها ملازماً في جيش كيتشنر في أم درمان. وكان كيتشنر بطل الشعب البريطاني.

وكانت الامبراطورية البريطانية في حينه تنقسم الى قسمين: الأول يشمل شرق السويس في الهند ويحكمه نائب الملك اللورد كورزون. والثاني يشمل الجزيرة العربية وغرب السويس في مصر ويحكمه اللورد كرومر. وعرف هذا القسم في حينه باسم الشرق الادنى.

في العام ١٩٠٣ قام اللورد كورزون، ومعه جيش من الهنود واسطول كبير، بزيارة لدول الخليج ليقول لحكامه العرب ان بريطانيا ما زالت سيدة البحار والديار. ولم يكن كورزون يخفي أهدافه من الزيارة، فقد سبق أن أعلن عند بدء حياته السياسية في لندن: «ان تركستان وافغانستان وبلاد القزوين وفارس، ليست بالنسبة لكثيرين غيري سوى اسماء لبلاد بعيدة أو ذكريات رومانسية بشعة. اما بالنسبة لي فأود أن أعترف بأنها قطع حجارة على ملعب شطرنج تجري عليه لعبة السيطرة على العالم».

كانت بريطانيا أطول باعاً في هذه اللعبة من المانيا التي كانت لا تزال شبه نائمة في تلك الفترة وهي تبحث عن دعائم لتمنع سقوط حليفتها الامبراطورية العثمانية المفلسة، التي كان للسلطان عبد الحميد وحده فيها ٣٠,٠٠٠ جاسوس. ووظفت المانيا أموالها ونفوذها وبناة سكك الحديد عندها في هذه الامبراطورية العثمانية الآيلة للسقوط. وفي هذه السنة، وقد شعرت بريطانيا بالتحرك الالماني، قررت ان تعيد تنظيم استخباراتها في المنطقة العربية هناك.

* * *

كانت بريطانيا قد تعلمت دروساً من نتائج حرب القرم والحرب البروسية ـ الفرنسية مما أعاد الاعتبار الى فن الاستخبارات، وهي ان تجييش الجيوش وتحريكها يتطلبان معلومات دقيقة عن الأعداء. وقد أكدت عملية احتلال مصر والسودان لبريطانيا أهمية هذا الأمر وخطورته.

وجزأت بريطانيا استخباراتها عندما أعادت تنظيمها الى ستة أقسام:

١ـ دائرة الاستراتيجية السياسية والعمليات الحربية.

٢ـ دوائر: اوروبا ـ النمسا والمجر ـ الامبراطورية العثمانية ـ الحبشة.

٣ـ دوائر: بلاد فارس (ايران) ـ الهند ـ آسيا ـ اميركا ـ روسيا.

٤ـ الخرائط والطوبوغرافيا.

٥ـ الاستخبارات المضادة ـ الأمن الداخلي ـ المهمات الخاصة.

٦ـ المهمات الطبية في الخارج.

وكانت السياسة الخارجية البريطانية مقسومة الى قسمين. قسم تديره وزارة الخارجية من وايتهول في لندن وقسم تديره وزارة الهند من بومباي وسيملا. وكان تقسيم الاستخبارات في الهند طبق الأصل عن تقسيم الاستخبارات البريطانية. وكانت الهند مسؤولة عن الجزيرة العربية بخط يمتد من البصرة الى العقبة، ما عدا عسير والحجاز واليمن. وكانت لندن مسؤولة عن باقي الجزيرة العربية والمناطق العثمانية كسورية والعراق وفلسطين.

أما المانيا فقد كانت الاستخبارات فيها عام ١٨٩٣ بيد البارون ماكس فون اوبنهايم، وهو عالم آثار يهودي كان يُعرف بمصر باسم «الجاسوس». وكان اوبنهايم قد سبق أن زار دمشق وجال في أنحاء سورية ومنها ذهب الى بغداد وتعرف على بلاد الرافدين عرين المخابرات البريطانية. عند بداية هذا القرن كان اوبنهايم المسؤول عن مخابرات قيصر المانيا في الشرق يعمل من برلين في مركز مؤسسة الآثار الألمانية وكان مسؤولا مباشرة تجاه وكيل وزارة الخارجية الألمانية الدكتور زيمرمان. وكانت أولى مهمات اوبنهايم عند تعيينه رئيساً لمخابرات الشرق أن أرسل الهر فونكهاوس، وهو رجل أعمال الماني، عام ١٨٩٦ الى لينجا على الساحل الفارسي من الخليج العربي، ليقيم مركزاً المانياً للتجسس تحت ستار العمل في الاستيراد والتصدير.

في الوقت نفسه تبعت كل من فرنسا وروسيا والنمسا ـ المجر خطى بريطانيا والمانيا في اعادة تنظيم استخباراتها وفق أسس حديثة، وبموجب تغير التحالفات بين الدول الاوروبية في المناطق الواقعة بين مصر والهند.

كان التوقيت مناسباً لكل هذه الدول وهي تستعد لصراعاتها الجديدة في الشرق الأدنى.

* * *

في آب (أغسطس) ١٩٠٦ ثار تجار البازار في ايران ضد الحكم التعسفي للشاه مظفر الدين. ولجأوا الى حديقة المفوضية البريطانية حيث وضعوا أول دستور للبلاد وقعه الشاه مرغماً بعد شهرين. ومات الشاه مظفر الدين بعد فترة قصيرة من اعلان الدستور وخلفه محمد علي ميرزا على عرش فارس.

وفي العام ١٩٠٨، تآمر تنظيم ضباط «تركيا الفتاة» لاسقاط «الثعلب الكهل» السلطان عبد الحميد وأعلنوا دستور مدحت باشا الذي نقضه عبد الحميد بعد سنة واحدة من قبوله. وكانت كلمة «حريت» قد بدأت تسمع في أرجاء الامبراطورية العثمانية المؤلفة من عرب واتراك واكراد وأرمن ويونان والبان ويهود. وللمرة الأولى سمع العرب والمسلمون بشيء اسمه المؤامرة «الصهيونية ـ الماسونية».

وكان للسفير البريطاني في اسطنبول السير جيرارد لوثر مستشار سياسي كاثوليكي ايرلندي الأصل اسمه جيرالد فيتزموريس. وكتب فيتزموريس أول تقرير له الى الخارجية البريطانية متهماً ضباط «تركيا الفتاة» بأنهم عصابة يقف وراءها اليهود والصهيونية العالمية بتحالف مع الماسونية، التي كان انتشارها قد بدأ في الشرق. وكان من المعروف عن فيتزموريس أنه متعاطف مع الأرمن منذ المذبحة الأولى في عهد عبد الحميد عام ١٩٠٥، وانه يكره الأتراك والأكراد.

ووجد الألمان فرصتهم في انقلاب ضباط «تركيا الفتاة» وبوجود السفير الالماني في اسطنبول فون بيبرستاين، لاستمالة حكام تركيا الجدد نحو المانيا بعيداً عن بريطانيا وفرنسا وروسيا. لكن التقارير الديبلوماسية كانت قد بدأت تنهمر عن رجال «تركيا الفتاة» وهي تحاول ان تجد مدخلاً اليهم، بوصف شخصياتهم:

● **طلعت**: موظف بريد، قاسي الملامح في عينيه بريق لا تراه إلا في الحيوانات، يحب حياة اللهو والسهر.

● **أنور**: ايطالي المظهر، مخيف الشكل، كثير التطلع في المرآة والنوافذ، معجب بشكله الى حد النرجسية.

● **كراسو**: يهودي، حالم كبير وساحر مالي لا يشق له غبار.

● **جاويد**: موظف محاسبة ويهودي آخر، انكليزي المظهر، معجب بالثقافة الانكليزية ومتفرعاتها.

● **أحمد رضا**: رجل حازم وصارم، حاد الملامح جامد الحركات، أصبح فيما بعد رئيساً لمجلس النواب.

● **رحمي**: جنتلمن متعاون مع الانكليز الى أبعد الحدود.

● **عزت**: السكرتير الثاني للسلطان الذي استطاع بحكم استغلاله منصبه ان يخلق شبكة كبيرة من المتعاونين معه، حتى أصبح يقال انه اغنى رجل في تركيا. وهو عزت باشا العابد، السوري من دمشق.

عند بداية القرن كان نفوذ الماسونية قد أصبح واضحاً. ولم يكن الناس في الامبراطورية العثمانية قد عرفوا الصهيونية بعد ولم يكن تأثيرها كبيراً في ذلك الحين، بينما كانت المحافل الماسونية في سالونيكا وتركيا على علاقات وثيقة مع محافل الهند والماسونيين الهنود الذين كانوا حلفاء الماسونيين في محفل البصرة منذ العام ١٨٩٣.

وكان الماسوني الأهم والأشهر في الشرق الأدنى كله ذلك الحين هو الشيخ خزعل حاكم المحمرة (عربستان). وكان الشيخ خزعل الزعيم الماسوني الكبير لكل محافل بلاد الرافدين. وكان قريب الصلة برجال «تركيا الفتاة» ومن التجار الدستوريين في ايران الذين ثاروا ضد الشاه مظفر الدين، كذلك من الضباط العرب في الجيش العثماني الذين ثاروا بعد ثلاث سنوات على العثمانيين وضباط «تركيا الفتاة» وحكمهم التعسفي. ولعب الشيخ خزعل دوراً أساسياً في الثورة الفارسية لصالح الشاه محمد علي ميرزا عندما تدخل مع قائد قبائل البختيارية الحجي علي قلي خان الذي كان صديقاً لبريطانيا قبل ان يزحف على طهران لاجبار الروس على الانسحاب منها. وكان الروس يريدون عودة السلطة للشاه محمد علي. وأسفر تدخل الشيخ خزعل عن ابقاء الشاه، لكنه ظل محايداً في موضوع الدستور.

وكانت كل من روسيا وبريطانيا قد قسمت ايران الى قسمين بموجب قاعدة فرق تسد. وكان ذلك في آب (اغسطس) ١٩٠٧ بعد سنة من ثورة

التجار. وبموجب المعاهدة الروسية ـ البريطانية التي وقعها في بطرسبورغ كل من وزير الخارجية الروسي الكسندر ايسفولسكي والسفير البريطاني لدى بلاط قيصر روسيا السير ارثر نيكلسون، لتحديد نفوذ الدولتين في كل من فارس وافغانستان والتيبت، قسمت ايران الى ثلاث مناطق:

- الشمال: تحت النفوذ الروسي.
- الجنوب الشرقي: تحت النفوذ البريطاني.
- المنطقة الوسطى: حيث تكمن آبار النفط، محايدة.

وعندما نشبت الثورة مجددا عام ١٩٠٩، لجأ الشاه محمد علي ميرزا الى السفارة الروسية في طهران خوفاً من هجمات رجال قبائل البختيارية التي كانت قد وصلت الى ابواب طهران. واختير ابنه سلطان أحمد، وكان عمره ١٣ عاماً، شاهاً خلفاً له. وضمن محمد علي ميرزا حياته بفضل تدخل الشيخ خزعل.

* * *

وفي هذه الأثناء كان لروسيا رجل من نوع آخر يعمل لحسابها في المنطقة هو البارون نولده من ارستقراطيي امبراطورية الهابسبورغ الالمانية ـ النمساوية. وكان البارون نولده قد قام برحلة داخل الجزيرة العربية عام ١٨٩٣.

في ذلك الوقت كان محمد بن الرشيد يحكم قلب الجزيرة العربية من عاصمته في حائل على بعد ٤٥٠ ميلا جنوب غرب بغداد وأبعد قليلاً من ذلك نحو دمشق في الجنوب الشرقي. وكان الاتراك يحتلون ساحل الاحساء في الخليج. والتقى نولده مع ابن الرشيد اثناء تطوافه في الجزيرة العربية تلك السنة، ممثلا لمخابرات القيصر الروسي. وبحث البارون النمساوي، الذي كان يعمل للمخابرات الروسية، مع ابن الرشيد امكانية ان يكون لروسيا مرفأ في مياه الخليج انسجاماً مع طموحات روسيا التاريخية في أن تصل الى بحار الجزيرة العربية الدافئة، بحيث ترسو البواخر الروسية على سواحل الخليج لترفع اعلامها في وجه الاعلام البريطانية والالمانية والفرنسية مهددة مشاريعهم التوسعية في

المنطقة.

وسار البارون نولده حاملا معه مشاريع روسيا باتجاه الرياض بعد ان قضى فترة طويلة في حائل. ولم يعرف ماذا جرى له في الرياض. لكننا نعرف انه عاد من الرياض الى دمشق ومنها الى فيينا وسان بطرسبورغ (لينينغراد اليوم). وبعد اقامة قصيرة في العاصمة الروسية سافر الى لندن، ونزل في فندق في بوند ستريت لمدة سنة، كان خلالها على اتصال مستمر بالسفارة الروسية هناك. الى ان وجد قتيلا في غرفته بالفندق عام ١٨٩٥ (وقيل انه انتحر) مع رسالة منه الى السفارة الروسية في لندن يطلب منها ان تسحب من أمواله المودعة في أحد البنوك الانكليزية مبلغاً لتأمين جنازة محترمة وقبر لائق به.

وبموت البارون نولده في لندن كانت المخططات الروسية في الجزيرة العربية والمشرق ما زالت في بدايتها. ولم تعرف تفاصيل كثيرة عنها في ذلك الوقت الا المفاوضات التي دارت بينه وبين ابن الرشيد لتأمين مرفأ لوصول البواخر الروسية الى الخليج. حتى رحلته الى داخل الجزيرة العربية لم يترك نولده عنها معلومات كثيرة، الا انه سبق عدداً كبيراً من الجواسيس ـ الرحالة الانكليز والنمساويين والألمان الى القيام بها.

* * *

في عام ١٩٠٨ دعت كل من حكومة الهند البريطانية ووزارة الخارجية ووزارة الحربية في لندن الى اجتماع في «فندق فيكتوريا» في دمشق لتدارس الوضع في المنطقة وتنظيم عملائها واستخباراتها، حضره عدد كبير من خبراء، وجواسيس، بريطانيا في المنطقة.

ولم تكن دمشق في ذلك الوقت مجرد مدينة تاريخية قديمة في الشرق، لقد كانت عاصمة الشرق كله ومدينته الأولى، والمكان الأجمل الذي يضج بالحياة والناس والصخب مع الخضرة والمياه وتسهيلات الحياة العديدة، بقدر ما كانت مفتاح العالم العربي ومركز تآمر العرب والأتراك والقوى الاوروبية مجتمعين.

في ١٠ آب (اغسطس) ١٩١٠، بدأت ملامح حرب في الصحراء السورية بين القوات التركية وسكان حوران من الدروز تتخذ شكلاً جدياً. حرب لم تكتب عنها صحافة العالم ولم يأت ذكرها الا بالبرقيات

الرسمية وبعض البلاغات التي صدرت في الآستانة (اسطنبول). لكن قبل اندلاع هذه الحرب كان قد وصل الى دمشق كل من جيرارد ليتشمان والكابتن اف. اي. باك المسؤول عن المخابرات الانكليزية في القاهرة. ولحق بهم من سيملا في الهند كل من سي. سي. مورفي ونورمان براي، المسؤولين عن المخابرات في حكومة الهند البريطانية.

وكان الجيش التركي بقيادة الجنرال سامي باشا الفاروقي يرابط عند سكة حديد درعا في الأسابيع الأولى من شهر آب (اغسطس) تلك السنة. لكن القيادة العليا كانت للمشير فتحي باشا قائد الجيش الخامس التركي في دمشق. وقدر ضباط المخابرات البريطانية في سورية قوة الجيش التركي المرابط على امتداد ١٣٠٠ كيلومتر على طول الخط الحديدي الحجازي بحوالي ٢١,٠٠٠ رجل من احتياط الجيش الأول والجيش الخامس التركيين، بالاضافة الى خيالة وسلاح فرسان وسلاح مدفعية ميدان. وكان هذا الجيش هو الدفعة الأولى من تدريب الخبراء الألمان بقيادة الميجور فون هوخوشتر. وكان هذا هو السبب الرئيسي للاهتمام الانكليزي بالحشود التركية. لكن الاتراك كانوا يريدون ان يلقنوا الدروز درساً ليمنعوا قيام أية ثورة أو عصيان عربي في أنحاء الامبراطورية، وينتقموا لانتصار الدروز عام ١٨٩٦ على جيش الجنرال عبد الله باشا في أذرع.

وفي ١٩ أيلول (سبتمبر) ١٩١٠ تحركت القوات التركية. الفرقة الأولى بقيادة الكولونيل عبد الحميد بك كانت في درعا، والفرقة الثانية بقيادة الكولونيل علي بك في خربة الغزالة، والفرقة الثالثة بقيادة الكولونيل ناجي بك في الوسط الغربي على مقربة من شهبا. وعندما سار سامي باشا بجيشه في أواخر الشهر من درعا باتجاه حوران كان الكولونيل ستيورات نيوكومب المكلف، بمهمات خاصة، من المخابرات الانكليزية في القاهرة قد وصل الى دمشق. وكان نيوكومب في الثانية والثلاثين من عمره وأستاذاً معروفاً في علم الرياضيات قد خدم مع كيتشنر في السودان ومصر وخدم مع غيره في فلسطين، وقد سبق له ان جال في أنحاء كل هذه البلاد على الناقة أو على الحصان. وكان مشهوراً كفارس يجيد ركوب الخيل والجمال.

تقدمت القوات التركية لحصار الدروز في حوران، وقبل ان يضيقوا

الخناق عليهم خرج زعيم الدروز يحيى بك الأطرش مع خمسة من قواده حاملين الاعلام البيضاء ومطالبين بالتفاوض مع الاتراك. فما كان من سامي باشـا إلا أن اعتقلهم على مرأى من الضباط الانكليز وأودعهم السجن. وانتقل الخبر الى عرب سورية الذين اعتبروه دليلا جديداً على عدم الثقـة بوعـود الاتراك وتأكيدا على سياستهم القمعية. وعلق احد السوريين على ذلك بقوله: «ان ثقباً جديداً في المنخل التركي لن يقدم أو يؤخر في شيء».

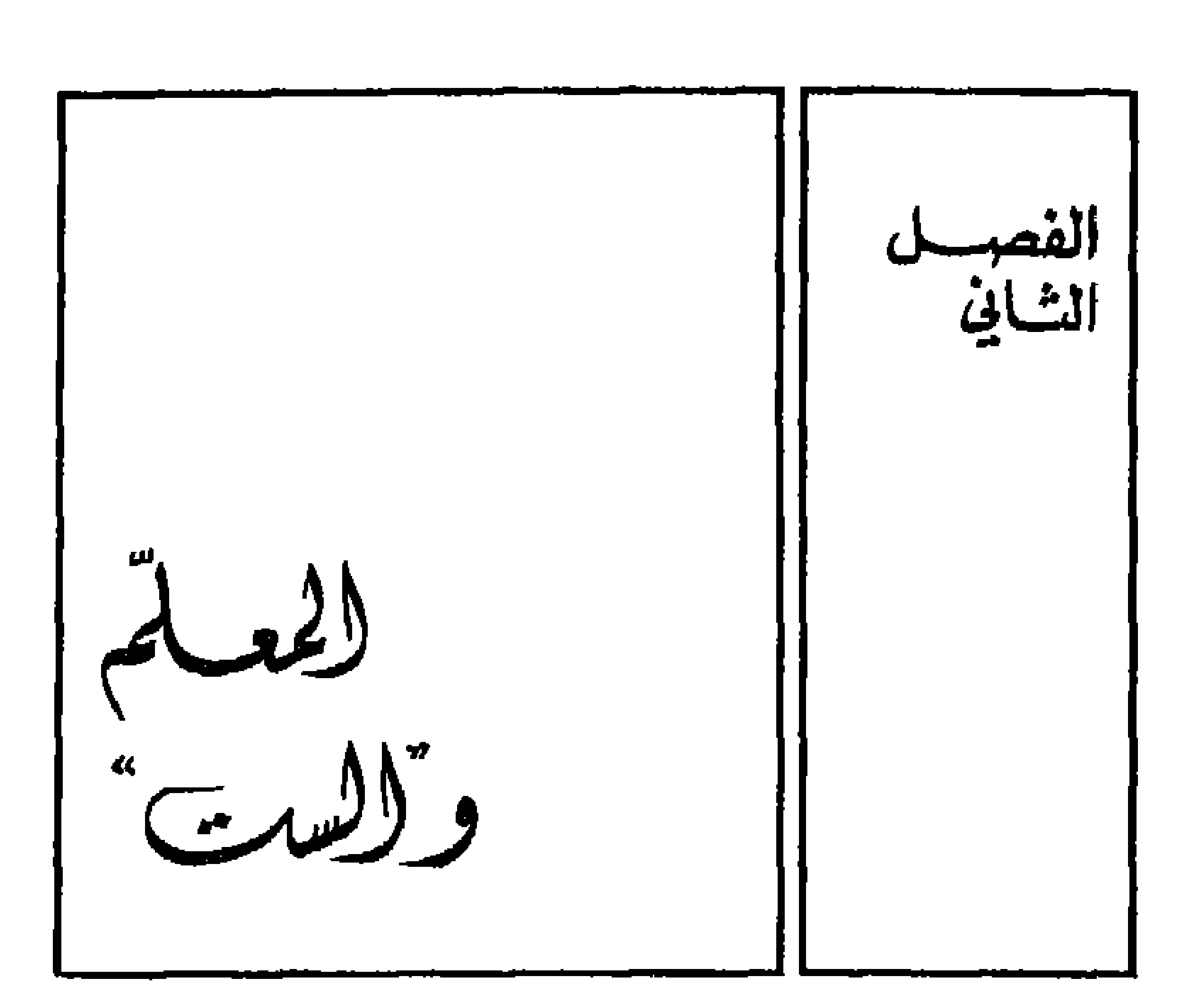
وصل خبر اعتقال يحيى بك الأطرش الى ضباط المخابرات الانكليزية المجتمعين في «فندق فيكتوريا» في دمشق. واستاءت غيرترود بل من هذا الخبر وهددت بكتابة مقال عنه في صحيفة «سبكتاتور» الانكليزية. كذلك اشتعلت النيران في جبل الدروز عندما وصل سامي باشا الى قاعدته في السويداء وبدأ باعتقال حوالي ٢٥٠ درزياً والحاقهم بالجيش التركي، محاولا أن يلقن الدروز درساً ومعهم باقي عرب الولايات العثمانية اذا شاؤوا العصيان. وكان الدروز قد قتلوا نتيجة لهذه المناوشات ٩٣ جنديا تركياً مقابل ٤٠٠ قتيل منهم. وكانت خطة يحيى بك الأطرش التفاوض والتسليم لاحبـاط خطة سامي باشـا في تحقيق انتصـار على الدروز والتنكيل بهم وبحلفائهم عرب دمشق وضواحيها. وكان اكثرية الجيش التركي التي ارسلت الى حوران من مسيحيي الاناضول واليونان.

لم تمر أسابيع قليلة على الانتصار التركي على دروز حوران وجبل العرب، حتى أرسل محمود شوكت باشا، وزير الحربية التركي، تعليمات الى سامي باشا في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٠ لارسال حامية تركية صغـيرة لتعـزيـز دفاع الكرك والحاق أكبر عدد من السوريين والعرب بالجندية الاجبارية التركية. وظن الباب العالي في الآستانة ان السهولة التي انتصر بها سامي باشا على يحيى بك الأطرش ممكن ان تتكرر.

ووصلت أخبـار التحـرك التـركي وسـوق السـوريـين الى الجندية الاجبارية التركية الى الكرك وضواحيها، قبل ان يحرك سامي باشا من السـويداء تعزيزاته العسكرية. فبدأ السوريون يقيمون التحصينات حول الكرك ويحاصرون القوات التركية، ثم هاجموا ١٦ معسكراً تركياً وقتلوا ٨٠٠ جنـدي، بعـد ان سرقـوا الأسـواق واستـولوا على ماليـة «الريجي» (ادارة حصر التبـغ والتنبـاك التي كانت ماليتهـا تعود الى

الآستانة). ومن الكرك اتجه العرب نحو الخط الحديدي الحجازي ونزعوا ٨٠ كيلومترا منه واحرقوا خمس محطات وحطموا خطوط البرق وسرقوا وأحرقوا القطارات. ومرت أربعة أيام قبل ان يصل سامي باشا وقواته ليجد ان السوريين العرب قد اختفوا في الصحراء وان الأرض تركوها محروقة للاتراك. وكانت الهزيمة الثانية للقوات التركية خلال سنوات.

وبالطبع لم يعرف العالم شيئا عن هذا الانتصار العربي، كما لم يعرف شيئاً عن الحملة الدرزية التي سبقته. لكن هذين الحدثين كانا نقطة تحول في العلاقة التركية ـ العربية وفي اللعبة الدولية التي بدأت معالمها تزداد وضوحاً.



الفصل
الثاني
المعلم
و"الست"

٢ هوغارث ، بل ، لورانس ، وآخرون

كانت الجامعات مجال التجنيد التقليدي لاجهزة الاستخبارات في معظم الدول الاوروبية، كما كانت المركز الذي تتجمع فيه العقول الممتازة والمنحرفة في بعض الاحيان. وكانت الجامعات ايضاً توفر أعلى درجة ممكنة من الغطاء الاكاديمي للانشطة المختلفة. وكان الباحثون في الميادين المختلفة، سواء في علم الآثار أو النباتات أو طبقات الأرض أو حتى علم الطيور يحصلون من الجامعات على المبررات العلمية للبحث في الأماكن الغريبة وتسجيل كل ما يشاهدونه أو يسمعونه. ولم يكن رجال المخابرات الذين يسعون خفية الى تجنيد أصحاب المواهب في الجامعات سيجدون شخصاً أفضل من دافيد جورج هوغارث الذي كان يدرِّس في كلية وينشستر ومودلين بجامعة اكسفورد وحصل على تقديرات كبيرة في العلوم الحديثة والانسانية ثم عاد للتدريس بنفس الكلية عام ١٨٨٦. وكان يتسم كذلك بالتعالي والغرور، كما كان يحتقر الديموقراطية بقدر ما كانت لديه مؤهلات ممتازة الى جانب أنه كان يتمتع بميزة اضافية تتمثل في أنه كان مختصاً بعلم الآثار.

وبالطبع كان للأسرة والاتصالات الاجتماعية وزنها الكبير في مثل هذه الأمور. وكان هوغارث متميزاً أيضاً من هذه الناحية. وعن طريق احدى الصدف الغريبة التي تحدد مصير الانسان في أحيان كثيرة كانت الكنيسة هي الطريق الذي دفع هوغارث الى الجاسوسية. فقد كان والده القس جورج هوغارث المشهور بعلمه من معارف البروفيسور بالمر قبل أن يلقى هذا البروفيسور حتفه في سن مبكرة في صحراء سيناء التي ذهب اليها مع ضابطي المخابرات جيل وتشارينغتون ومعهم ٣٠,٠٠٠ جنيه استرليني ذهب في أعقاب احتلال مصر. وكان هوغارث أيضاً من

الشخصيات المعروفة في دوائر المتخصصين في الشؤون العربية بجامعة اكسفورد والطلبة الذين يدرسون العناصر السامية هناك وعلى رأسهم دافيد مارغوليوث الذي كان رئيساً لقسم اللغة العربية بجامعة اكسفورد، وكان بدوره من معارف دينيسون روس مدير معهد الدراسات الشرقية بلندن. وقد أضبح روس بعد ذلك «مستشاراً خاصاً» لمدير الاستخبارات العسكرية، وابتداء من عام ١٨٩٦ كان يساعد في انتقاء وتقييم الافراد من أجل الخدمة في الشرق الأوسط.

وكان أول وأشهر الأفراد الذين انتقاهم روس، غيرترود بل التي كانت تتكلم اللغة العربية وتستطيع التنقل لفترة طويلة في الصحراء وذات اطلاع كبير في الآثار وفن المعمار القديم لتبرير تنقلاتها، وكانت باختصار كنزاً لأي جهاز استخبارات. وكانت غيرترود بل تدرس بكلية ليدي مارغريت هول بجامعة اكسفورد مع جانيت شقيقة هوغارث. وكان لوالد هوغارث صديق آخر هو القس هنري توماس آرمفيلد من ليدن، وقد تزوجت ابنته الضابط البحري ويليام هول الذي أصبح أول مدير للاستخبارات البحرية عند تشكيلها عام ١٨٨٢ في أعقاب احتلال مصر والأخطاء التي حدثت في حملة سيناء.

وفي الفترة من ١٨٨٧ الى ١٩٠٧ كان هوغارث الأنيق والمعتد بنفسه والذي كان يتميز بلحيته المدببة ومظهره الذي يوحي بأنه من العلماء، قد اشترك في عدد من بعثات التنقيب عن الآثار. اشترك في بعثة في آسيا الصغرى مع السير ويليام رامزي المؤرخ وخبير النقوش الشهير للكنائس التي يعود تاريخها الى بداية انتشار المسيحية في الدولتين الرومانية والبيزنطية، وقد أرسل السير رامزي، هوغارث الى اليونان لتعلم هذا الفن. وبعد ذلك عمل في بافوس ويوفيسوس وكنوسوس وكريت مع السير آرثر ايفانز مدير متحف اشموليان في اكسفورد، كما توجه الى مصر مع فريق من المتحف البريطاني. وعمل هوغارث أيضاً مراسلا لصحيفة التايمز عام ١٨٩٧ اثناء وجوده في كريت مع بعثة أثرية في الوقت الذي كانت الدول الاوروبية تحاول فيه اخراج الأتراك من هناك.

وفي عام ١٨٩٧ تم تعيين هوغارث مديراً للمدرسة البريطانية في اثينا، وفي عام ١٩٠٩ خلف السير آرثر ايفانز مديراً لمتحف اشموليان. وفي الوقت نفسه نشر هوغارث العديد من الكتب التي جعلت اسمه يشتهر

كعالم له آراء محددة بشأن الامبراطورية العثمانية وخصوصاً المشرق العربي وشبه الجزيرة العربية. وخلال الرحلات التي قام بها في آسيا الصغرى قابل هوغارث شخصاً انكليزياً آخر هو فالنتاين اغناتيوس كيرول الذي كان يبلغ من العمر ٤٨ سنة عند نهاية القرن الماضي، وكان قد بدأ العمل ككاتب في وزارة الخارجية البريطانية في ١٨٧٢، وكانت له صلة كبيرة بقصة التدخل البريطاني في الدول العربية، مثله في ذلك مثل معظم معارف هوغارث.

وكان كيرول قنصلا عاماً لبريطانيا في برلين وقام برحلات كبيرة في تركيا ومصر وفارس والهند كما كان يرتبط بصداقة وثيقة مع تشارلز هاردينغ وكيل وزارة الخارجية البريطاني الذي خلف اللورد مينتو في منصب نائب الملك في الهند، وكان كيرول صديقاً لغيرترود بل أيضاً. وفي عام ١٨٩٩ خلف كيرول السير دونالد ماكينزي في منصب مدير قسم الانباء الخارجية بصحيفة التايمز. وكان قد كتب أيضاً عددا من الكتب عن الشرق. وكان يشتهر باسمه المستعار «دومنول» الذي اطلق عليه أثناء وجوده في رومانيا والذي يعبر فيما يبدو عن الانكليزي النبيل باللغة العامية الرومانية. وهكذا ضم عالم دافيد هوغارث شخصيات مختلفة من الاستخبارات العسكرية والبحرية، ورجال عملهم الحصول على المعلومات في الخارج، وشخصيات طريفة من العاملين في حقل التنقيب عن الآثار.

واستطاع رجال هوغارث ان يزودوا الاستخبارات البريطانية بمعلومات عن العمليات الماهرة التي كانت تقوم بها الجمعية الشرقية الألمانية التي كان لها وجود مستقر على ضفاف دجلة والفرات مع حلول عام ١٩٠٨. وفي الوقت الذي وصل فيه فريق هوغارث الى سورية كان خطر وقوع نزاع قد وصل الى نقطة دفعت وزارة الحرب البريطانية الى اتخاذ قرار بالتوقف عن نشر «المهام الخاصة» التي تكلف بها وزارة العمليات العسكرية، وتولى الكولونيل الكونت فون غلايشن مدير الاستخبارات السابق في القاهرة والملحق العسكري السابق في واشنطن وبرلين تولى الادارة الثانية للعمليات العسكرية التي كانت تشمل المانيا والشرق الادنى (مصر وسورية والجزء الاسيوي من تركيا) وفرنسا ومناطق أخرى. وتولى الكولونيل جـ.أ. هالدين مسؤولية الهند وشبه

الجزيرة العربية في الادارة الثالثة للعمليات العسكرية التي شكلت حديثاً.

وفي عام ١٩٠٨ قبل تولي «جمعية الاتحاد والترقي» السلطة في تركيا وبعد فترة قصيرة من صدور أوامر السلطان عبد الحميد بمد خط بغداد للسكك الحديد الى الفرات وعبوره النهر في نقطة قريبة من قرقميش، صدرت الأوامر للسير جيرالد لوثر ـ السفير البريطاني في القسطنطينية ـ بالتقدم للسلطان العثماني من أجل الحصول على تصريح لفريق بريطاني بالتنقيب عن الآثار هناك. وكان من حسن حظ بريطانيا ان كان لدى المتحف البريطاني عقد ايجار لاحدى المناطق هناك خارج قرية جرابلس مباشرة. وتوجه هوغارث اليها وبدأ أعمال الحفر في نهاية صيف ١٩٠٨.

***

دخلت غيرترود بل المشرق العربي بدخول القرن العشرين. كانت في الثلاثينات من عمرها، الابنة المفضلة لتاجر حديد انكليزي، عندما وصلت الى القدس في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٩، لتشهد بداية القرن الجديد وسط المدينة المقدسة الحاوية لكل القوميات وكل الاجناس. وكان قد سبق لها ان تعرفت على امبراطور المانيا ولهلم الثاني في السنة التي قام بها برحلته الى القسطنطينية.

نزلت غيرترود بل في «فندق القدس»، على بعد دقيقتين مشياً من القنصلية الالمانية، حيث قضت معظم وقتها بصحبة القنصل الألماني الدكتور فردريك روزن الذي سبق لها ان تعرفت على عائلته عندما زارت ايران قبل عدة سنوات، حيث كان روزن وزيراً مفوضاً لالمانيا في طهران، وحيث كان خالها فرانك لاسلز وزيراً مفوضاً لبريطانيا.

وفي طريقها الى القدس، مرت غيرترود بل على ايطاليا حيث تعرفت على عالم الآثار الانكليزي الدكتور دايفيد هوغارث الذي كان كنظرائه الالمان، صلة الوصل بين أجهزة مخابرات بلاده وأساتذة الجامعات والاكاديميين المختلفين، الذي عملوا فيها فيما بعد في طول البلاد العثمانية وعرضها.

بعد أسابيع قليلة في القدس، بدأت بل في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٠ رحلة جمعت بين الفضول السياحي وجمع المعلومات، وشملت محطات

سكك الحديد الاستراتيجية والمنشآت العسكرية. واستغرقت الرحلة ستة أشهر زارت فيها عين موسى، مأدبا، الكرك، وادي موسى، درعا، السلط، بصرى اسكي شام، جبل الدروز، دمشق وتدمر. وكانت كلها أماكن تغلي بالثورة أو تهدد بها. كذلك كانت مواقع على خط حديد الحجاز، حيث كان المهندسون الأتراك والالمان يبنون سكة حديد بين دمشق والمدينة، عرفت فيما بعد بالخط الحديدي الحجازي. وقامت بتصوير هذه المدن والمنشآت ورسمت خرائط طوبوغرافية لها بعثت بها الى مركز المخابرات في لندن والى الجمعية الملكية الجغرافية.

وأبدت اهتماماً خاصاً في كل مكان كانت تصل اليه وتستريح فيه وخاصة بالمعسكرات التركية في دمشق ودرعاً وكرك ومعان. فهناك كانت تشاهد نوعاً جديداً من العسكري التركي والعسكري العربي في الزي العثماني، اذ كان الخبراء الالمان يقومون بتدريبهم بقيادة الفيلد مارشال فون در غولتز رئيس البعثة العسكرية في اسطنبول (الذي كان الأتراك يسمونه «غولج باشا») وهناك تعرفت أيضاً على المهندس الألماني الهر مايسنر الذي كان يتولى بناء خط الحديد بين دمشق ومكة (لكنه لم يصل اذ انتهى بناؤه الى المدينة) على امتداد ٩٠٠ ميل، على طريق الحج القديم نفسه، الذي كان لألف وثلاثمئة سنة خلت طريق القوافل والجمال التي كانت تنقل الحجاج كل عام.

وبين ١٩٠٢ و١٩٠٤ بدأت بريطانيا تعزز مرحلة الاكتشاف والتجسس الانكليزي. مارك سايكس العائد من حرب البور في جنوب افريقيا، ذهب الى سورية والعراق ليمتحن عربيته التي تعلمها في كامبردج وبرفقته جون سميث، صديق من أيام الجامعة والحرب، ومستشرق آخر. وفي حلب انفصل سايكس عن سميث، فذهب سايكس باتجاه جبال طوروس ومنها الى كردستان حتى الحدود الروسية في تفليس. وذهب سميث جنوباً نحو حمص ودمشق وبيروت. وفي عام ١٩٠٥ عين سايكس ملحقاً في القنصلية البريطانية في القسطنطينية. في ذلك الوقت كان اللورد كورزن في الهند واللورد كرومر في مصر هما سيدا بريطانيا ما وراء البحار.

في العام ١٩٠٤ كانت تعليمات وزارة الخارجية البريطانية تقضي بأن لا يدخل أحد من عملائها الجزيرة العربية وان لا يتعاملوا مع عبد العزيز

بن عبد الرحمن آل سعود في نجد وان لا يذهب أحدهم الى عاصمته الرياض، بينما كان عبد العزيز آل سعود يخوض حرباً مع ابن الرشيد، الذي كانت تسلّحه تركيا العثمانية. وعلى الرغم من حاجة بريطانيا الى المعلومات عن سير الحرب بين عبد العزيز وابن الرشيد، الا ان التعليمات كانت مشددة بأن يظل النشاط البريطاني محصوراً في الحدود الشرقية للجزيرة العربية، وسواحل الخليج.

وفي تلك السنة كان قد وصل الى أريحا، انكليزي آخر من خريجي جامعة كامبردج اسمه دوغلاس كاروثرز أحد اللاعبين الأساسيين في تلك اللعبة الكبرى. وكانت مهمته أن يتعرف على فلسطين وبلاد الشام ويتابع أعمال الهر مايسنر في بناء خط حديد الحجاز. ولكنه في الواقع كان موفداً من القسم الجغرافي للمخابرات البريطانية ليقوم برسم خرائط للمنطقة تحت غطاء البحث عن حيوان المها في الصحراء العربية.

ومن أريحا الى معان عبر البتراء الى تدمر والصحراء السورية، وصل كاروثرز الى دمشق في نيسان (ابريل) ١٩٠٥، ليجد سيدة انكليزية لا يعرفها اسمها غيرترود بل تجلس في بهو فندق «فيكتوريا» تتحدث العربية والفرنسية بطلاقة وتحاور مجموعة من الناس عن زيارتها لجبل الدروز. وكانوا يسمونها في دمشق «الست».

من دمشق ذهبت غيرترود بل الى دمّر، وكانت معسكراً تركياً شرق دمشق. ومنها الى بيروت في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٥، وعبر الساحل السوري مروراً بالقنطرة وحيفا حتى القدس، التي وصلتها لتتناول طعام العشاء مع مارك سايكس وزوجته اللذين كانا يقضيان شهر العسل هناك. وانغمس سايكس وبل هناك في أحاديث الشرق متبارين في عرض المعلومات عن الناس والأمكنة والسياسة والتيارات التي تعصف بالامبراطورية العثمانية في حينه.

وافترقا في القدس. سايكس ذهب الى دمشق والاسكندرية حتى وصل الى القسطنطينية، وبل ذهبت الى حوران وجبل الدروز، حيث كان الصراع دائرا بين الدروز وعرب بني صخر في وادي السرحان، ومنه الى دمشق و«فندق فيكتوريا»، حيث كان مركز اختلاط الأجانب بأبناء البلاد، ومركز اقامة «الست» الدائم في الشام. واستقلت القطار من دمشق الى بعلبك وحلب عند بداية تسييره تلك السنة.

وفي عام ١٩٠٦، وصل انكليزي آخر اسمه أوبري هربرت، برلماني وضابط مخابرات، الى ميناء الحديدة في اليمن، في الوقت الذي كانت ايطاليا تهدد فيه بالحرب اذا لم يوقف الأتراك الهجمات على سفنهم في البحر الأحمر. وكان هربرت قد وصل الى الحديدة عن طريق البلقان واسطنبول وجبال الاناضول. وكان ميالا الى الاتراك ومعجباً بالعسكرية التركية وخاصة الجنود البلقان والارمن والاكراد الذين كان يضمهم الجيش العثماني من مواطني امبراطوريته المتعددة الجنسيات. ومن الحديدة أبحر هربرت عبر البحر الأحمر الى جدة ومنها الى مصر، ومنها الى الحديدة مرة اخرى.

وخلال إقامته في اليمن، عبر سهول تهامة الى المخا ومنها الى صنعاء حيث التقى بعدد من اليهود، كما التقى في صنعاء بتاجر ايطالي اسمه السنيور كابروتي، جاء اليمن من الحبشة بعد هزيمة الايطاليين المستمرة هناك. ولكنه ـ كما يقول عنه هربرت ـ لم يكن «تاجراً عادياً». فقد كان يبيع كل شيء من السلاح الى الاعشاب المنشطة حتى المعلومات. وفي يوم عيد الميلاد عام ١٩٠٧ وصل هربرت الى مسقط عن طريق عدن على متن السفينة «افريقيا» التي التقى ايضا على ظهرها بتاجر الماني اسمه وولف، كان يلقب نفسه بالحاج علي. وكان الحاج علي يبيع اليمنيين ما يبيعه نظيره الايطالي. ومن مسقط أبحر هربرت الى البصرة ومنها براً الى بابل والى كربلاء والى بغداد ودمشق والقدس وبيروت التي عاد منها بحراً الى مقر عمله في القسطنطينية.

* * *

ممثل آخر، قدّر له ان يصبح أشهر اللاعبين على مسرح العالم العربي، كان ينتظر دوره في صيف ١٩٠٩، وهو ما زال غض الاهاب يبحث عن مهمة له مع التصميم بأن يتقن مهنته الجديدة على أحسن ما يكون الاتقان. كان توماس ادوارد لورانس ـ الذي عرف فيما بعد باسم «لورانس العرب» ـ شاباً نحيلاً مربوع القامة في الحادية والعشرين من عمره عندما وصل الى بيروت على ظهر الباخرة «منغوليا»، مسلحاً بمجموعة من الخرائط، زودته بها مخابرات البحرية الملكية البريطانية،

وكـاميرا ذات عدسة مقرّبة، «تلفوتو» غير مألوفة في تلك الأيام ومحملا برسائل من رئيسه دافيد هوغارث، المسؤول عن المخابرات البريطانية في الشرق.

وكان هوغارث قد أخذ يرسل تعزيزات من رجاله الى سورية ولبنان للوقوف في وجه المخابرات الالمانية التابعين لـ «دويتش اورينت غيسلشافت»، الذين كانوا منتشرين في بلاد ما بين النهرين بين الفرات ودجلة عام ١٩٠٨. وفي السنة التالية لذلك وصل لورانس تحت ستار اجراء دراسة عن الهندسة العسكرية للقلاع الصليبية في سورية ولبنان وفلسطين لجامعة اكسفورد. ولما وصل بيروت في ٦ تموز (يوليو) ١٩٠٩، كان مخططه ان يمشي سيراً على الأقدام في طول سورية وعرضها. وفي الواقع بدأ مسيره على الأقدام من بيروت الى النبطية حتى نهاية جبال لبنان الجنوبية، برفقة دليل لبناني استأجره في صيدا. ومن الجنوب اللبناني وبعد ان سبح في مياه الليطاني، سار الى صفد في الداخل الفلسطيني. ومن هناك الى بحيرة طبرية. ثم عاد لورانس عن طريق الناصرة الى حيفا ومنها الى جبال الكرمل حتى رجع مرة ثانية الى بيروت. في جبيل زار مدرسة البرسبيتيريين الاميركان، وهي ارسالية اميركية بروتستنتية، حيث تعرّف على آنسة اسمها فريدة عقل من برمانا اخذت تعلمه العربية، وقد ظنته في البدء أحد السيّاح المتشردين الألمان.

من بيروت مرة ثانية مشى لورانس الى طرابلس ومنها الى حلب التي وصلها في ٢٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٠٩. ومنها باتجاه الفرات حتى وصل جنوب جبال طوروس وعاد الى حلب. ومن حلب سار باتجاه سكة حديد الحجاز نحو حمص وحماه وقلعة الحصن التي وصفها لورانس بأنها «أعظم قلعة في العالم»، وقد كانت وقتها سجناً تركياً. وكان لورانس وهو لا يزال مبتدئاً بالعربية ولم يتقن وقتها الا بعض كلمات السلام والتحية، يتكلم مع معظم الناس بالفرنسية اذ كان بعضهم يعرفها، ولم يتكلم الانكليزية إلا مع القليلين الذين كانوا يعرفونها.. ومن قلعة الحصن ذهب لورانس الى القلعة الصليبية الثانية التي تليها شهرة، وهي قلعة الكرك على البحر الميت. في هذه الأثناء كانت آلة التصوير التي حملها لورانس معه من لندن قد سرقت منه في حلب. ولم يترك لورانس تفاصيل كثيرة أو هامة عن مسيرته في أرجاء سورية غير الذي أشار هو اليه في كتابه «اعمدة

الحكمة السبعة».

جمــع دايفيد هوغارث فريقه من منقبي الآثار الانكليز في جرابلس على الطرف السوري من نهر الفرات في شباط (فبراير) ١٩١١. وكان آخر من وصل الى جرابلس من الفريق البريطاني لورانس، قادماً من الآستانة التي كان وصلها في منتصف كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٠، عن طريق بيروت وجبيل. وكان لورانس قد سلك طريقاً ملتوياً الى جرابلس، ضمن جبل الكرمل الى الناصرة حتى حيفا، ومن حيفا بالقطار الى درعا ثم شمالاً عبر خط الحديد الحجازي الى دمشق وحلب ومن ثم الى جرابلس، مركز التنقيب عن آثار الحثيين التي وصلها في أواخر آذار (مارس) ١٩١١.

ولم يكن التنقيب عن الآثار المهمة الوحيدة للبعثة البريطانية بل ان اهتمامها كان موجهاً الى الفريق الالماني الذي كان يقوم ببناء جسر فوق الفرات كجزء من سكة حديد بغداد التي كان يقوم بها الالمان والتي كان من المفروض ان تصل بغداد ببرلين عبر آسيا الصغرى. وكان بناء جسر الفرات دليلاً على سيطرة الالمان كلياً على مقدرات تركيا بالنسبة للخارجية البريطانية في لندن. في الوقت الذي كانت تخشى فيه بريطانيا ان تقوم روسيا ببناء خط حديدي من يريفان (عاصمة ارمينيا السوفياتية اليوم) الى الكـويت، وصــولاً الى مياه الخليج الدافئة، وكان سبق للروس ان حادثـوا بشأنه ابن الرشيد، وأرسلوا اخباره الى الشيخ خزعل ليفاتح بشأنه الشيخ مبارك في الكويت. وكان همّ البعثة البريطانية معرفة نوع عرض الخط الحديدي الذي يبنيه الألمان وطوله والامكنة التي سيمر بها. وكانت تعليمات مركز المخابرات البريطانية في لندن ان يراقب الانكليز كل تفاصيل وجزئيات ما يقوم به الألمان في الجانب العراقي من الفرات.

وفي أيـار (مـايـو) ١٩١١ وصلت الى البعثة البريطانية في جرابلس غيرترود بل قادمة من بغداد وأقامت هناك أربعة أشهر، عبرت خلالها الحـدود العـراقيـة ـ السورية واختلطت هناك ببعثة التنقيب الالمانية برئـاســة البروفسور كولديواي، التي كانت تنقب عن الآثار السومرية والبابلية. وعرفت بل من خلال لقاءاتها مع الألمان أن الجواسيس الالمان منتشرون في النجف وكربلاء. واستطاعت ان تدون ملاحظات عن طريقة بناء الألمان للجسور، وعن الطريق المحتمل لسكة حديد بغداد ـ برلين وخاصة بين البصرة وبغداد. وركبت القارب عبر الفرات وقابلت في الطرف

العـراقي أرملة الحليف التـركي للسلطان عبد الحميد، ابراهيم باشا، الذي كان متزوجاً من مسيحية سورية اسمها فتوح، والتي قالت عن غيرترود بل عندما شاهدتها: «هذا رجل».

وكانت شهرة غيرترود بل قد انتشرت في بريطانيا واميركا اثر نشر كتابها «الصحراء والتفاف» (التفاف عشب ذو عصارة لبنية ينبت في الصحراء) التي روت فيه قصص رحلاتها الأولى. ولما وصلت الى جرابلس تلك السنة كان كتابها الثاني «من مراد الى مراد» قد صدر، وكتبت تمدحه صحيفة «التايمز» اللندنية والعديد من الصحف البريطانية والاميركية. وكانت بل كثيراً ما تنتقد مواطنيها الانكليز وتقول إن طرق الألمان في التنقيب عن الآثـار هي أحدث، وان علماء الآثار الألمان أكثر تقدما، مما كان يغيظ لورانس كثيراً. وكانت المرة الأولى التي تلتقي بل بلورانس هناك.

بعـد ستـة أشهـر من بدايـة التنقيب في جرابلس، قررت البعثـة البريطانية اغلاق المكان وتركه بعد ان جمعت ما استطاعت جمعه عن البعثة الالمانية المجاورة وسكة حديد بغداد ـ برلين. وعاد لورانس الى حلب عن طريق تل الأحمر، ثم الى دمشق فبعلبك فبيروت. وفي بيروت أقام مع الشاعر الانكليزي جيمس ايلوري فليكر وزوجته في منزلهما في «عاريّا».

في جرابلس على الفـرات ظل لورانس يتظاهر بالتنقيب عن الآثار في موقـع قرقميش القـديم على الرغم من انتهاء الفترة الرسمية للتنقيب. وأثناء ذلك وصلت الى أسماع لورانس حكايات مثيرة على لسان العرب حول غيرترود بل. وفي الوقت نفسه واصل المهندسون الألمان وفرق العمال العرب العاملين معهم تشييد أحد الجسور على مقربة من مواقع التنقيب.

***

في أيلول (سبتمبر) ١٩١٣ وصل نورمان براي الى دمشق. وكان الميجر نورمان براي يتحرك بين سيملا والقاهرة ودمشق ولندن خلال الفترة من ١٩٠٥ الى ١٩١٤ وان لم يكن ضمن أسمـاء من ضمتهم «القـائمـة الخـاصـة بالتجسس» لهـذه الفتـرة ولم يدرج اسمه فيها سوى عام ١٩١٦. وعلى الرغم من ذلك فقد كان خلال هذه الفترة على صلة مباشرة

بمكاتب هيئة الاركان العامة في لندن.

وكتب براي عام ١٩١٣ يقول: «كانت مهمتي الرئيسية هي كسب أكبر عدد من الأصدقاء». وبالفعل نفذ براي مهمته حرفياً. فقد عقد عدداً من الاجتماعات مع القنصل الانكليزي في دمشق جورج ديفي ومع هنري كمبرباتش من بيروت الذي كان واحداً من أوسع العاملين في السلك القنصلي خبرة في الشرق كله. كما عقد اجتماعات مماثلة مع الخصم المحنك جورج بيكو الذي كان يعمل ضمن البعثة الفرنسية في بيروت، ويدير المكتب الثاني الفرنسي.

ولكن براي كان يركز على الضباط الأتراك والألمان. صحيح أن الالمان لم يكونوا وديين تماماً، لكن ساحة لعب البولو كانت بمثابة مكان مفيد للقاء. وكان براي يقضي معظم وقته في الحديث مع العرب من جماعة «العهد» الذين توهجت روحهم الثورية بسبب اخفاق جماعة «الاتحاد والترقي» في الوفاء بوعودها القديمة لتحقيق المساواة تحت الراية العثمانية.

وكتب براي يقول: «لقد تم التوصل الى تفاهم مع عدد من أقوى الزعماء العرب والقبائل العربية بل ان هذا التفاهم امتد ليشمل بعض الزعماء المسيحيين والدروز». واستطرد يقول: «وباستثناء ابن الرشيد حاكم حائل الذي كان بالقطع موالياً لتركيا والامام يحيى امام اليمن، كانت الاستجابات كلها لمصلحتنا».

وقد تم وضع خطط محددة للثورة، غير ان براي لم يكن يعرف ان الزعيم العراقي السيد طالب النقيب قد قطع الطريق على هذه الخطط. فقد حضر عدة اجتماعات مع جماعة «العهد» من سورية ولبنان والعراق كما اجرى محادثات سرية مع أكثر زعمائها اعتدالا وحكمة من مسلمين ومسيحيين.

وكان براي يبدو واثقاً من أن الأتراك والالمان كانوا يجهلون هذه المؤامرة. لكنه لم يكن على صواب. فقد ظل العميل النمساوي آلوا موزيل على علم بتطورات الأمور عن طريق نوري الشعلان، وعن طريق موزيل ايضاً، كانت فيينا وبرلين وحتى باريس تتابع عن كثب الخطط التي يديرها أمراء الصحراء. وبدأت تتضح أهمية الرحلات التي قام بها ليتشمان وشكسبير لزيارة ابن سعود عندما اكتسبت خطة قيام ثورة

عربية ضد الاتراك قوة دافعة جديدة.

وظلت كل من الادارتين المسؤولتين عن الشؤون الحربية في وايتهول في لنـدن وسيمـلا في الهنـد تراقبان الموقف بكل يقظة. وكان شكسبير وليتشمان العميلين الوحيدين اللذين يتمتعان بالخبرة والعزيمة اللتين اكتسباهما من رحلاتهما الصحراوية بدرجة تسمح لهما بالقيام باكثر الرحلات خطورة واجهاداً في المناطق الداخلية. ولكن ما لبث عدد آخر من الاشخـاص ان بدأوا يتحـركون على اطراف الجزيرة العربية بل والى مسافات بعيدة داخل مناطق ابن الرشيد وابن سعود بدرجة تمكنهم من مراقبة تحركاتهما وخططهما. أما براي فقد كان يراقب الموقف في دمشق من موقعه كحلقة اتصال بين وزارة الحربية في لندن والاستخبارات في سيملا.

وقد بقي براي في دمشق خلال شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣ وظل على عادته يتجول في الحانات والنوادي يسترق السمع للالمان وهم يثـرثرون طويلاً حول الخط الحديدي بين برلين و بغداد، «غير مبالين بمشاعر أهالي المنطقة ودون أن يفكروا بغير الاستراتيجية». وفجأة ظهر الحاكم الفعلي لتركيا أنور باشا يرفل في بزة جنرال ويسير مختالا وكأنه صورة كاريكاتورية لديكتاتور عسكري. وكان ـ في ذلك الوقت ـ يتفقد حامية دمشق.

ويقول براي: «وخلال هذه الزيارة أبلغني عدد من الضباط الاتراك ـ الذين كنت على علاقة ودية معهم ـ بأن برنامجاً للتدريب المكثف سيبدأ قريبـا، وأنـه سوف يستكمـل بحلول شهـر تموز (يوليو) ١٩١٤. وقد تساءلت عن السبب في هذه العجلة وفي اختيار شهر تموز (يوليو) بالذات، فقالوا لي ـ في إجابة مبهمة ـ ان روسيا تقوم بتعزيز قدراتها العسكرية على الحدود الارمنية في تكتم وأنه يتعين على تركيا أن تعد نفسها لأية تطورات قد تحدث في المنطقة في نهاية المطاف».

وفي اواخر عام ١٩١٣ ـ عندما كان براي ما يزال في دمشق ـ عادت غيرترود بل الى هناك مرة اخرى. وكان الفندقان الفخمان اللذان ينزلان فيهما وهما «بالاس» و«فيكتوريا» يقعان على مرمى حجر من سراي الوالي. ولكن لم يشر أي منهما الى وجود الآخر سواء في الرسائل الشخصية، أو في التقارير اللاحقة التي كتباها عن زيارتيهما. وقد مُنحت غيرترود بل

تصريحا من وزارة الخارجية بالسفر من هناك الى حائل. كما حصل لها سير لويس ماليت على موافقة الباب العالي.

وعندما انضمت غيرترود بل في كانون الثاني (يناير) ١٩١١ الى مجموعة الجواسيس البريطانيين المجتمعين في «فندق فيكتوريا» في دمشق لمراقبة أوضاع الامبراطورية العثمانية وللتنسيق في الخطة البريطانية التي تعد للشرق الأدنى. في الوقت نفسه كان الضباط الألمان بقيادة الميجور فون هوخويشتر، والمنتدبون للجيش العثماني قد اتخذوا من «النادي الدولي» في دمشق مقراً لاجتماعاتهم ولهوهم. وكان لـ «النادي الدولي» جواسيس في «فندق فيكتوريا» والعكس.

ولم يخل الأمر من بعض المغامرات. اذ أرسل الضباط الالمان حسناء مصرية، الى «فندق فيكتوريا» بالاتفاق مع مديره لتقتل الميجور براي ممثل مخابرات حكومة الهند البريطانية الذي جاء دمشق من سيملا في الهند لحضور اجتماعات المخابرات البريطانية في الشام. واستطاعت هذه الحسناء المصرية ان تتسلل الى غرفة الميجور براي. وبعد حفلة غزل وحوار دام فترة اقترحت الحسناء بعض القهوة. وعندما حضرت القهوة أصرت على براي أن يشربها. لكن ضابط المخابرات الانكليزي العتيق شك بالأمر، فتحايل على المصرية بأنه شربها حتى خرجت من غرفة نومه. وعندما فحص القهوة اكتشف ان فيها مادة «الارسنيك» السامة.

* * *

أدى تفاعل الشخصيات والاحداث خلال الشهور الثلاثة الأولى من ١٩١٤ الى تكوين واحدة من أكثر المراحل غموضاً وسرية في التاريخ الحديث للمنطقة العربية.

وكانت غيرترود بل قد التقت مع دوغلاس كاروثرز في لندن ـ قبيل بدء اكثر رحلاتها طموحاً في قلب الجزيرة العربية ـ وحاولت اقناعه بمرافقتها في تلك الرحلة. غير انه لم يتمكن من ذلك. وهكذا بدأت غيرترود بل رحلتها وحيدة. وكان من الواضح ان لورانس في قرقميش كان يعلم انها قد تحركت في اتجاه الشرق. وفي اليوم الذي غادرت فيه دمشق باتجاه الصحراء السورية في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣ ـ كتب في رسالة

الى شقيقه: «سافرت مس بل مباشرة من بيروت الى دمشق... ولن تزورنا قبل الربيع». وليس من الصعب تخمين كيفية حصول لورانس على هذه المعلومات، فقد كانت غيرترود بل تحمل لدى بدء رحلتها ثلاث قطع من الورق تحتوي على أسماء حوالى ٣٠ مكاناً حددت مواقعها الجغرافية بشكل تقريبي، وكتبت بخطها على الصفحة الأولى منها: «خطط وملاحظات حول المباني وملحقاتها التي يحتاجها مستر هوغارث».

وكانت غيرترود بل خلال سفرها على السفينة «لوتس» من بريطانيا الى بيروت قد نزلت في مقصورة مشتركة مع آنسة بريطانية تدعى وينفرد بيرد كانت متجهة الى الهند للزواج من شقيق الكابتن شكسبير ويدعى هنري. وأشارت غيرترود بل في إحدى رسائلها الى هذه الواقعة مشيرة الى معرفتها بشكسبير الذي وصفته بأنه «رجل ذو كفاءة عالية يعمل بالخليج»، دون أن تعرف أن احداث الفترة التالية سوف تقربها كثيراً من هذا الشخص. وسلكت غيرترود بل في رحلتها طريقاً باتجاه الجنوب الشرقي منطلقة من دمّر وكأنها تنوي السير في اتجاه بغداد قبل أن تنحرف غرباً في اتجاه خط حديد الحجاز. وكانت طوال رحلتها تسجل ملاحظات وتخطيطات مبسطة للأماكن الواردة في أوراق هوغارث، كما التقطت عدداً لا يحصى من الصور الفوتوغرافية.

وكان كاروثرز ـ حين منعته الظروف من مرافقتها في الرحلة ـ قد رتب أن يكون معها الدليل الذي اعتمد عليه لسنين طويلة وهو محمد المراوي. وتم ذلك عن طريق محمد البسام. ورغم ان غيرترود بل عبّرت قبيل الرحلة عن رغبتها في أن تقطع كل صلة لها بالعالم المتحضر أثناء الرحلة، إلا أن ذلك لم يكن بالأمر السهل أو المتوفر دائماً. فمن ناحية أثقلت الوحدة على نفسها مع مرور الأيام والليالي، ومن ناحية أخرى كان هناك العديد من المسائل الهامة التي يجب عليها الاهتمام بها قبل أن يصبح بامكانها أن تقطع خيوطها مع حضارة المدينة وتتخذ طريقها باتجاه الجنوب الغربي الى حائل.

كانت مغامرة غيرترود بل عملاً شجاعاً بالنسبة لسيدة وحيدة في بداية خريف عمرها. وقد وقعت أهم أحداثها لا داخل القلاع والقصور المبنية من الطين في حصن شمر وإنما خارجها في مأساة احتلت مكاناً هاماً حتى بالنسبة لأمراء آل الرشيد.

كان أمير حائل سعود بن عبد العزيز آل الرشيد غائباً في احدى غزواته عند وصول غيرترود بل يوم ٢٤ شباط (فبراير) ١٩١٤. وكان بصحبته ابن عمه سعود بن صالح السبهان، والحاكم زامل السبهان وهو عمهما. وكانا ما يزالان في مكان ما من صحراء النفود حين غادرت غيرترود بل حائل بعد اسبوعين في طريقها الى بغداد. وكانت أجواء حائل تموج بالمؤامرات، وهي مؤامرات كانت لها علاقة وثيقة بأحداث تقع في أماكن أخرى من الجزيرة العربية وتتورط فيها تركيا وبريطانيا وابن سعود.

كانت سفينة نقل الجنود البريطانية «جون اوسكوت» قد استخدمت لنقل قوات عثمانية الى الاحساء. وفي اطار الحرج الذي وقعت فيه الحكومة البريطانية ـ حيث كان السير ادوارد غراي وحقي باشا على وشك الاتفاق على عقد معاهدة تركية ـ بريطانية في لندن ـ فانها عرضت حتى إرسال قوات هندية لكبح المد السعودي. وفي نهاية الأمر فرت الحامية التركية الى البحرين وقطر وطالب ابن سعود بطردها، واضطرت بريطانيا للاستجابة لطلبه، خاصة وان القائد السعودي وعد المقيم البريطاني بأنه سوف «يحترم الاتراك كحكام» وسوف يحمل على عاتقه مسؤولية حفظ الهدوء في المنطقة.

ولفترة تركزت المعركة بين خارجية حكومة الهند البريطانية وبين الخارجية في وايتهول حول كوكس وشكسبير وابن سعود. وكتب السير توماس هولدرنس من وزارة شؤون الهند الى السير لويس ماليت في تموز (يوليو) يقول: «أعتقد شخصياً ان وزارة الخارجية تشعر بالخوف من شكسبير والسير بيرسي كوكس».

وفي ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣ رحل لورانس ورفيقه وولي فجأة من قرقميش تاركين جيرانهم الألمان يجمعون قطع الغرانيت من مواقع الحفر لاستخدامها في عمليات البناء التي يقومون بها. واتخذ الرجلان الطريق التي اتبعها اليهود في الماضي السحيق باتجاه قفارزين. وذكر وولي انهما توغلا في صحراء سيناء بناء على طلب «جمعية الاستكشاف المصرية» التي أرادت أن يقوم عدد من الأثريين باستكشاف مسار رحلة النبي موسى.

ومن الأمور ذات الدلالة انه وقت قيام غيرترود بل بهذه الرحلة كان كيتشنر في القاهرة يفكر ملياً في كيفية تأمين أبوابه الأمامية وفي

التهـديدات التي تتعرض لها قناة السويس. وكانت الحدود بين مصر وتركيا حتى ١٨٨٣ تتمثل في خط يمتد من السويس الى رفح، وهي نقطة تقع بين العريش وغزة. وكان الجزء الواقع جنوب هذا الخط من سيناء تابعاً للدولة العثمانية حتى ١٩٠٦. غير انه منذ ١٨٨٣ سيطرت بريطانيا على هذا الجزء انطلاقاً من قلعة نخل.

وفي الفتـرة بين ١٩٠٦ و١٩١٢ كان الحاكم العسكري للمنطقة هو الميجـور الفريد باركر ابن اخي اللورد كيتشنر، والذي تلقى تعليمه في هارو ثم التحق باحـدى فرق الجيش عام ١٨٩٥ ثم خدم في الجيش المصري منذ ١٨٩٩. وقد خلف في منصبه هذا الكولونيل الوين جنينغز براملي الذي عرف بالعناد والجلد. وفي ١٩١٢ غادر باركر ليتولى قيادة مدرسة الشرطة المصرية بالعباسية، احدى ضواحي القاهرة. وخلفه في منصبه كابتن سي. اس. جارفيز والذي كان مثله في ذلك مثل سلفه ـ يكتب مقالات متتابعة حول قبائل سيناء وحول تاريخها التوراتي وينشرها في الصحيفة الناطقة باسم «صندوق استكشاف فلسطين». لقد كان يجمع بين هؤلاء الثلاثة الذين توالوا على منصب الحاكم العسكري لسيناء أنهم كانوا جميعاً ضباطاً عاملين يتسمون بكفاءات عالية، ولعبوا بعد ذلك دوراً هاماً في المغامرة البريطانية في المنطقة العربية والتي بدأت تتكشف منذ مطلع ١٩١٤.

* * *

وبدا كأن لورانس و وولي كانا لا يملكان فسحة كبيرة من الوقت. بل كان أمامهم ستة أسابيع فقط منذ بدء رحلتهما وفقاً لما ذكراه. وقد وصلا الى دمشق يوم ١ كانـون الثـاني (يناير) ١٩١٤ وسارا بمحاذاة الخط الحديدي حتى زيزة حيث كانت غارترود بل قد احتجزت هناك من قبل الموظفين الاتراك عند محاولتها السفر الى حائل. وبعد وصول لورانس و وولي غيرت غيرترود بل خط سيرها المقرر عبر الجوف وسلكت بدلا منه طريقاً آخر باتجاه الجنوب، ثم شرقاً في خط مستقيم الى وجهتها النهائية. وبهذه الطريقة أتيح لها أن تمر في أراض لم توضع لها سوى خرائط أولية على يد الايـطالي جوارمـاني وعلى يد غاروثرز وموزيل بالنسبة للمنطقة

الواقعة بين جبل شمر وسكة حديد الحجاز.

وفي الوقت نفسه توجه لورانس و وولي الى بير سبع حيث اصطحبا نيوكومب يوم ١٠ كانون الثاني (يناير) ١٩١٤. وفي غزة التقوا بدكتور سترلينغ الذي كان طبيباً ورجل دين. وكان في استقبالهم في بير سبع القائمقام عرفة بك، «الذي لم يكن متأثراً بسوء الظن الشائع بواضعي الخرائط». وقد تحدث لورانس و وولي عن أخبار نيوكومب أكثر من حديثهما عن انفسهما وقالا انه: «كان يخرج كل صباح ومعه أدلائه فلا يعودون إلا مع انتهاء النهار حيث يواصل نيوكومب العمل في خيمته حتى منتصف الليل متابعاً مكان كل فرد من عماله وعملائه وعالماً بدقائق ما يحدث، ومتلذذا بأسلوب حياته الاسبرطي الخشن والبسيط».

وقد افترق لورانس و وولي عن معلمهما واتجها الى صحراء التيه، ثم توجها بعد ذلك الى هضبة سيناء الشرقية.

وقد بقيت قادش القديمة في موقع عين قديس الحالي بسيناء، غير انها ما كانت تكفي لسدّ حاجة الآلاف الستة من اليهود الذين كانوا على وشك القاء نظرتهم الأولى على أرض الميعاد. بل كانت هناك عين أخرى على بعد خمسة أميال باتجاه الشمال الغربي هي عين القديرات التي خرج منها جواسيس النبي موسى بعد «معجزة المياه». وعند هذه العين نفسها افترق جاسوس العصر الحديث أيضاً حيث اتجه «وولي» شمالاً مخترقاً صحراء النقب تجاه أرض الفلسطينيين، حيث وصل مرة أخرى الى غزة يوم ٢٢ شباط (فبراير) ١٩١٤.

أما تحركات لورانس فليست معروفة بنفس الدرجة، فهو لم يسجل سوى تفاصيل بسيطة عن تحركاته نحو العقبة ثم عبر وادي عربة ومعان. ولا بد انه أسرع لعدة أيام لمحاولة الوصول الى طريق الحج القديم الذي أصبح سكة حديد الحجاز، وعلى طول وادي عربة. وكانت غيرترود بل قد غادرت أخيراً قلعة زيزة ومعها ادلائها وخادمها، وذلك يوم ١٧ كانون الثاني (يناير) ١٩١٤. وفي الخامس والعشرين من الشهر نفسه كتبت في مذكراتها تقول: «آمل أن نكون غداً في ضيافة الحويطات ولا بد أن خيمهم الكبيرة لم تعد بعيدة الآن». وبعد يومين كانت غيرترود بل بين الحويطات بمنطقة وادي سرحان حيث استضافها محمد شقيق عودة أبو تاية شيخ القبيلة الذي كان في ذلك الوقت خارج مضارب قبيلته يقوم مع

رجاله باحدى غزواتهم. و«عوده» هو الرجل الذي سيلتقي به لورانس فيما بعد، ويجعل منه واحداً من أشهر شيوخ القبائل العرب.

وفي أواخر كانون الثاني (يناير) ١٩١٤ تحركت غيرترود بل مع جماعة من الحويطات باتجاه باير وهي النقطة التي يفترض وفقاً للقائمة التي أعدها هوغارث ـ ان تنحرف منها باتجاه الجوف. ولكنها بدلا من ذلك اتجهت الى الجنوب الشرقي حيث جبل طبيق. ويبدو ان لورانس في نفس الفترة اتجه شرقاً من معان عبر الصحراء الى طبيق حيث التقى بغيرترود بل مرة أخرى. والتقطت له غيرترود بل خلال تلك الفترة صورة فوتوغرافية وهو يرتدي زي الحويطات ويقف وسط مجموعة من نسائهم. ورغم ان لورانس وغيرترود لم يشيرا الى هذا اللقاء في مذكراتهما، إلا أن صورة لورانس هذه كانت إشارة مؤكدة. ثم عاد لورانس الى قرقميش حيث لحق بوولي في شهر آذار (مارس) ١٩١٤. أما غيرترود بل فقد شقت طريقها الى قرب حدود الحجاز ثم اتجهت في خط مستقيم على طريق حائل الوعر الذي تندر رؤية شخص فيه.

وكتبت لدى مغادرتها مشايخ الحويطات: «لقد أصبحنا ـ أنا ومحمد ـ صديقين عزيزين فهو شخص جيد وأنا أثق به». وقد تحولت قصة رحلة غيرترود بل الى حائل واحتجازها في بيت ضيافة آل الرشيد، وجدالها مع ابراهيم ـ شقيق زامل الوصي وعم الأمير ـ احتجاجاً على حرمانها من حريتها وأموالها، وحواراتها مع فاطمة ـ جدة الأمير ذات النفوذ القوي ـ وتركية المهذارة، خلال فترة حبسها التي امتدت أسبوعين. تحول ذلك كله ليصبح جزءاً من اسطورة الجزيرة العربية التي نسجتها مخيلات البريطانيين في ذلك الوقت، والذين كان خيالهم قاصراً عن ادراك حقائق الصحراء وسكانها. كما ان هذه القصة صارت مادة مفضلة لموضوعات الانشاء في المدارس البريطانية حتى الثلاثينيات من هذا القرن، حين جاءت أسطورة جديدة لتشغل العالم وتلهيه.

***

وحدثت تغيرات كبيرة في وزارة الحرب وفي الاستخبارات الهندية والعراقية بعد تعرض الحملة البريطانية في العراق للهزيمة في الكوت

ووصلت الى حالة من اليـأس بعد الفرح الأولي الذي كان يملأ نفوس افرادها. من بين هذه التغيرات ظهور غيرترود بل على مسرح الأحداث. لقد ذهبت من القاهرة الى الهند في كانون الثاني (يناير) ١٩١٦ بأمر من فالنتـين كيرول، صديقهـا الشاب، وكذلك صديق نائب الملك في الهند، عندما كانوا يتجولون في اوروبا سوياً في آخر سنوات حكم الملكة فيكتوريا.

وكان الهدف الرئيسي من ذهابها الى الهند هو اعلام صديقها تشارلز هاردينـغ بخـطط زملائها في القاهرة الذين كانوا مهتمين للغاية بخطط شريـف مكـة، وذلك عن طريـق «المكتب العـربي». وصلت في لحـظة الانسحاب من الدردنيل وحصار قوة تاونسند في الكوت. ولما وصلت الى نيودلهي في شهر شباط (فبراير) ١٩١٦، (وكان في انتظارها كيرول واقفاً على الرصيف وسيارة نائب الملك منتظرة بالخارج) كانت الأمور في مصر ومكة والهند والعراق قد تعقدت وتشابكت مع بعضها.

في الوقت الذي وصلت فيه غيرترود بل الى دلهي، كانت القاهرة قد طلبت من هاردينغ ان يختار ضابط اتصال ليشرف على المكتب العربي الذي تأسس حديثـاً، وهـو وحـدة استخبارات ملحقة بالأركان العامة ومسـؤولة أمـام وزارة الخارجية وتقوم وزارة البحرية بالانفاق عليها. ورفض في بادىء الأمـر، اذ لم يكن يريـد أن يقوم بأي عمل له علاقة بالمكتب العربي. ولكن غيرترود بل قامت بدور كبير في التأثير عليه، وهكذا اختار نائب الملك براونلو فورد للقيام بوظيفة لم يكن أحد في الهند يرغب في القيام بها. وكان الأمر الأكثر جدية من ذلك هو تصميم المكتب العربي على تعيين مسؤول في البصرة.

ولم يكن نائب الملك يريد إحضار أحد من العاملين بالقاهرة. اذن لماذا لا يكـون الشخص هي غيرتـرود بل؟ انـه يثق فيهـا. وهكذا أصبحت المسؤولة عن فرع المكتب العربي في البصرة في شباط (فبراير) ١٩١٦، وغادرت في اول آذار (مارس) لتسلم مهام عملها الجديد. وقبل مغادرتها دلهي بعثت بمذكرة الى كابتن هول في الاميرالية تقول فيها: «لقد قضيت هنا أسبوعين مثمرين للغاية (...) وأمكنني التفاهم مع وزارة الخارجية الهنـدية وقسم الاستخبارات. من المهم جدا ان تكون هناك اتصالات وثيقة بين الهند ومصر لأن البلدين يواجهان نفس المشكلة». ووصلت الى

البصرة في الثالث من آذار (مارس) ومكثت طيلة الليل مع المسؤول السياسي الأول برسي كوكس وزوجته، اللذين طالما ذكرتهما بالمحبة والاعجاب بعد ذلك. ثم قدمت نفسها الى الأركان العامة، حيث رحب بها الكولونيل بيل بيتش، الذي قدم لها غرفة نومه لتستخدمها كمكتب تعمل فيه. كما رحب بها كامبيل تومسون، وهو الرجل الذي كانت قد انتقدت منهجه الآثاري في أول لقاء لهما في قرقميش في عام ١٩١١، والذي أصبح الآن الرجل الثاني في مكتب الأركان العامة للاستخبارات في البصرة.

وفي يوليو (تموز) ١٩٢٦ توفيت غيرترود بل التي كانت قوة مؤيدة للعرش العراقي، وذلك خلال نومها متأثرة بجرعة كبيرة من المهدئات. وكان الكثيرون من الموجودين في بغداد آنذاك يعتقدون أنها انتحرت. لكن لم يعلن التقرير الطبي ظروف الوفاة ولا النتائج التي توصلت اليها لجنة تحقيق عينها المندوب السامي.

وعندما كان اليهود والعرب يقومون بأعمال شغب ويتقاتلون في فلسطين، وعندما كانت أموال دافعي الضرائب البريطانيين، تستخدم من قبل الأمراء العرب في تمويل التمرد في العراق، وأيضاً كانت الطائرات البريطانية تقصف قبائل ابن سعود في محاولة يائسة اخيرة لحماية تراث الهاشميين، أصبحت غيرترود بل ولورانس أقوى مؤيدي قضية القومية العربية. وكان لهما نفوذ هائل على السياسة الخارجية لبلدهما «انتقاماً لذلك تعهدت بأن أجعل الثورة العربية المحرك الرئيسي لنجاحها الذاتي، واداة لحملتنا المصرية، كما تعهدت بقيادتها بعنف في الانتصار الأخير الذي لا بد وأن يدفع القوى العظمى الى الاقرار بتسوية عادلة للمطالب العربية المشروعة». وقد نسي لورانس كما نسيت غيرترود بل (التي عرفت في دمشق بأسم «الست»، وفي بغداد بأسم «الخاتون»، وهي لفظة تركية معناها المرأة الشريفة، كان العرب يلقبون بها نساء الملوك) انطباعات الشباب في أرض مهجورة، حيث كانت «القومية» كلمة خاوية لا معنى لها، وان كانت «الست» أو «الخاتون» لديها استعداد أكبر لتذكر كلماتها التي قالتها مؤخراً جداً وبالتحديد عام ١٩١٧:

«ان الرجال الذين احتفظوا بتقاليد الاستقلال الشخصي والذي لم يحدده سوى عاداتهم الذاتية، هم أناس يجهلون تماماً العالم الذي يقع خارج أهوارهم ومراعيهم كما أنهم لا يبالون بمصالحه ولا يكترثون

بالفرص التي يتيحها، ولن يلتفوا يوماً ما مع الطموحات الأوروبية ولن يرحبوا أو يقبلوا بالاساليب الاوروبية».

الفصل الثالث

المنافس النساوي

٣ آلوا موزيل

لم يكن قد لحق بغيرترود بل الانكليزية الى اكتشاف خط الحجاز الحديدي الجديد ـ الذي أصبح ضرورة استراتيجية وعسكرية للامبراطورية العثمانية لنقل جنودها ومعداتها ـ إلا اوروبي آخر اسمه آلوا موزيل، وهو يهودي المولد من بوهيميا ومن رعايا الامبراطورية النمساوية ـ المجرية. فقد وصل موزيل الى سورية في تموز (يوليو) ١٩٠٠، بعد مغادرة غيرترود بل، قادماً من بيروت حيث كان طالباً في الكلية اليسوعية. ومع مرور الزمن أصبح موزيل من أكفأ الرحالة ـ العلماء ـ الجواسيس الأوروبيين الذين وصلوا الى عمق الجزيرة العربية. وانتحل هذا الرجل، الذي كان يعرف بـ «النمساوي»، اسما عربياً هو الشيخ موسى.

ولد موزيل عام ١٨٦٨، قبل غيرترود بل بأربعة عشر يوماً، في مدينة ماهرن التشيكية، مواطناً في امبراطورية الهابسبورغ. وتلقى تعليمه في الجامعة الكاثوليكية القديمة أولموتز. رسم كاهناً عام ١٨٩١ ونال الدكتوراه في اللاهوت عام ١٨٩٥، وذهب ليتعلم اللغات الشرقية، وعلى رأسها العربية، في باريس وبيروت وكامبردج وبرلين. وبرّز موزيل في اللغة العربية والفقه الاسلامي، ولفتت مناظراته مع شيوخ الدين في سورية ولبنان أنظار المسؤولين في فيينا.

وكان موزيل قد تعرف وهو تلميذ على الهر توماسبرغر المسؤول عن المخابرات العسكرية النمساوية ـ المجرية في معهد الجغرافيا العسكرية في فيينا. ولما عاد من سورية ليلتحق بالجامعة في اولموتز عام ١٩٠٢ ويصبح استاذاً لدراسات «العهد القديم»، ظل موزيل ضمن حدود امبراطورية الهابسبورغ لمدة ست سنوات كاملة دون ان يغادرها الى أي

بلد عربي.

وفي ٢١ شباط (فبراير) ١٩٠٨ غادر موزيل فيينا بعد تسلمه برقية عاجلة من السفارة النمساوية ـ المجرية في القسطنطينية تطلب اليه الحضور للقيام برحلة على طول خط الحجاز الحديدي. وكلف موزيل بوضع خرائط مفصلة للمنطقة الواقعة بين معان والعلاء في إقليم الحجاز، ووصل الى دمشق يوم ٢١ أيار (مايو) متنكراً كعادته كشخص عربي يدعى الشيخ موسى. وكان يصحبه توماسبرغر وجيولوجي من فيينا اسمه ليوبولد كوبر. واستقل الثلاثة القطار الى معان لمقابلة مايزنر، المدير الالماني لسكك الحديد العثمانية.

وفي عام ١٩٠٨ بالذات، كان آلوا موزيل قد منح اذناً من قبل جامعة فيينا، التي أصبح استاذاً فيها للدراسات التوراتية، بالسفر الى فلسطين وسورية والعراق. وبين ١٩٠٨ و ١٩٠٩، أقام موزيل في بلدة دمّر جنوب غرب دمشق مع رئيسه توماسبرغر الذي كان يعرف بالشام باسم تومان. وكانا يستعدان للقاء نوري بن شعلان شيخ قبيلة العْنزة وأمير عرب الرْوله. في ذلك الوقت كان نوري الشعلان سجين الوالي التركي في دمشق.

استطاع موزيل ان يقنع والي دمشق التركي بالافراج عن الأمير نوري الشعلان، شرط ان يبقى نوري في دمّر طوال شهر رمضان. في الوقت نفسه توجه نواف، الابن الأكبر لنوري الشعلان، مع نخبة من رجال عرب الروله، ومعهم مجموعة من أسرع النوق نحو الجوف في الجنوب الشرقي من سورية. وفي ٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٩ تحرك اللاهوتي اليهودي موزيل مع الأمير العربي نوري الشعلان، ووزيره العبد عمرو في ركابه، للحاق بولده نواف في الجوف.

وفي الطريق قال نوري: «لماذا يا موسى لا استطيع ان أسيطر على شمال الجزيرة العربية، بينما يسيطر ابن سعود على جنوبها؟». «ان شاء الله». أجابه موزيل (أو موسى). «ان الله سيشاء». ردّ نوري. وطوال الطريق الطويل بين الوادي والجوف وعلى الأرض البركانية وريح الشمال تلفح المسافرين، وموزيل يرسم ويكتب ما يشاهده.

كان نوري الشعلان، العدو التقليدي لآل الرشيد، صديقاً لعبد العزيز آل سعود ومعترفاً بسيطرته على جنوب الجزيرة العربية، وكان طامحاً للاستيلاء على ملك آل الرشيد في شمال الجزيرة العربية. وكان دعم

النمسا لنوري الشعلان، بعلم امبراطور المانيا، قد بدأ يتضح ويتخذ شكلا ايجابياً.

ولمّا كان موزيل في دمّر عند ابن الشعلان تعرف على طلال زعيم قبيلة بني صخر، الذي كان الأتراك قد منحوه لقب باشا وإعانة مالية سنوية. إلا ان الأتراك أهملوه فترة طويلة. لكن انتهاء العمل ببناء الخط الحديد الحجازي جعل من الممكن ان يوصل الأتراك قواتهم الى المناطق التي كان طلال باشا يقوم بحمايتها وحراستها نيابة عنهم. وأعطى موزيل طلال رسالة لعميل له في القدس ليقوم بتسليمه ٦٠٠٠ خرطوشة لبنادق «مانليشر» النمساوية. وكانت الشحنة الأولى من مجموع عدة شحنات سلاح، أخذت النمسا تزود بها القبائل العربية في الصحراء السورية.

ووصل ركب الأمير نوري الشعلان وصحبه يوم الخميس ٤ شباط (فبراير) ١٩٠٩ الى منطقة صبيح وسط كثبان رمال صحراء النفود الكبرى. وقبل ان يترجل نوري عن فرسه وصل رسول يصيح بأعلى صوته: «لقد احتل نواف الجوف». وعندما ترجل الرسول عن ناقته قال لنوري ان نواف قد وصل الجوف قبل يومين ودخلها مع رجاله من غير مقاومة، وأعلن ابوه (اي نوري) اميراً عليها وعلى كل الواحات التي تقع في ضواحيها.

وقرر نوري أن يبقى في الهوجه، وهي واحة تقع في الشمال الغربي بينما ركب موزيل مع البدوي الرسول الى الجوف للقاء نواف، الذي وجده مقيماً في قصر فيصل الرشيد الطيني. وأخبر نواف موزيل بأن ابن سعود وفيصل الرشيد، الذي هرب الى ابن سعود، قد أرسلا الى والده خبراً في دمشق يطلبان اليه الاستيلاء على الجوف. وعاد موزيل الى نوري بعد ثلاثة أيام ليخبره بما جرى. لكن نوري بقي مخيما في الصحراء عدة أشهر ولم يدخل الجوف تحسباً من ردود فعل قوات عشائر شمّر في حائل. وبينما كان موزيل مقيماً في مخيم نوري الشعلان في الهوجاء، وصل الشيخ عودة ابو تاية شيخ مشايخ الحويطات، ومعه مجموعة من المقاتلين البدو بكامل سلاحهم وبكوفياتهم المرقطة وأثوابهم الزرقاء بلون النيلة. كان منظراً سينمائياً بلا شك وصول عودة أبو تاية، الذي كرسه الغرب فيما بعد كزعيم استعراضي يختلف عن باقي الأمراء أو المشايخ العرب الذين عرفوهم، خاصة ان ابو تاية كان يحمل معه مجموعة من نساء

الحويطات الجميلات اللواتي اشتهرن بالعيون الواسعة التي كانت تلمع من وراء البرقع في كل غزوة من غزواته.

كان عودة أبو تاية عائداً لتوه من غزو لبني هتيم، عندما التقى بفريق هتيّم من بدو شمر يحاولون أن يتصدوا له. وأصيب عودة أبو تاية برصاصة في مرفقه، ولم يكن ذلك بالطبع أول جرح يصاب به عودة في حياته، ولا آخر جرح . وقام موزيل بتضميد جراحه حسب الطرق الجراحية الحديثة مما أثار إعجاب ابو تاية به وأصرّ على ان يصحبه الشيخ موسى حتى تشفى ذراعه نهائياً. وسار النمساوي وراء اعلام عودة ابو تاية باتجاه وادي تيمة حتى شفيت ذراعه.

عاد موزيل الى معسكر نوري الشعلان عبر وادي سرحان ليشاهد اعرابياً يقتل آخر أسد في كل الجزيرة العربية. وأخذ موزيل يصور ويرسم ويجمع نماذج عن الحيوان والنبات في الصحراء ويسجل أغاني وأهازيج نساء وشباب قبائل الحويطات والهتيّم وشمّر والروله، حتى وصل دمشق في أيار (مايو) ١٩٠٩ وارسل تقريره الى السفارة النمساوية في اسطنبول. وذكر في ذلك التقرير ان نوري الشعلان قال له: «انك يا موسى أعز عندي من ابني البكر نواف».

وكان موزيل النمساوي (أو الشيخ موسى) قد وصل دمشق مجدداً في شباط (فبراير) ١٩١٢ وبرفقته الأمير سكستوس البوربون ابن روبرت دوق بارما. كذلك كان معه معلمه القديم توماسبرغر . إضافة الى خادميه الأمينين بدر ومحمد.

وقضى موزيل شهر شباط (فبراير) كله في الشام يستمع الى إشاعات الثورة التي يعدها العرب ضد الاتراك. الى أن غادرها في ١٥ آذار (مارس) ١٩١٢ الى حمص ومنها الى تدمر ومنها الى الرصافة على شاطىء الفرات. ومن الرصافة مشى موزيل ورفاقه عبر الفرات مسافة ٦٠٠ ميل الى عانه والرمادي. ومنها الى النجف فوصلها في ٢٧ نيسان (ابريل)، ومن بعدها الى كربلاء، حيث زاروا الاماكن الشيعية المقدسة. وكان الأمير سكستوس، الفرنسي الجنسية، في خدمة امبراطور النمسا فرانز جوزف، والمخابرات النمساوية، التي كان موزيل عميلها الأول في الشرق. وفي طريق عودة موزيل وبعثته الى سورية عبر الفرات، هاجمته فرقة من قبائل شمر قرب الرقة، ونهبت الصور والخرائط والرسوم التي أخذها في رحلته.

وعرف في ما بعد انها بيعت الى الآستانة، وان موزيل اضطر ان يعيد كتابة ورسم وتصوير ما كان قد سجله من الذاكرة عند عودته الى فيينا.

* * *

كان موزيل قد وصل الى دمشق قادماً من القسطنطينية في منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ فوجد ان صديقه نوري الشعلان ما زال محدد الاقامة بأوامر الوالي التركي منذ تخليه عن الاتراك عام ١٩١٠. ورجا نوري موزيل ان يكلم الوالي لكي يسمح له بالانضمام الى قبائله في الصحراء. وكان أتباع نوري وعبيده محتجزين في الثكنات العسكرية القديمة في قرية دمر، الواقعة خارج المدينة والتي بناها مدحت باشا في السبعينيات من القرن السابق وأصبحت الآن في حالة سيئة. وحصل موزيل على التصريح المطلوب لأمير عرب «الروَله» ثم ترك صديقه العربي لكي يمضي وحده إلى الصحراء، وذهب هو مع خلف إلى دمر لكي يعمل على إطلاق سراح رجاله. وغادروا كلهم دمشق على طريق حمص في بداية كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٤.

وكان موزيل النمساوي قد لاحظ ان رجال القبائل يغادرون المنطقة المحيطة بدمشق والمناطق المحيطة بالمدن السورية الأخرى، والتي كانوا يقيمون فيها على أمل الحصول على رزق طيب. وأصبح رجال القبائل الآن ينطلقون بقطعان الخراف والابل هرباً من جشع الحكومة. وكان حديث «الشيخ موسى» ـ أو موزيل ـ على الطريق حافلاً بالتنبؤات عن الخلافات التي ستثور بين القبائل في المستقبل، وعن المشكلات التي ستواجهها أية جهة تحاول الحصول على ولاء رجال القبائل.

وكان رجال بني وهاب يقولون: «كثيرون منا كانوا يتمنون هزيمة الحكومة التركية، بينما كان آخرون يخشون ان يؤدي ذلك الى ان يحتل الانكليز المناطق المزروعة وان يضعوا عليها حراسة مشددة الى درجة يصبح من المستحيل معها سرقة أي شيء من المستوطنين فيها». ولكن عندما وصل سعود بن ملحم زعيم بني وهاب مع ابنائه لعرض ولائه، الى موزيل، ولكي يريه باعتزاز وساماً منحه اياه الوالي زكي باشا، قال سعود بن ملحم انه مستعد للتضحية بنفسه وبأبنائه وبقبيلته فداء للحكومة

وللسلطان «نصره الله»، في القسطنطينية.

لكن موزيل كان قد أحضر معه تعليمات جديدة من الحكومة تلغي الأوامــر الموجودة لدى زكي باشا. وبدأ منصور خادم موزيل في قراءة الأمر الجديد من الباب العالي، الذي يقول فيه انه يتعين عليهم الانضمام الى قبائل ابن شعلان وإطاعة الأمير الذي تثق الدولة العثمانية في ولائه. وعندما أنهى منصور قراءة هذه التعليمات صاح كثيرون: «اللهم انصر الحكومة والسلطان». بينما ظل عدد أكبر من الحاضرين صامتاً.

وكان سعود بن ملحم رجلا قصير القامة ممتلىء الجسم يبلغ من العمر ٦٥ سنة تقريباً، وكانت هذه أول رحلة يقوم بها الى الصحراء منذ أيام شبابه، وكان يفضل بيته في حمص على خيام الصحراء. وسأله موزيل عما اذا كان سيقف الى جانب الحكومة، أم انه سيهاجم المراكز السكانية من الصحــراء، فرد مراوغــاً: «يجب على نوري الشعلان تقرير ذلك». وســافر النمساويون مع قبيلة ابن ملحم وبني حسين سلطان الطايع. وكــانت القبيلتان ترتبطان مع عنزه في تحالف غير وثيق. وكان «الشيخ موسى» يقول، ان مبادئهم الاخلاقية ليست عاليه. واستمر في حديثه عنهم قائلا: «لم اسمع قط عن أي تعقيدات بين عرب الروله بشأن العادات الاجتماعية المنتشرة بين هؤلاء الافراد، أو اختلاط الشبان بالجواري أو حتى العبيد الشبان ببنات الحسب والنسب. وربما كان هذا الاختلاط سبباً في الصفات الزنجية التي يتسم بها أبناء العائلات الكبيرة لديهم».

وكان النمساوي موزيل يحمل معه تعليمات بمحاولة تحقيق السلام بين نوري الشعــلان وبعض القبائل التي تدفعها الحكومة نفسها الى مهاجمة عرب الروله بعد خيانة نوري الشعلان في آب (اغسطس) ١٩١٠ واعتقــال الاتراك اياه، وبعد ان أدى ذلك الى هجوم قبائل الروله على الحاميات التركية. ويبدو ان موزيل كان يقوم الآن بعدد من مهام تحقيق الســلام لصالح الاتراك. وكان الأتراك قد طلبوا منه التوصل الى هدنة مؤقتة على الاقل بين هذه القبائل الموالية للاتراك والروله، «لانهم كانوا يقدرون ان الحرب ستنتهي خلال ثمانية شهور».

ويقــول «الشيخ موسى»: «إن القبائل كانت ترى في الحكومة مجرد جهاز بيروقراطي يضم مجموعة من المعوقين لا يفيدون العرب بصفة عامة أو البدو بصورة خاصة، بل يضرون بمصالحهم عندما يتمكنون من ذلك

(...) ولو كانت الحكـومة التركية قد ضمنت لهم الحصول على غنيمة كبـيرة من الحـرب لثـاروا في وجه البريطانيين. من ناحية أخرى كانوا سيثـورون ضد الاتراك لو وعدهم البريطانيون بأنهم سيسمحون لهم بنهب البلدان الخاضعة للحكم التركي».

واستمـر الركب في اتجـاه الجـوف وشاهدوا يوم ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) معسكر عبد العزيز ابن سعود بالقرب من خربة الهايم في ظل بركان ام الولا في صحراء البسيطة السوداء، التي مر منها شكسبير قبل عدة أشهر عندما كان رجال عودة ابو تايه يطاردونه. ووصل النمساويون ورفقـاؤهم العـرب وهم يكـادون يتجمـدون من البرد الى خيام نوري الشعلان بعد ظهر ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٤. وبدأت أغراض موزيل تتضح في الحديث الذي دار حول نيران المخيم بينه وبين نوري. ومما قاله نوري لموزيل: «انت تعرف نيتي يا أخي، كما تعرف أنني لا أثق بالحكومة التركية، وان الحكومة لا تثق بي. ولولاك لكنت في دمشق حتى الآن، سجينـاً مكرماً لدى الحكومة حتى الآن (...) انهم كانوا يدعون انهم يحتاجون إليّ في الحرب ضد الانكليز».

وأجـاب موزيل قائلا: « ما هي فائدتي أنا وحدي لك؟ ارسلني الى الصحراء وسوف أحضر لك آلافاً من المحاربين، وسوف نذبح الانكليز (...) لماذا يقتل أبناء العرب كل منهم الآخر لصالح حكومة أجنبية؟»

واشترك نواف ابن الامير نوري في الحديث الذي تطرق بعد ذلك الى ابن الرشيـد. وقال نوري: «ان الحاكم الحالي لم يطلب مني ذهباً. انه يطلب استمراري في الولاء له خلال الحرب، ووعدني بأن يساعدني ضد ابن الرشيد بعد انتهاء الحرب. ولا أعرف ان كان صادقاً أو كاذباً».

فرد نواف قائلا: «انه يكذب يا والدي، وكيف يكون صادقاً اذا كان يعرف ان أنور باشا يعتبر ابن الرشيد أخلص حلفائه ويرسل له الاسلحة والذخـيرة والأمـوال؟ ومـا هو السبب الذي يدفع أنور الى إرسال هذه البنادق الى ابن الرشيد؟ إن هذه الأسلحة تسهّل له الحاق الهزيمة بابن سعود الذي طرد الجنود الأتراك قبل ١٨ شهراً من إقليم الاحساء (...) وكان أنور باشا هو الشخص الذي عين ابن سعود حاكماً لنجد بأكملها وقائداً لها، وكان قد أكد له رضا السلطان عنه ورضاه هو شخصياً عنه. ومع ذلك قدم أنور باشا أسلحة لابن الرشيد لكي يشن الحرب على ابن

سعود. من يثق في أنور باشا بعد هذا كله؟».

ولم يجد نوري الشعلان اوزائره النمساوي الفرصة للحديث، أو الرد اذ استمر الامير الشاب نواف قائلا: «قل لي يا أخي موسى ، ألا تفهم طريقة تفكير الحكومة؟ ان هذه الحكومة ترغب في ان نساعدها ضد الانكلين». ولم يجد موسى فرصة للرد أيضاً، اذ استمر نواف في الحديث قائلا: «ألا يرى أنور المكائد التي يدبرها سعود وزير ابن الرشيد ورشيد باشا ممثله في القسطنطينية؟ لقد تفاوض رشيد باشا مع قنصل فرنسا في دمشق ووعده بمساعدته، وقدّم الوعد نفسه للسفير الفرنسي في القسطنطينية، على أساس ان ترسل فرنسا جنودها الى سورية (...) لقد اعتقل رجالي رسولا يحمل رسالة من رشيد باشا الى حائل، وبذلك حصلت على هذه المعلومات. وكان هناك قبل مدة من الزمن في حائل قنصل انكليزي من الكويت ومعه سيدة. لماذا ذهب الى هناك؟ وقد أتى هذا القنصل القادم من الكويت أيضاً من حائل الى الجوف لمقابلتي. ولم أكن موجوداً في ذلك الوقت، حاول ان يستميل الزنجي عامر بدلا مني لصالح الانكلين، وتوجه بعد ذلك من الجوف الى مصر. ولا شك ان هذا القنصل عقد تحالفاً مع سعود بن سبهان ضد الحكومة. اما الحكومة وأنور فهما لا يثقان الا بابن الرشيد. يا للعار على مثل هذه الحكومة. ان من يصدق انها ستساعدنا بعد الحرب ما هو الا طفل غرير».

وبينما كان موزيل يكتب تقريراً مفصلا عن محادثاته مع نوري الشعلان وابنه نواف زاره عودة ابو تاية زعيم الحويطات وشيخ الصحراء الذي وصفه بأنه «اكثر الرجال الذين قابلتهم في شبه الجزيرة العربية جسارة وقسوة». وكان الأتراك قد منحوا عودة ابو تاية السلطة على قبائل الحويطات عام ١٩٠٠ بعد وفاة عرار بن غازي شيخ الحويطات القديم، وذلك على أمل ان ينقذهم عودة من أعمال النهب والسلب التي كانت تقوم بها القبائل الاخرى في منطقة معان التي كانت تابعة للحويطات. ولكن عودة لم يكن موالياً لأي جهة. وأصبح يأخذ الغنائم من كافة الجهات، برغم انه استمر في حماية الخط الحديدي الحجازي، حتى أصدرت الحكومة أمراً باعتقاله خوفاً من شعبيته. وبعد صدور هذا الأمر تراجع الى داخل الصحراء وأعلن الحرب على تركيا.

بعد ذلك طلبت الحكومة منه الاتفاق معها ومع القبائل التي خانته. ولما

فاتحه موزيل في ذلك قال وهو يقهقه ضاحكاً: «هل تعتقد الحكومة انني لا أفهم غرضها؟».

فرد موزيل: «حسناً يا عودة، ألن تقود رجالك لمساعدة الحكومة ضد مصر؟».

فقال عودة أبو تاية: «ان الحكومة تعدني بتقديم اسلحة وأيضاً بعض الذهب في احدى محطات خط الحجاز الحديدي وأنا أحتاج للاسلحة والذهب، وسوف آخذ هذا الذهب وهذه الأسلحة ولكنني سأحارب مع الحويطات. فاذا هبت الحويطات ضد الانكليز سأحارب الانكليز، واذا هبت ضد الحكومة سأذبح جنود الحكومة».

وبعد ذلك سأل الزعماء العرب الثلاثة موزيل عما اذا كان صحيحاً ان الانكليز لا يقاتلون الا في وسط البحر حيث لا يستطيع راكب الجمل أو الحصان اللحاق بهم.

وفي بداية كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ انطلق موزيل الى جبل شمر، كما كان نوري قد بدأ في الشك في جدوى ما يفعلون. وبينما كان يودع صديقه النمساوي رجاه الا يتوجه الى ابن الرشيد، وقال له: «اذهب يا موسى الى ابن سعود انه اخي وصديقي، ورجل شريف ومخلص، ولكن ابن الرشيد ضعيف، ووزيره خائن».

فرد موسى قائلا: «سأذهب الى ابن سعود، ولكنني سأتوجه اليه خلال ارض ابن الرشيد».

وعندما كان شكسبير في الجوف كتب في مذكراته: «كان رجال القبائل يتحدثون عن الكرم الزائد لشخص يدعى موسى النمساوي، كان يوزع جمالا محملة بالرصاص والسكر والملابس والاغذية المعلبة على شيوخ الروله». وهكذا لم تكن شعبية موزيل لدى قبائل ابن شعلان راجعة الى سحر شخصيته فحسب.

* * *

سلك النمساوي طريقاً غريباً لمقابلة ابن الرشيد، اذ تجنب المرور بنبع الحيانية الذي يزوره معظم المسافرين عادة، واستمر طوال الوقت على الحدود الشمالية لجبل شمر. وكان موزيل على مسافة قريبة للغاية من

الموقع الذي كانت قوات ابن سعود تمر من خلاله الى قامة من زيلفي، والذي كان جيش شمر التابع لابن الرشيد يمر من خلاله ايضا لمقابلة جيش ابن سعود عبر سهل الطرفية. وبينما كانت المعركة دائرة في الجرب كان موزيل في الجبيل على مسافة عدة أميال من ساحة تلك المعركة. وبعد يومين من انتهاء المعركة كان مُعسكراً مع ابن الرشيد في وادي الرمة الذي اختبأ فيه جنود مشاة ابن سعود من فرسان العدو بعد ان تركوا شكسبير لمصيره. وهكذا كان توقيت رحلة موزيل مناسباً للغاية وكان الشخص الوحيد على الاطلاق الذي سمع تفاصيل موت شكسبير من جانب المعسكر الآخر.

ويصف موزيل تلك التفاصيل قائلا: «منذ بداية كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٤ كان الوزير سعود يحاصر عدة مستوطنات على حدود حائل كانت قد استسلمت لفيصل بن سبهان الرشيد وسيده ابن سعود، وتم تدمير معظم هذه المراكز السكانية وقطعت نخيلها وردمت آبارها. وفي ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ غادر سعود معسكره في أم جريب لمهاجمة ابن سعود في الجرب. وتم صد الهجوم الأول وقاد فيصل مجموعة من رجال ابن سعود لمطاردة فصيلة من رجال ابن الرشيد قادمين من منطقة لبدة في حائل. ولكن الرجال الآخرين في قوات ابن الرشيد قاموا بهجوم آخر وأجبروا الجزء المتبقي من جيش ابن سعود على الاستسلام. وغنمت هذه القوات مدفع ميدان كان شكسبير يقف الى جواره. وبعد ان تخلى رجال ابن سعود عن الانكليزي اطلق عليه العبد ابراهيم النودلي النيران ثم قتله بسيفه. ومع ذلك لم يتمكن الوزير سعود من تحقيق انتصار كامل واضطر للانسحاب خلال الليل من مواقع العدو. وتحول انسحابه المنظم الى عملية فرار جامحة عندما جلب الرسل أنباء عن عمليات السلب والنهب التي تدور في مخيمه الواقع في أم جريب».

ويبدو ان قبائل مطير وعجمان قامت بنهب المخيمين بعد المعركة. ويبدو ايضا ان رجال ابن سعود ظلوا في ميدان المعركة حتى حلول الليل، وان الأمر الذي منع استمرار المعركة في اليوم التالي هو انسحاب ابن الرشيد. ويقول شهود العيان الذين تم استجوابهم في الكويت ان جثة شكسبير ظلت ملقاة في الميدان لعدة ايام بعد وفاته.

* * *

كان موزيل مريضاً في تلك المرحلة من رحلته، وربما كان مرضه ناتجاً عن مياه بئر كانت قد سببت في إصابة شكسبير بالمغص من قبل. ولكن درجة الحرارة المرتفعة والمغص لم يمنعا موزيل من الدخول في مناقشة طويلة مع ابن الرشيد الشاب ووزيره سعود الذي كان احمق والذي قتل عمه زامل. وكان موزيل يحمل تعليمات من أنور نفسه باقناع ابن الرشيد بتحقيق السلام مع ابن سعود وابن شعلان، وأيضاً باقناع الأمراء الثلاثة بان اطاعة الحكومة تمثل أفضل الحلول المتاحة أمامهم. ولكن الوزير سعود لم يكن متعاوناً، واضطر موزيل في النهاية الى القيام برحلة طولها ٤٥٠ ميلا الى محطة العلا على خط الحجاز الحديدي من أجل ارسال برقية الى الباب العالي. وبعث ايضا برسالة شخصية الى انور ولكنه لم يتلق اي اجابة. وهكذا عاد مرة اخرى الى القسيم، ولكن ابن الرشيد كان قد رحل عنها، وكانت تعليماته تنص على الاتصال بابن سعود، ولكنه قرر عدم التوجه لمقابلته وارسال خطاب له. وبعد ذلك توجه موزيل الى النجف وبغداد وحل ضيفاً على دي تاهي القنصل النمساوي هناك قبل ان يواصل رحلته الى دمشق.

ووصل موزيل الى دمشق يوم ٥ حزيران (يونيو) ١٩١٥. وكان قد قطع مسافة ثلاثة آلاف ميل منذ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤. وكان المرض يصيبه بحالة من الاعياء الكامل خلال مراحل كثيرة من رحلته، ولكنه لم يتوقف ابدا عن تنفيذ مهمته الدقيقة بين أشخاص لم يكن يشعر نحوهم باعجاب كبير في بعض الاحيان. وليس هناك الكثير من الرحلات المشابهة في تاريخ السفر في الصحراء. وكان موزيل خادماً قديراً لبلاده النمسا، وكان يمثل مع شكسبير شخصيتين جديرتين بالاعجاب تتنافسان في وسط شبه الجزيرة العربية.

* * *

كانت خطط الثورة العربية التي بدأت الاشاعات تنتشر حولها في دمشق عام ١٩١٠، قد وصلت الى مرحلة متقدمة، في الوقت الذي كان فيه التسلل الالماني الى المنطقة يزداد يوماً بعد يوم. في هذه الاثناء علمت لندن ان الجمعية الجغرافية الملكية في الدانمرك تعد بعثة الى العالم العربي.

فما كان من وزير الخارجية البريطانية السير ادوارد غراي إلّا أن طلب من سفيره في كوبنهاغن الاحتجاج على إرسال البعثة مهدداً بأن بريطانيا ستمنع مرورها في الاراضي التي تسيطر عليها. وبعد اخذ ورد طويلين قررت الجمعية الجغرافية الملكية الدانمركية في كوبنهاغن الغاء مشروعها.

إلا ان حكومة الدانمرك كانت مصممة على دخول اللعبة. فما كان منها إلا ان أرسلت باركلي رونكياير من دون غطاء رسمي ولكن بتمويل منها في رحلته التي منعتها بريطانيا. وغادر رونكياير الدانمركي في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١١، مسافراً عبر البلاد التي كانت تحت السيطرة التركية حتى وصل بغداد في أوائل كانون الأول (ديسمبر). وكان القنصل البريطاني في البصرة الذي وصلته أخبار الموفد الدانمركي، يتوقع ان يأتي رونكياير رأساً الى البصرة ومنها الى الكويت ومن ثم الى نجد، متبعاً الطريق نفسها التي سار عليها ليتشمان.

لكن الدانمركي مكث في بغداد شهراً وقد استقبله الوالي التركي بحماس وتكريم وكذلك القنصل الالماني. ومرت اسابيع قبل ان يستطيع لوريمر، المعتمد البريطاني في بغداد، ان يبعث بتقرير يذكر فيه ان الدانمركي قد أخذ طريقه الى البصرة بواسطة مركب عبر دجلة، برفقة دليل عراقي مسيحي اختاره في بغداد.

وفي البصرة استقبل الوالي حسن رضا بك رونكياير بالترحاب وكذلك القنصل الالماني والقنصل الروسي وحتى المستر «فان ايس» المبشر الامريكي، وأقام في «الفندق الدولي» هناك، حيث اجتمع عدة مرات بالوالي التركي وحدهما من دون ترجمان لقدرة الرجلين على التحدث بالالمانية. ومن البصرة سافر رونكياير الى الكويت براً التي وصلها في آخر كانون الثاني (يناير) ١٩١٢. ونزل الدانمركي، الذي أعلن عند وصوله أنه في طريقه إلى الهفوف في ضيافة الشيخ مبارك. ولاحظ شكسبير المعتمد البريطاني في الكويت، ان رونكياير يجيد الانكليزية والالمانية ولكنه لا يتكلم العربية. كذلك لاحظ انه ليس مهيئا لمهمته ولا يملك المعدات لعبور الصحراء.

في هذه الأثناء كانت الخارجية البريطانية في سيملا التابعة لحكومة الهند البريطانية قد طلبت من شكسبير ان يلمّح للشيخ مبارك بأنها لا

ترغب في منح الدانمركي أية تسهيلات. لكن رونكياير لم يغادر الكويت من دون أن يحمل رسالة توصية من الشيخ مبارك الى عبد العزيز آل سعود. واستطاع الدانمركي ان يعبر الصحراء ويصل الى الرياض في ٢٨ آذار (مارس) ١٩١٢. لكن ابن سعود لم يكن هناك. فاستقبله والده الامام عبد الرحمن آل سعود بالترحاب.

وعلق رونكياير في مفكرته على الامام عبد الرحمن بأنه: «رجل وسيم وشيخ وقور يوحي بالمغامرة والكرم، له عينا صقر ولحية بيضاء». وقضى الدانمركي ووالد عبد العزيز الوقت بالحديث المستمر عن الكويت والصراع الدائر حولها في حينه بين الانكليز والألمان. وليس من المعروف اذا كان عبد العزيز قد قابل الدانمركي ام لا. الا ان الدانمركي عاد الى بلاده في حزيران (يونيو) من تلك السنة. ومات بعد رحلته بسنتين في كوبنهاغن عام ١٩١٥، وله من العمر سبع وعشرون سنة. وطويت مرحلة دخول الدانمرك اللعبة السياسية - الاستكشافية التي كانت دائرة في الشرق العربي تلك الفترة. ومر زمن طويل قبل ان تستعيد الدانمرك اهتمامها مجدداً بتلك البلاد.

الفصل الرابع

السياسي القتيل

٤ الكابتن وليم شكسبير

في العام ١٩٠٦ دخل مسرح اللعبة السياسية في المنطقة وجه جديد، قيض له ان يلعب دوراً أساسياً فيما بعد، وهو دور لو استمر لتغيرت كل موازين القوى لصالح بريطانيا. فقد عينت وزارة الخارجية البريطانية «الكابتن وليم شكسبير» خلفاً لنوكس معتمداً سياسياً في الكويت. وكان شكسبير نائباً لكوكس المقيم السياسي في بوشهر منذ عام ١٩٠٤. وقد سبق لشكسبير ـ حامل أحد أهم وأشهر الأسماء الانكليزية التاريخية ـ أن عمل لثماني سنوات خلت في حكومة الهند البريطانية. وخلال عمل شكسبير في المقيمية السياسية البريطانية في بوشهر وقنصلا عاماً لبريطانيا في بندر عباس حدث ان اصطدم عدة مرات مع الروس والفرس اثناء عمله، مما جعل مركزه مصدر حساسية خاصة لكل منهما.

أما أسباب خلاف شكسبير مع الروس والفرس، فتعود الى ان الروس ارادوا بناء قنصلية ومركز تجاري لهم في بندر عباس، فكلفوا عدداً من المقاولين الفرس بالقيام بهذا العمل من دون اذن المقيم البريطاني في بوشهر أو حكومة طهران. ولما علم شكسبير بذلك جاء بالبحّارة الانكليز وهدم المبنى على مرأى من المقاولين الفرس والقنصل الروسي أوفزينكو. فما كان من أوفزينكو إلا ان ضرب شكسبير. وتصارع الانكليزي والروسي بالايدي الى ان فض العمال الفرس الشجار بينهما.

ولما وصل الكابتن شكسبير الى الكويت كان كرهه للفرس والروس قد سيطر عليه تماما، ولكنه كان معتمداً بريطانياً مثالياً بالنسبة لتصرفه وانضباطه. وبقدر كرهه للفرس كان تقديره للعرب كبيراً. وقد ركز طموحه على التجوال في انحاء الجزيرة العربية واكتشاف مجاهلها وصولا الى لقاء عبد العزيز آل سعود، النجم الساطع في دنيا الجزيرة العربية في ذلك

الوقت. وما ان استقر في الكويت حتى بدأ رحلاته داخل الجزيرة العربية، التي جعلته واحداً من أهم الرحالة وأكثرهم احترافاً واكتشافاً، تاركاً لنفسه سمعة عطرة بين القبائل العربية كند وصديق لهم. وحصل شكسبير على ناقة سماها «دهبية» وعدد من الكلاب السلوقية وصقر مدرَّب سماه «سلوى»، رافقته مع مجموعة من البدو والعرب من الكويت في رحلاته العديدة الى داخل الجزيرة.

ومن الكويت الى صحراء الدهناء وما فيها من كثبان ورمال، الى صحراء النفود في الشمال، حول تلال طويق، حتى رمال الربع الخالي في الجنوب. ومن هناك بدأ في اكتشاف مناطق الدبدبة والصحان والبحر وسواحل الاحساء. ومرت سنة كاملة قبل ان يلتقي شكسبير بعبد العزيز آل سعود. إلا ان شكسبير كان شبيه ليتشمان ـ الرحالة الذي سبقه الى الجزيرة العربية ـ بقوته الجسدية وتحمله للمشاق والصعاب. فقد كان يتحدر من اسرة عريقة، حارب ابوه السير أرثر شكسبير في افغانستان وجده السير ريتشموند شكسبير في الهند. ولذلك كانت خدمة الامبراطورية البريطانية جزءاً من التراث العائلي، الى جانب أن تربيته المدرسية والعسكرية كانتا تؤهلانه للقيام برحلات شاقة كالتي قام بها الى قلب الجزيرة العربية محاولا اكتشاف تضاريسها ولقاء زعيمها المقبل.

عاد شكسبير من رحلته الأولى في الجزيرة العربية الى الكويت، وكانت أخبار خلافات أبناء الرشيد ومذابحهم في حائل وضواحيها قد سبقته. كذلك اخبار آل سعود في نجد. وكان «القنصل» ـ كما كان أهالي الكويت يسمونه ـ أول أجنبي يطلع على هذه الخلافات بدقائقها وتفاصيلها. ولما وصل شكسبير الى الكويت كان ابن سعود واخوته قد سبقوه الى هناك. وفي ليلة وصوله التقى بأمراء آل سعود والشيخ مبارك على مائدة عشاء شيخ الكويت. وكان ذلك في ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٠٨. وفي عشاء الشيخ مبارك استمع «القنصل» من عبد العزيز آل سعود الى تفاصيل وتاريخ خلافات ومعارك الأسر والقبائل العربية في الجزيرة طوال السنوات العشر الأخيرة، وتحديداً منذ مقتل محمد بن الرشيد عام ١٨٩٧. وكان الشيخ مبارك وشكسبير قد أصبحا صديقين رُفعت الرسميات بينهما، في الوقت الذي شعر فيه كل من شكسبير وابن سعود خلال لقائهما الأول ان التفاهم بينهما ممكن. إلا ان كلا من سعد ومحمد، اخوي عبد العزيز،

ظلا شاكين في نوايا «القنصل». ولا تذكر الوثائق الرسمية ولا مذكرات شكسبير تفاصيل كثيرة عن اللقاء الأول بين الانكليزي وعبد العزيز. لكن مما لا شك فيه ان عبد العزيز كان يريد أن يعرف من شكسبير نوايا بريطانيا في الجزيرة العربية.

على أن شكسبير لم ينس ان يكتب في مذكراته عن عبد العزيز الآتي:

«عبد العزيز في الحادية والثلاثين من عمره، صبوح الوجه، أنيق الملامح واللباس، طويل القامة أكثر من طول العربي العادي، متحفظ لكنه دمث الأخلاق ومجامل. ولم يبحث عبد العزيز السياسة معي على العشاء اكثر من انه قال انه يحمد الله ان الاتراك بعيدون عن عاصمته (الرياض) إذ انهم في الاحساء، وان الانكليز اصدقاء واخوان الشيخ مبارك، هم اصدقاؤه واخوانه ايضا».

ومنذ تلك الليلة حمل الكابتن شكسبير لواء عبد العزيز آل سعود. وفي ٤ آذار (مارس) ١٩٠٨، غادر عبد العزيز آل سعود واخوانه الكويت عائدين الى الرياض.

الا ان أهم ما استطاع ضباط المخابرات الانكليز الحصول عليه من معلومات وهم في الشام بين عامي ١٩١٠ ـ ١٩١١، هي بداية الهمس حول التحرك في الصحراء لثورة عربية ضد الاتراك. وكان جيرارد ليتشمان قد ترك معركة حوران وهي في بدايتها وذهب الى بغداد ليقدم تقريره الى لوريمر المعتمد البريطاني هناك، ومنها سافر الى الآستانة. ولكنه قبل ان يترك حوران استطاع أن يقابل في دمشق عدداً من الضباط العرب من جمعية «العهد» وهي الجناح العسكري للجمعيات السرية العربية التي كانت منتشرة في سورية والعراق. كذلك تم اجتماع بين ضباط جمعية «العهد» العربية وبين نيوكومب ومورفي وبراي، الى جانب عدد آخر من المسؤولين المدنيين في التنظيمات السرية العربية.

واتضح من اللقاءات العربية ـ البريطانية ان خطط العرب للثورة مؤجلة بعض الوقت، وأن أسماء زعمائها ما زالت سرية. الا انه من الواضح أن هؤلاء الثوريين العرب كانوا يتطلعون الى بريطانيا لدعم ثورتهم للتخلص من النير العثماني، وانهم وعدوا بأنهم ما ان يتلقون العون العسكري وسواه من بريطانيا حتى يزودونها بأسماء زعمائهم وخطط ثورتهم. وعندما وصلت تقارير ضباط المخابرات البريطانية

المجتمعين في دمشق عن لقاءاتهم السرية مع الثوار العرب الى كل من لندن وسيملا في نهاية ١٩١١، كان قد تكوَّن لدى الانكليز تفصيلان أساسيان:

● الأول: ان الضباط العرب قد قرروا بالاجماع ان يكون عبد العزيز آل سعود زعيماً للثورة، وانهم سيطلبون اليه قيادتها.

● الثاني: ان انطلاقة الثورة ستكون من البصرة في العراق.

وأشار تقرير لوزارة الخارجية البريطانية في لندن مؤرخ في ٢٩ أيار (مايو) ١٩١١ الى التالي:

علاقات نجد ـ رسالة من بوشهر وتقرير مرسل من المعتمد البريطاني في الكويت عن حديث جرى مع أمير نجد الوهابي حول علاقاته مع حكومة صاحب الجلالة وتركيا:

«في رأي الكابتن شكسبير، ان الكره العربي للأتراك يزداد يومياً في طول الجزيرة العربية وعرضها وان من الممكن لهذا الكره أن يوحد قبائلها في ثورة كبيرة مشتركة».

في هذه الاثناء كان شكسبير قد وصل الى نجد للقاء ابن سعود. ويقول شكسبير في تقريره المؤرخ في ٨ نيسان (ابريل) ١٩١١، ان ابن سعود قد أظهر له مرارته من استمرار احتلال الاتراك للاحساء، مؤكداً انه ليس وحده الذي يكره الاتراك. وان ابن سعود قد اعترف امام شكسبير بمخططات الثورة ضد الحكم التركي التي سبق ان سمعها ضباط المخابرات البريطانية في دمشق، وان عدداً من أعيان سورية والعراق والضباط العرب في الجيش العثماني يعدون لهذه الثورة. واتضح لشكسبير من حديثه مع ابن سعود أن جميع قادة الجزيرة العربية وزعماءها يتراسلون مع بعضهم، وان معظم هذه المراسلات تدور حول تنسيق هجوم موحد على القوات التركية واخراجها من البلاد، بقيادة عبد العزيز آل سعود. وذُكرت، في حضور شكسبير، أسماء الامام يحيى امام اليمن، والسيد محمد الادريسي أمير عسير، ونوري الشعلان أمير عرب الروله وغيرهم من «القادة العرب المسؤولين». حتى ان ابن الرشيد فاتح ابن سعود بالموضوع، الا ان ابن سعود عاد الى التذمر من وجود الاتراك في الأحساء.

ويقول شكسبير إن مخاوف ابن سعود كانت تدور حول المعاهدة التي

وقعها صديقه الحميم الشيخ مبارك، شيخ الكويت، وهي معاهدة «بندر ـ الشويخ» مع بريطانيا عام ١٩٠٧ التي تحالفت بموجبها بريطانيا مع الكويت. وانه على الرغم من هذه المعاهدة يخشى صداقة الشيخ مبارك للسيد طالب النقيب، وهو من أعيان البصرة ومن حلفاء تركيا. وكان السيد طالب النقيب قد عيّن حاكما للاحساء عام ١٩٠٢، الى ان اقاله الاتراك لحكمه التعسفي. كذلك كان طالب النقيب هو الذي عرَّف وجمع الشيخ خزعل، شيخ المحمرة، بالشيخ مبارك. وكان تعاون الثلاثة عام ١٨٧١ لغزو الاحساء واحتلالها بالتعاون مع الاتراك، سبباً في الوجود التركي فيها اليوم. وظل طالب النقيب احدى الشخصيات العربية البارزة التي لعبت دوراً رئيسيا في الصراع بين الاتراك وبريطانيا. وكان رجلاً ثريا ومهاباً جداً وذا باع طويل. وكان ابن سعود يخشى نفوذه. لكن بذور الثورة كانت قد بدأت تلح بقدر ما بدأ عبد العزيز آل سعود يستقطب اهتمام العرب.

* * *

في نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٢ حذر المقيم السياسي البريطاني من ان قلاقل جديدة بدأت تختمر في وسط الجزيرة العربية، في شكل نزاع بين زامل السبهان الوصي على أمير حائل وسعود بن صالح كبير الوزراء. وفي اوائل كانون الأول (ديسمبر)، غادر الشيخ مبارك الكويت بشكل مفاجىء ونزل في قلعته بواحة الجهرة. وفي الثاني والعشرين من الشهر نفسه توجه على متن يخته الى المحمرة للتشاور مع الشيخ خزعل، شيخ عربستان «المعروف بعقليته التآمرية».

وفي بداية ١٩١٣، أعلنت اللجنتان الوطنيتان في كل من بيروت ودمشق ابن سعود «زعيما تلقائيا للشعوب العربية»، وبدأتا التخطيط للانتفاضة التي طال انتظارها والتي سيسبقها تجمع سري في الكويت في اوائل ١٩١٤. وفي ٤ كانون الثاني (يناير) ١٩١٣، نشرت صحيفة «التايمز» اللندنية العنوان التالي: «مخاوف من وقوع اضطرابات في القسطنطينية ـ تحرك لاقامة امبراطورية عربية».

وخلال فترة الثورة المضادة في تركيا عرفت الخطط التي كانت تعد لها

جمعيـة «العهد» وكذلك خطط اللجان الوطنية الأخرى. وقالت صحيفة «التـايمـن» في عنوانها الرئيسي بالعدد الصادر يوم ٢٨ شباط (فبراير) ١٩١٣: «مؤامرة في تركيا». وتحسباً من خطط «العهد»، هدد السيد طالب النقيب بتفجـير الثورة في منطقة رأس الخليج. وقد اندلع العنف فعلا ووقعت حوادث قتـل في البصرة الى درجـة ان القنصل البريطاني كرو استدعى سفينة حربية لمواجهة خطط السيد طالب ونجله.

أثـارت كل هذه التـطورات قلق كل من شكسبير وابن سعود. وكان الأخير قد وضع لنفسه خططاً خاصة به في ضوء الأحداث الجارية في القسـطنطينية. لكن الأمر الذي طغى على كل شيء هو ان حقي باشا، الصدر الأعظم السابق، أوفد يوم ١٠ شباط (فبراير) ١٩١٣ الى برلين ولندن، من قبل الشخصيات المتشددة في تركيا لاستكمال صيغة المعاهدة الانكليزية ـ التركية، وهي المعاهدة التي تعترف بان ابن سعود من رعايا الامبراطورية العثمانية وانه أصبح متصرف الحكومة في نجد.

ولم يكن يدفـع شكسبير للقيام بزيارة مفاجئة لصديقه الأمير عبد العـزيـز في ذلك الوقت سوى أكثر الأمور الحاحا. ومع ذلك فقد غادر شكسبـير المعتمدية البريطانية يوم ١٣ آذار (مارس) ١٩١٣ على متن السفينـة «لويس بلي» حيث كان يوجد مورفي الذي حل محل كروفورد كرئيس للاستخبـارات في الخليـج. وقد سلك طريقا مألوفة ووصل الى مجمع في منطقة السدير في منتصف الشهر عبر منطقة رعي للجمال تابعة لابن سعود في الدهناء. وقد لقي حفاوة بالغة هناك بدعوة من عبد الله بن عسكر وهو رجل من المطلعين على مجريات الاحداث، وكان يقوم بزيارات متكررة للكويت. واطلع ابن عسكر ضيفه ـ خلال جلسة تدخين ـ على ما استجد من تطورات في نجد. وقد ابلغه «الجندي القديم» ابن عسكر بأن ابن سعود يقيم حالياً في مخيمه بمنطقة حفص على بعد ستين ميلا نحو الجنوب عبر منطقة من اكثر مناطق الاقليم وعورة.

وغـادر شكسبـير ورفـاقه المخيم في السدير يوم ٢٧ آذار (مارس) ١٩١٣. وشقوا طريقهم بصعوبة وسط التلال والممرات الوعرة في رحلة اسغرقت ثلاثة ايام وصلوا في نهايتها الى مخيم الامير ابن سعود يوم ٣٠ آذار (مـارس). ثم رحلوا بعد ذلك بخمسة أيام في ٤ نيسان (ابريل). وخـلال فتـرة بقائهم هناك استغرق شكسبير والأمير في أحاديث كانت

تستمر ساعات طويلة. وغالباً ما كان يحضر هذه الجلسات أشقاء ابن سعود وابن عمه ابن جلوي، الذي كان بمثابة الرجل القوي بين مستشاريه السياسيين. ولم تسجل كلمة واحدة مما جرى خلال هذه الأحاديث سواء في الملفات السياسية للحكومة البريطانية أو في الادارة الهندية ولا حتى في الرسائل او المذكرات الشخصية.

وكانت رحلة العودة الى الكويت بطيئة نسبياً حيث استغرقت ستة عشر يوماً. وفي سياق هذه الرحلة سجل شكسبير مذكرات يومية. وان كانت تختلف تماما عن الاسلوب الذي اعتاده في مذكراته الاخرى، ذلك انه كان رحالة دؤوباً ودقيقاً، حريصاً على تدوين كل التفصيلات بخط منسق في دفاتره قبل خلوده للنوم كل ليلة. لكنه في رحلة حفص كان يكتب مذكراته بخط غير مقروء كما لو كان يكتب بتبرم ودون أي اكتراث:

وأخيراً وصل شكسبير الى الكويت يوم ٢٠ نيسان (ابريل) ١٩١٣. وبعد أيام قليلة من عودته الى الكويت زحف جيش ابن سعود نحو الجنوب الشرقي من الرياض الى الخليج. وفي الأسبوع الثاني من شهر أيار (مايو) سيطر الجيش على بلدة القطيف الرئيسية. وقد أرسلت تعزيزات تركية من البصرة على متن السفينة البريطانية «جون او سكوت» لكن مع نهاية شهر ايار (مايو) سيطر السعوديون على ساحل الأحساء بأسره وهو يعتبر منطقة حيوية، وكان قد ظل خاضعا للاحتلال العثماني مدة اثنين وأربعين عاما. وعين عبد الله بن جلوي (وهو والي ابن سعود في امارة الرياض قبل ذلك بعشر سنوات) اول حاكم للمنطقة في ظل النظام الجديد. وقد حكم هناك بيد من حديد. ولم تكن الحكومة البريطانية راضية بذلك. فقد وافقت على مضض على وجود السلطة التركية في منطقة الاحساء بمقتضى أحد بنود الاتفاقية المبرمة.

وقد أبلغ كوكس المقيم البريطاني في بوشهر الحكومة بتأكيدات من شكسبير بأنه لم يناقش سوى أمور شخصية، ولم تطرح أية قضية رسمية خلال المناقشات. وكان التأنيب الرسمي قاسياً، فقد أمره المعتمد السياسي بعدم الاجتماع مع حكام الجزيرة العربية في المستقبل تحت أي ظرف من الظروف، دون موافقة مسبقة من حكومة صاحب الجلالة.

وعندما كان شكسبير يقوم بمهمته السرية، قام وفد نفطي يتمتع بسلطات واسعة بزيارة للكويت قادماً من الهند. ووجد الوفد ان الظروف

أصبحت مواتية في ضوء الاطلاع على احتياطيات النفط في منطقة برقان. لكن شكسبير كان يفكر في أمور أخرى أكثر الحاحاً.

وأشارت وزارة الخارجية البريطانية الى أحداث شهر أيار (مايو) ١٩١٣ بقولها: «لقد أمضى شكسبير أربعة أيام مع ابن سعود في نيسان (ابريل)» وأضاف وكيل الوزارة الوين باركر بخطه على الهامش يقول: «للأسف». كما بدت عبارة «كلام فارغ» أمام ملخص لملاحظات شكسبير تضمنته الوثيقة نفسها.

وعلى الرغم من ذلك قررت الحكومة الهندية ارسال شكسبير وكوكس لمقابلة كل من الشيخ مبارك وابن سعود في شهر تموز (يوليو) ١٩١٣، حين أصبح توقيع المعاهدة وشيكاً. وأصرّ غراي على ضرورة تأجيل أي اجتماع مع ابن سعود لما بعد استكمال الاتفاقية «التي لن تستغرق وقتا طويلاً». وبانتهاء الصيف كان ابن سعود ما يزال يطالب بطرد الحامية التركية من قطر. وفي تشرين الأول (اكتوبر) لم يكن وزير الخارجية البريطاني قد بدأ أي تحرك. فلم يكن يرى من الضروري بشكل ملح ان تنسحب قوات من أراضي تخضع لسيطرتها منذ ١٨٧٢. وكانت المذكرة التي تحتوي على ملاحظات غراي حول مطالب ابن سعود مسبوقة بمذكرة تقول ان «على شكسبير مستقبلا ان يلتزم في نشاطاته بالحدود التي وضعت للكويت بمقتضى المعاهدة التركية ـ البريطانية». ولكن اذا بدا على وزارة الخارجية ظاهرياً الحرص على ضرورة تنفيذ المعاهدة مع تركيا نصاً وروحاً، فان أسلوبها في ذلك يبقى خاضعاً للتساؤل.

وفي تموز (يوليو)١٩١٣ عقد اجتماع سري ضم الشيخ مبارك والشيخ خزعل ووفد بريطاني على ظهر السفينة الحربية «سفنكس». وقد أحيط شيخ الكويت بنصوص المعاهدة ووجه اليه تحذير بضرورة إبعاد جميع الأجانب بما فيهم الاتراك. وبعد أيام قليلة من هذا الاجتماع ومن توقيع المعاهدة، اقترحت وزارة الخارجية مفاتحة الشيخ مبارك في منح بريطانيا إمتيازاً للتنقيب عن النفط في الأراضي التابعة له.

* * *

وبحلول شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٣ كان ابن سعود يسيطر

كلياً على الاحساء. وفي ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) أرسل السفير البريطاني في القسطنطينية السير لويس ماليت برقية يخطر فيها وزير الخارجية بأن الاتــراك على وشــك الاقــرار بهزيمتـهم والاعتراف بابن سعود باعتباره «متصرف نجد»، اي الحاكم العثماني لذلك الاقليم. غير أن ابن سعود كانت لديه خطط أخرى.

وكــان على شكسبــير ان يسلم موقعه في الكويت لخليفته الكولونيل غراي في أوائل كانون الثاني (يناير) ١٩١٤. وكان الرجلان على علاقة ودية. وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣ قام شكسبير بآخر مهمة رسمية له كمعتمد سياسي في الكويت. فقد قرر كوكس عدم الذهاب بنفسه الى ابن سعود، ولذلك استدعى المأجور تريفور المعتمد السياسي في البحرين لمرافقة شكسبير. وكان من الواضح ان وزارة الخارجية لا تطمئن لارسال شكسبير منفرداً. وكانت مهمة الرجلين هي إقناع الأمير ابن سعود بقبول شروط المعاهدة. ووفقاً لما جاء في تقرير شكسبير جرى ابلاغ ابن سعود ان عليه الاتفاق مع الاتراك. وأجاب الأخير انه «يسره أن يقبل بالسيادة البريطانية على أراضيه». غير ان المبعوثين البريطانيين ذكرا له ان ذلك غير وارد.

ولم يعــر الاتراك اهتماماً كبيراً لتفاصيل الاتفاق، كما بدا واضحاً اهتمــام الســير ادوارد غراي بهــا. وفي نفس اللحظة التي اقنعوا فيها البريطانيين في وزارة الخارجية بأن مسألة وراثة نجد قد حلت، وأنهم سيعترفون بها، كمنطقة تابعة لتركيا، تحت سلطة ابن سعود ـ وبذلك يتفــادون ضياع الاحساء ـ كانوا يتفاوضون مع وكيل ابن الرشيد في القسطنطينية رشيد باشا (الذي لم تكن له علاقة بآل الرشيد) بهدف تزويــد حائــل بالســلاح لمســاعدتها على مهاجمة مناطق ابن سعود في الجنوب. وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣ تم إرسال ٦٠٠٠ طبنجة ماوزر و٦٠,٠٠٠ خزينة طلقات وسيارة من طراز ديملر مع مبلغ نقدي كبير عن طريق سكة حديد الحجاز الى محطة المعظم قرب تيماء ومن هناك اتخذوا الطريق الذي سلكته غيرترود بل بعد حوالي شهر متجهة الى حائل.

وكــان الحاكم زامل السبهان قد أظهر مدى ولائه لابن سعود طوال السنوات الخمس التي حكم فيها نيابة عن ابن أخيه الصبي. وفي عام

١٩١٠ هاجم قبائل ولد علي وولد سليمان بعد ان اتهمهما بالاتفاق مع السلطات التركية في منطقة سكة حديد الحجاز. ثم عمد بعد ذلك لمهاجمة الحامية التركية في تيماء وقطع رؤوس العرب المؤيدين للنظام وعين حاكماً من قبله. وفي ١٩١٣ قرر زعماء «تركيا الفتاة» اجراء اختبار للقوة داخل الاسرة الحاكمة في حائل، فأرسلوا كميات كبيرة من السلاح هدية للأمير الشاب سعود بن الرشيد الذي كان في الثامنة عشرة، وكذلك لابن عمه السفاح سعود بن صالح السبهان. وحين سمع عبد العزيز ابن سعود بالخطط التركية عمد الى تقوية تحالفه مع المطالب بالحكم فيصل ابن حمود آل رشيد واستخدم مطالبته بالحكم لهذا الغرض.

وغرق شكسبير في المؤامرات بين الأمراء العرب بشكل خطير وخاصة بعد أن أثّر الخلاف الحاد بين لندن والهند حول قضية التورط في الشؤون العربية على ولائه هو شخصياً في هذه المسألة. وقد أمضى جزءا كبيراً من الفترة التي قضاها في حفص في صيف ١٩١٣ في اجراء مناقشات مع فيصل ابن حمود. وقد سلم شكسبير الاوراق السرية لمكتب المعتمد السياسي الى غراي يوم ١٩ كانون الثاني (يناير) ١٩١٤ ثم انطلق في ٢ شباط (فبراير) في طريقه المألوف، وهو طريق قوافل بريدة عبر البطين. وقد شعر البدو بالأسف لرحيل شكسبير بعد السنوات الأربع المليئة بالرحلات والمغامرات التي قضاها في الخليج. وقد وزعت خيوله وكلابه على الشيخ مبارك والشيخ خزعل، أما يخته «لويس بللي» فقد سلم الى خلفه.

وأخبر شكسبير كوكس الذي كان يقوم بمهام وزير خارجية حكومة الهند في سيملا بدلا من مكماهون الذي ذهب الى لندن، بأنه «سوف يحرص بالطبع على تجنب اية مسائل سياسية». وكان المقيم الجديد ج. جي. لوريمر قد أخبره قبل مغادرته الكويت بعدة أيام ان «من واجبه تجاه نفسه وتجاه وطنه ان يبدأ العمل على الفور».

وطوال الأيام الستة الأولى كانت ريح «الشمال» العاصفة الترابية تهب بلا انقطاع مما جعل من المستحيل بالنسبة لهم ان ينصبوا خيامهم. ولذلك واصل شكسبير وركبه السير ليلا ونهاراً ببطء، وكانوا يستريحون لساعات قليلة فقط، كلما استحال عليهم الاستمرار من فرط الارهاق. وبحلول ٨ شباط (فبراير) ١٩١٤ كانت الجمال قد انهكت وأوشكت على

الانهيار، ووضعت احدى النياق مولوداً اضطروا لوضعه في مهد على ظهر أمه. وفي ظل هذه الظروف المريعة لم يكن باستطاعتهم التوقف من أجل انسان أو حيوان. وحين رفض أحد الادلاء مواصلة المسير هدده شكسبير بضربه اذا حاول الانفصال عنهم ولكنه اختفى ذات ليلة ولم يره أحد بعدها أبداً.

وبحلول منتصف الشهر تحسن الجو نوعاً وكانوا يسيرون على نفس الطريق التي سار فيها كل من بلغريف ورنكايتر وليتشمان الى الرياض. ثم انحرفوا يساراً الى رمال البيطار باتجاه طويق وزلفى. ثم غادروا زلفى يوم ٢٨ شباط (فبراير) ووصلوا مساء نفس اليوم الى غات حيث نزل شكسبير في ضيافة الأمير سعد بن عبد المحسن السديري الذي يمت بصلة قربى لابن سعود من جهة أمه.

وفيما تناول الرجلان أقداح القهوة والتي بلغ مجموع أباريقها الموضوعة على النار أربعة عشر ابريقاً، تذكرا انهما سبق ان التقيا في حفص، والقرى الثماني عشرة لمنطقة السدير في الطريق الى العريضه والرياض عبر أراض قفره تتخللها مناطق قليلة من المراعي وحقول المحاصيل. وفي مجمع التقى شكسبير بصديقه القديم عبد الله بن عسكر الذي كان في حفص أيضاً. وكان اخوه حميد قد قتل قبل تسعة أشهر اثناء الاستيلاء على الاحساء. ووصل الركب الى الرياض يوم ٩ آذار (مارس) ١٩١٤، وكتب شكسبير في يومياته يقول:

«١٠ آذار (مارس): صباح شبه أوروبي وحمام، ثم وصلت الجياد لتأخذني الى المدينة، وصلنا متأخرين قليلا على مجلس عبد العزيز ولكن في وقت مناسب لمقابلة مسعود السويلم وعدد آخر من الأشخاص الذين أعرفهم. وبعد ذلك التقيت بعبد الرحمن، ثم عدت للقصر وثرثرت قليلا مع سعد، وبعد الظهر وجدت عبد العزيز مصاباً بصداع فتحدثت مع سعد وعبد الله وتعشيت معهما ثم تحدثت مع عبد العزيز ثم عدت الى سكني في ضوء القمر لأقرأ قليلا قبل النوم».

ولم يكن شكسبير يبيت ابداً في قصور الامراء العرب ولم يكن مغرماً بالطعام العربي كما أنه لم يكن ليقبل التنازل عن تناول كأس من الويسكي كل مساء. فكان ينصب خيامه بين النخيل ويذهب للمدينة كل يوم ليحضر مجالس الأمير ويعقد اجتماعات معه ومع افراد من أسرته،

وتتخلل ذلك مجادلات حامية أحياناً.

ولم يكن مزاج عبد العزيز ابن سعود معتدلا معظم الوقت الذي استغرقته زيارة شكسبير، اذ كان نظره يتدهور بسبب قوة الضوء في الصحراء، كما كانت تصيبه نوبات من الصداع الحاد. وكان يشعر بالقلق بسبب التطورات التي حدثت خلال الشهور الأخيرة. وخطط الاتراك والبريطانيين تثير شكوكه وقلقه، وكان مقتنعاً ان البلدين يسعيان لحرمانه من استقلاله. وكان صديقه ومستشاره البريطاني في موقف حرج حين حاول ان يطمئنه دون ان يخل بولائه هو شخصياً لبلاده، ويوازن بأقصى قدرته بين المواقف المتضاربة لحكومات لندن والهند ازاء الجزيرة العربية. وكانت الاجتماعات تعقد في بيت سكرتير الأمير بحضور الاشخاص المعنيين بالشؤون السرية دون غيرهم. وكان حتى اشقاء الأمير يستبعدون من الحضور.

وفي معظم الوقت كان شكسبير وعبد الله بن جلوي وفيصل بن حمود وابن سعود يمضون ساعات طويلة في النقاش في تلك الجلسات السرية ولا يسمح سوى للسكرتير بسماع ما يدبرون من خطط وما يختلفون حوله من مسائل. وقد تركزت المناقشات أساساً حول الحاجة الملحة الى وضع حد للصراع على السلطة في شمر في حائل بعد أن تولى بن سعود السلطة في الاحساء لتدعيم مركزه في منطقة نجد كلها. وحين جاء وقت الرحيل، خرج الرجلان معاً من الرياض تسبقهما راية ابن سعود وعليها شعار «لا اله إلا الله محمد رسول الله».

واستمرت رحلتهما المشتركة لمدة أربعة أيام خلال الاسبوع الثاني من آذار (مارس) ١٩١٤. وكان شكسبير يتحدث في المجالس الصباحية للمشايخ حول الحرب الحديثة والتلغراف اللاسلكي. كما كان يقدم لهم بعض النصائح الطبية. وسجل في يومياته بتاريخ ٥ آذار (مارس) أنه أجرى حواراً طويلا آخر مع عبد العزيز وأرسل خطاباً الى الشيخ مبارك بالكويت وقام بعدة زيارات وداعية قبل أن يسافر متجهاً الى بريده يوم ١٦ آذار (مارس) ١٩١٤. وتركه ابن سعود عند تلك النقطة التي تبدأ بعدها أراضي ابن الرشيد.

وكان شكسبير قد علم قبل مغادرته الرياض بوفاة لوريمر عن طريق رسالة تلقاها من مخابرات سيملا وحدثت الوفاة برصاصة طائشة اطلقها

على نفســه بطريق الخطأ. وكان لوريمر أقرب أصدقاء شكسبير خلال السنــوات الأخــيرة. وألقى هذا النبأ بظلال كئيبة على رحلته الى عنزه وبــريده في القصيم، وتفاوض لأيام طويلة حول شراء الجمال مع أمير المنطقة فهد بن معمر، وهو أقل حلفاء ابن سعود كرماً. ووصل شكسبير الى زرود يوم ٦ نيسان (ابريل) حيث يوجد نبع ماء ذو مياه كريهة الطعم وغير نقية مما زاد من تدهور صحته. وعند هذه النقطة اتخذ شكسبير قرارا غير مبرر. كان من المؤكد انه اعتزم التوجه مباشرة الى مصر عن طريق حائل. وحمل معه رسالة من الشيخ مبارك الى الأمير سعود بن عبد العزيز آل الرشيد جاء فيها:

«سيزوركم رجل انكليزي يدعى شكسبير لشراء خيول. ويحتاج ما بين ستة وثمانية جياد. ووفقاً لعلاقات الصداقة بين بلدينا، عليكم مساعدة وحماية هذا الرجل».

وخلال هذه المرحلة فان المذكرات اليومية وبيانات خط السير تصبح فجأة غامضة ومضللة وتبرز فيها أسماء بعض الاشخاص الذين يبدو أنهم يقررون الطرق التي يجب عليهم السير فيها. وكتب شكسبير في يومياته:

□ «٨ نيسان (أبريل): رياح شمالية قوية. ازدادت حالة البرد عندي سوءاً. التقيت مع علي المطوع ودار الحديث حول صالح المطوع ومصيره، وهل تاه في الصحراء أم قتل بعد أن انقطعت أخباره خلال الـ ٢١ يوما الأخيرة منذ مغادرته لبريده ومعه شخص واحد ».

□ «٩ نيسان (ابريل): توقفنا بمعسكرنا التاسع والاربعين». ويشير في مذكراته الى خط السير الذي اتبعه الى اسماء ١٣ موقعاً قرب مكان المعسكر ومواقعها وفقاً لمعلومات صالح الحميدي. وكانت حائل لا تزال على بعد ٧٠ ميلا حين اتجه الركب الى الجنوب الغربي مخترقاً صحراء تخلو تقريباً من السكان. وسجل شكسبير في يومياته ان الكآبة تخيم على الجميع بسبب عدم ورود أي نبأ عن مصير صالح المطوع رغم إرسال عدد من الرجال للبحث عنه .

□ «١٠ نيسان (ابريل): ما زلنا متوقفين بالمعسكر ٤٩ وتم تسجيل مواقع اخرى». وجاء في المذكرات الشخصية ان أنباء وردت بأن صالح المطوع ما زال على قيد الحياة وانهم سيلتقون به بعد يوم او اثنين حيث

أرسلت الجمال لإحضاره .

□ «١١ نيسان (ابريل): يسجل خط السير رحلة قصيرة استغرقت ساعة و٤٠ دقيقة ثم نصب المعسكر رقم ٥٠. وبذلك تكون المجموعة قد أمضت ما يقرب من أربعة أيام في المنطقة الصحراوية بأقصى الركن الشرقي لجبل شمر». وقد سارت المجموعة بعد ذلك مجتازة «درب زبيدة» وهو نفس الطريق الذي سلكته غيرترود بل قبلهم بشهر واحد لدى خروجها من حائل.

□ ١٢ نيسان (ابريل): تتحدث المذكرات عن استمرار التوقف بالمعسكر رقم خمسين وعن سيول وعواصف رعدية.

□ ١٣ نيسان (ابريل): ذهب شكسبير للقاء صالح المطوع.

□ ١٤ نيسان (ابريل): تغيير في الخطط. احتمال اتباع طريق درب الحيانية.

□ ١٥ نيسان (ابريل): مغادرة المعسكر الخمسين في الصباح حيث تتجه مجموعة العرب الى دمشق، ويتجه شكسبير ومجموعته الى اراضي ابن الشعلان بالجوف عبر طريق طويل يدور حول جبل شمر. وبعد ذلك الى وادي سرحان عبر اراضي عودة ابو تاية، ثم جبل طبيق الى النقطة الحدودية لسيناء عند الكونتلا.

ولم تتضمن مذكرات شكسبير في هذه المرحلة أي شيء عن مناقشاته مع صالح المطوع أو رفاقه أو عن أي شيء من أحداث ذلك الانتظار الطويل في الصحراء. وفي الواقع انه لم ينكشف حتى العام ١٩١٧ ان هذه الرحلة عبر الصحراء العربية كانت شيئا مختلفاً عما صورت به. وجاء ذلك من خلال رسائل متبادلة بين دوغلاس كاروثرز مع مورفي في قيادة الأركان بالهند حيث أشار شقيق شكسبير الى هذا الأمر. وعلى أي حال أشار شكسبير في مذكراته بشكل غير مباشر الى عدد من التحركات التي لاحظها بعد أربعة أيام من مغادرته لأصدقائه العرب حين كان عند آبار الحيانية. فكتب يوم ١٩ نيسان (ابريل) يقول:

«وصلت اليّ أنباء مدهشة عن ابن الرشيد اليوم». ويبدو ان رسالة وصلته من العجيل (رفاق السفر الذين سبقوه في الطريق) تنبه لضرورة الاسراع حيث ان ابن الرشيد قد قتل زامل السبهان. ويضيف شكسبير ان ذلك حدث قبل عشرة أيام أي يوم ١٠ نيسان (ابريل) ١٩١٤ بالطريقة

الآتية:
«يبدو ان مشاعر شمر قد شككت في قدرة سعود بن عبد العزيز في أن يصبح أميرهم وأنهم يعتقدون ان زامل السبهان هو الذي يجب ان يتولى الامارة. فقرر الأمير الشاب سعود بن الرشيد وابن عمه سعود بن صالح السبهان ازاحة زامل والمقربين منه من الطريق. ولدى تحرك الأخيرين في موقع قرب ابو غار قدم احد العبيد من ورائهم وأطلق النار على زامل من الخلف فقتله على الفور. وحين رأى شقيق زامل ورفاقه ذلك قفزوا على خيولهم ولاذوا بالفرار. غير انهم حوصروا بعد ذلك وقتلوا جميعاً. وأرسل عدد من الرجال الى حائل للتأكد. ويأمل ابن الرشيد الآن أن ترضى شمر بأن يكون أميراً عليهم. جريمة حقيرة وخاصة انه لولا زامل لما بقي سعود ابن عبد العزيز على قيد الحياة حتى ذلك اليوم».

* * *

لقد كانت هذه الفقرة في مذكرات شكسبير هي التسجيل المعاصر الوحيد لهذا الاغتيال الذي قطع الطريق على احتمال عقد أي تحالف ثوري بين القبائل العربية كما وضع حدا للسلام في الجزيرة العربية.

ولم تكن ابو غار تقع على الطريق الذي اختاره صالح المطوع حين غادر بريدة متجهاً الى جبل شمر يوم ١٣ آذار (مارس) ١٩١٤، قبل عدة أيام من مغادرة شكسبير ومجموعته. وقد وقعت الجريمة خلال الفترة التي انقطعت فيها اخبار المطوع وارسل الرجال للبحث عنه في الصحراء. كما ان وصول صالح الى معسكر شكسبير سبقه وصول رسول من ابن الرشيد يدعى حمداني. كما ان صالح المطوع كان هو الرفيق الغامض الذي اصطحبه ليتشمان معه في رحلته عام ١٩١٢ الى عاصمة ابن سعود.

وللتعرف على مفاتيح اسرار دور الرجل الانكليزي في احداث نيسان (ابريل) ١٩١٤ كان علينا ان نفحص التقارير النمساوية وشهادة موزيل الذي لم يكن ابدا بعيداً عن مواقع الاحداث الهامة في الأراضي العربية، والذي كان يحظى بثقة نوري الشعلان، وهو الشخص ذو الاطلاع الواسع على مجريات الأمور.

وفي نهاية ١٩١٣ حين توجه رشيد باشا الى دمشق لاجراء محادثات مع القنصل الفرنسي في بيروت جورج بيكو كانت تشغله مسائل أكثر أهمية من ارسال السلاح الى ابن الرشيد. فوفقاً لما ذكره موزيل كانت الخطة تقضي بتحويل جبل شمر الى محمية فرنسية. وبذلك يرفرف علم فرنسا في الساحة الخلفية لسورية، وهي منطقة افترضت فرنسا أنها تتحمل مسؤولية اخلاقية تجاهها. كما أنها تشعر برغبة كبيرة في الحصول عليها منذ زمن الحملات الصليبية. وأصرَّ موزيل أيضاً على القول - نقلا عن رؤساء القبائل - بأن شكسبير زار حائل خلال تلك الأيام الغامضة من ٧ الى ١٢ نيسان (ابريل) ١٩١٤. وهي الفترة التي ادعى شكسبير انه لم يمارس فيها اي نوع من النشاطات، والتي سجل في مذكراته اثناءها انه اقتصر على الدردشة مع شقيق المطوع، وأنهم كانوا يخشون أن يكون قد قتل.

والواقع ان زامل الحاكم كان هو الذي قتل يوم ١٠ نيسان (ابريل) في الوقت الذي كان فيه صالح المطوع في مكان ما، قريب منه غالباً، يحاول دون جدوى تحذيره من الخطر المحدق به. وقد أصر موزيل أيضاً على ان شكسبير - بعد أن ووجه بمصرع الحاكم الموالي للسعوديين وبضرورة قطع الطريق على بيكو - قد عقد تحالفاً سرياً مع الوزير الموالي للاتراك سعود السبهان. ويعتبر هذا التفسير تفكيرا تآمرياً يصعب الاقتناع به. والتفسير الأقرب للصحة هو ان صالح المطوع - بعد ان أسرع الى المكان الذي وقع به الاغتيال لتحذير زامل نيابة عن ابن سعود - قد بعث برسول يمثل آل الرشيد الى شكسبير بعد ان وقعت الجريمة، وان ثمة رسالة أراد الانكليزي ابلاغها للوزير سعود قد حملها معه حمداني لدى عودته.

وكتب موزيل ان ابن سعود - الذي شعر بالغضب ازاء خرق السلام وقتل زامل - أعلن انه «لن يتعامل مع القتلة ومعكري السلام، وانه سينصب فيصل بن حمود». وبعد ستة أشهر كان موزيل هو آخر ممثل أوروبي يزور جبل شمر قبل أن تتسبب الحرب في خلق انقسام جديد في الجزيرة العربية.

وأيا ما كانت تفاصيل المهام وصراعات القوى خلال نيسان (ابريل) ١٩١٤، فليس هناك ما يمكن معرفته سوى ان الثورة العربية الموعودة التي كان مقرراً ان يقوم بها أمراء الجزيرة العربية تحت راية ابن سعود،

بتحريض من الضباط العرب في الجيش العثماني، هذه الثورة قد وئدت في مهدها.

وبينما كانت هذه الدراما البيزنطية تدور في جبل شمر ، كان الأمير عبد الله الابن الثاني لشريف مكة والذي كان على علم بخطط جماعة «العهد» ولكنه غير راض بزعامة ابن سعود، قد وصل الى القاهرة لاجراء محادثات مع كيتشنر. ثم تبعه شكسبير الذي وصل يوم ٢٦ أيار (مايو) وقد بدت عليه آثار رحلة طالت ٢٠٠٠ ميل في صحراء غير مطروقة.

وقد شعر شكسبير بالخيبة حين وجد المقيم والسردار في القاهرة يبالغان في تقرير قوة شريف مكة، وان القيادات المحلية لديها معلومات سطحية للغاية حول أوضاع الجزيرة العربية. وكتب رسالة موجزة لابن سعود قبل مغادرته عائداً الى انكلترا.

وقد توجهت غيرترود بل الى تدمر بعد عودتها من بغداد مباشرة في نهاية آذار (مارس)، وفي الوقت الذي قتل فيه زامل كانت هي في طريقها الى دمشق وذكرت ان «رجل نجد» جاء اليها في ذلك الوقت وأخبرها بنبأ الاغتيال.

* * *

بينما كان موزيل يتلقى تعليماته من أنور في القسطنطينية في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٤، كان الكابتن شكسبير يتردد على وزارات الداخلية والهند والحرب في لندن تنفيذاً لطلبات السير ادوارد غراي واللورد كرو وصديقه الليفتينانت كولونيل مونسيل، الذي كان يتولى الآن الشؤون التركية في المخابرات العسكرية التي كان الميجور جنرال كالويل يتولى رئاستها، بعد ان خلف هنري ويلسون في آب (اغسطس) في منصب مدير العمليات العسكرية.

وبعد أن كان الوزراء المتعاقبون يستخفون بآراء شكسبير، أصبحت أعلى السلطات البريطانية تقدره الآن. لذلك تم تكليفه بالذهاب الى شبه الجزيرة العربية، كضابط سياسي يقوم بمهمة خاصة تتلخص في ضمان انضمام القبائل وشيوخها الى صفوف الحلفاء في حالة دخول تركيا الحرب، أو على الأقل ضمان التزام هذه القبائل بالحياد الكامل. وكان

عبـد العزيز ابن سعود الزعيم العربي الوحيد الذي يمارس نفوذاً على أقوى هذه القبائل. وتم اخطاره في تلك الاثناء بأن عليه ان يقبل السلطة العثمانية على أراضيه، وأن لا يتوقع أية مساعدة من جانب بريطانيا.

وأبحر شكسبير من ميناء ساوثهامبتون البريطاني على متن السفينة «آرابيا» يوم ١٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٤. وبعد وصوله الى بومباي تم نقله الى السفينـة البخـارية «شاخدرا» التي نقلته الى شط العرب. ووصـل يوم ٣٠ تشرين الأول (اكتـوبـر) الى المـرسى الخـاص بالقوة البـريطانية على مسافة ١٥ ميلا من مزارع النخيل والقلعة التركية في الفاو. واستقبله هناك الميجور مورفي. وسلم شكسبير الى مورفي مذكراته السرية وأوراقاً سرية أخرى.

وفي بدايـة تشرين الثـاني (نـوفمبـر) ١٩١٤ أعلن ان نائب الملك البـريطاني سيصـل من الهنـد في كانون الأول (ديسمبر). وصدرت التعليمات الى شكسبير بالانتظار لمقابلته مع القائد العام الجديد. ومع ذلك أصر شكسبير على ان لديه تعليمات محددة من لندن، وان مهمته عاجلة للغـاية. وبقي شكسبير مع القوة خلال تشرين الثاني (نوفمبر) لاجراء مشاورات مع السير بيرسي كوكس والسير آرثر باريت، الذي تولى القيـادة خلال ذلك الشهر. وشاهد شكسبير اثناء وجوده هناك مصرع صديقه بيردوود، الذي أصابته شظية في معركة السنية في ١٦ تشرين الثـاني (نـوفمبر) ١٩١٤، التي كانت أول مرة في التاريخ تشتبك فيها القـوات البـريطانية مع القوات التركية النظامية التابعة للامبراطورية العثمـانية. وظل شكسبير هناك أيضاً فترة طويلة كانت كافية لمشاهدة الخسائر الفادحة في صفوف الجنود الانكليز والهنود في المعارك المبكرة التي دارت في منطقة الأهوار في العراق في الشهر الأول من الحرب. كما شاهد ايضا عدم حسم القادة في اصدار الأوامر وشجاعة الجرحى وهم ينقلون الى السفينة «شاخدرا» لكي يتم نقلهم بعد ذلك الى مستشفيات في الهند.

وكتب شكسبـير في مذكـراته: «الحمد لله انني لا أخدم في صفوف الجيش، لأنني كنت سأقدم الى محكمة عسكرية خلال اسبوع واحد». وغادر شكسبير المنطقة في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤، أي بعد ثلاثة أيام من دخول القوات البريطانية البصرة ورفعها العلم البريطاني

على مقـر الحاكم التركي هناك. وكان الحاكم هو القائمقام صبحي بك الذي فر لكي يقاتل في معركة أخرى. وأسرت القوات البريطانية ايضاً القنصل الألماني وخمسة من العملاء.

وبينما كان شكسبير مع القوة البزيطانية «د»، قل الاهتمام بدرجة ملحوظة بمهمته الأصلية الى ابن سعود. وكان الجيش البريطاني يتقدم والاتراك يتقهقرون برغم بنادقهم الجديدة من طراز «ماوزر»، وحرابها الصقيلة الملتمعة. وبذلك لم تعد بريطانيا تحتاج الى حلفاء في قلب الصحراء.

لكن لم يكن كل شيء يسـير على ما يرام لدى الشيـخ مبـارك شيخ الكويت، فبينما كانت القوة البريطانية تشق طريقها خلال المستنقعات كان السيد طالب النقيب متجهاً من البصرة الى الكويت مبعوثاً من قبل أنور، برغم انه كان مستعداً لقبول أعلى ثمن يقدم له، كما كانت عادته باستمرار. والواقع ان بريطانيا عرضت عليه دفع مرتب تقاعدي له وذلك عن طريق الشيخ خزعل شيخ المحمرة، الذي كان مواطناً تمتد الأرض التي يسيطر عليها الى الأحواز وخط أنابيب النفط. وفي ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) كتب غراي المعتمد السياسي الجديد في الكويت خطاباً الى نوكس المقيم البريطاني في بوشهر يخطره فيه بأن عبد العزيز بن سالم، رجل الشيخ مبارك في البصرة، يتجه الى الكويت مع السيد طالب النقيب.

بعـد ذلك وصل السيد طالب النقيب وأخبر غراي بأنه رفض دعوة للذهاب الى القسطنطينية، وبأنه كان في طريقه الى ابن سعود في محاولة لاغـرائه بالتمرد على الحكومة البريطانية واعلان الجهاد. ولكن السيد طالب يرغب، برغم كل ذلك، في وضع نفسه تحت تصرف بريطانيا. وقال أيضاً إنه يخشى على حياة أفراد عائلته الذين كانوا ما يزالون في البصرة، فيما إذا علم الاتراك أنه تقدم بهذا العرض. وترك السيد طالب لدى غراي شروطه الجديدة للتعاون مع بريطانيا. وفي وقت لاحق سأل غراي عما اذا كان قد توصل الى اتفاق مع الشيخ مبارك على الاستعانة بخدماته، أو على الشروط التي تقـدم بها خلال اجتماع سابق مع الشيخ خزعل، والتي تضمنت تقديم مبلغ كبير من المال له تحت الحساب، ودفع مرتب سنوي له، وضمان سلامة ممتلكاته داخل البصرة وحولها بعد الحرب، وتعيينه حاكماً لاقليم البصرة.

وفي ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ بعث غراي تقريراً الى المقيم البريطاني قال فيه: «حضر إليّ اليوم عبد العزيز بن سالم لاخطاري بأن السيد طالب والمجموعة المرافقة له، والتي تتألف من ١٢ رجلا، رحلوا دون اخطار الشيخ مبارك، وانهم في طريقهم الآن الى الجهرة ثم الى بريدة حيث يوجد الأمير سعود في الوقت الحالي. وبذلك اتضح تماما هدفه من الحضور الى الكويت. انه كان يرغب في استطلاع رأيي بشأن الحصول على شروط أنسب لضمان تعاونه، بحيث تكون هذه الشروط افضل كثيراً من العرض الذي رفضه من قبل. وبذلك كان يهدف الى الحصول عن طريقي على عرض آخر منك».

وقال غراي لنوكس ان فرار السيد طالب جعل شيخ الكويت يقول ان السيد طالب «أغلق الآن كافة الأبواب بوجهه». وقال غراي انه يعتقد ان شيخ الكويت العجوز كان مسروراً لرحيل السيد طالب. واستطرد غراي قائلا، ان شيخ الكويت يعتقد «ان الأتراك دعوه الى القسطنطينية لاعدامه هناك، وانهم طردوه الآن من البصرة».

* * *

كان شكسبير قد تعامل كثيراً مع السيد طالب النقيب في السنوات التي انقضت منذ وصوله الى منطقة الخليج عام ١٩٠٤. وقال شكسبير أثناء وجوده في وزارة الهند في لندن عام ١٩١٤، ان السيد طالب «يتمتع بشخصية قوية وبقوة الارادة، ولكنه مجرد من المبادىء السياسية... وهو غارق في الديون في معظم الأحيان ولذلك يكثر من الالحاح في طلباته».

وفي نيسان (ابريل) ١٩١٤، كان شكسبير معسكراً بالقرب من اراضي ابن الرشيد. في ذلك الوقت تلقى الأمير السعودي رسالة عاجلة من الشيخ مبارك للذهاب الى آبار الصباحية في الكويت بناء على طلب غراي. وفي ٢٠ نيسان (ابريل) أرسل كراو، القنصل البريطاني في البصرة، برقية الى سفارة بلاده في القسطنطينية يخبرها فيها بأن بعثة تركيا في طريقها الى الكويت. وأشارت برقية كراو الى أن الأتراك ألفوا لجنة تضم القائد العسكري للبصرة والقائد العسكري في بغداد ومتصرف الاحساء. وكان متصرف الاحساء هو السيد طالب نفسه. وكان من المقرر ان تتوجه هذه

اللجنة الى الاحساء لكي يرتب السيد طالب تولي الحكومة التركية مقاليد الأمور هناك.

وفي اليوم نفسه قال نوكس ان الميجور تريفور، المعتمد السياسي في البحرين، يعتقد ان ابن سعود سيتعاون مع هذا الوفد التركي برغم ان مبارك لا يعتقد ذلك. ولم يكن ابن سعود يرغب في التعامل مع غراي في الكويت ولكنه ظل على اتصال مع تريفور. وكان نوكس قد أرسل قبل يومين رسالة غامضة الى تريفور يقول فيها: «هل يمكنك إخبار صديقنا بأن الشخص الذي يرغب في رؤيته غادر الكويت يوم ٢٥ آذار (مارس) ؟ أرجو أن تفعل ذلك اذا كان ممكناً، وآمل ان يؤدي ذلك الى جعل عبد العزيز ينتظر.»

وفي ١٦ نيسان (ابريل) ١٩١٤ كتب ابن سعود الى مبارك رسالة قال فيها: «عندما وافقت على التعامل مع الكويت كنت أطيع تعليماتك بشأن الطاعة والخضوع لحكومتنا. ولكنك تعرف مدى الاحتقار والاهانة التي كان مسؤولو تلك الحكومة التركية يعاملونني بها، ولقد رأيت بنفسك مدى الصبر الذي كنت ابديه تجاه سلوكهم طوال هذه السنوات، برغم ان هذه الحكومة لم تقدم أي شيء على الإطلاق للتخفيف عني. ولقد أصبحت الان والحمد لله قادرا على القيام بأشياء عظيمة تصل الى حدود العراق، لولا انني لا أرغب في ان أكون سبباً في اثارة صعوبات أمام الحكومة والثورة من جانب أولئك العرب».

ووصف غراي تلك الرسالة بأنها «مثال مثير للاهتمام من أمثلة الديبلوماسية الشرقية». وكان الوفد التركي برئاسة السيد طالب مبحراً من البصرة على السفينة «فيرارا» التابعة لشركة النفط الانكليزية ـ الفارسية، لكي يستضيفهم الشيخ مبارك والكولونيل غراي في الكويت، حتى يحضر ابن سعود الى الصباحية دون حماس كبير. وكان المسؤول السياسي البريطاني يخطط لكي يتسلم الشيخ مبارك وسام «العثمانية» الصادر من القسطنطينية في اليوم التالي الموافق ٢٣ نيسان (ابريل) ١٩١٤. وفي الوقت نفسه يعرض الشيخ مبارك الخطابات التي وجهها ابن سعود اليه بشأن اعادة السلطة العثمانية الى الاحساء عن طريق السيد طالب.

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة هنا ان هذه الخطة كانت تنص على

اعطاء الامير وعدا شفويا باعادة قطر ومشيخات عمان المتصالحة (دولة الامارات اليوم) اليه اذا رغب في ذلك، على أساس ضمان موافقته على تلك الخطة. ولم تكن تلك المناطق خاضعة للسيطرة السعودية منذ أيام الدولة الوهابية الأولى في بداية القرن التاسع عشر. وفي النهاية تم اصطحاب وفد السيد طالب لمقابلة ابن سعود في الصباحية.

وربما كان المسؤولون البريطانيون المشتركون في تلك المحاولة للدفاع عن المصالح العثمانية يفكرون في الخطاب الذي وجهه نائب الملك الى الحكومة البريطانية في نهاية المفاوضات الانكليزية ـ التركية في ايلول (سبتمبر) ١٩١٣، والذي قال فيه: «ليس هناك شك من ناحية مصالح الهند في أن وجود دولة تركية قوية وصديقة سيكون بمثابة ضمان لعدم التدخل في الهند من ناحية الغرب، وربما تكون مثل هذه الدولة أيضاً وسيلة غير مباشرة لضمان سلامة اراضي فارس. وليس لدينا ما نخشاه من تركيا». وقال مسؤولون بوزارة الخارجية البريطانية في لندن: «اذا حدث أي تقسيم لتركيا سيحمل ذلك في طياته احتمالات خطيرة بالنسبة للهند».

ولم يتوجه الشيخ مبارك لمقابلة ابن سعود، ولكن الكولونيل غراي توجه الى الصباحية فيما بعد. وكان الوفد التركي قد تقدم بمسودة معاهدة للتوقيع تنص على تعيين الأمير متصرفاً أو حاكماً في نجد كما تعده بدفع راتب سنوي له اذا وافق على ذلك. ورفض ابن سعود التوقيع في البداية، ولكنه عاد فوقع بعد ان ضغط عليه غراي.

ولما سأل ابن سعود، الذي كان طوال حياته صديقاً لبريطانيا وعدوا للامبراطورية العثمانية، غراي، عما يجب عليه ان يفعله قبل التوقيع على تلك المعاهدة مباشرة، رد غراي قائلا: «يجب الا تتوقع أي مساعدة أو ارشاد من جانب بريطانيا».

وقد عرف شكسبير بقية القصة من ابن سعود نفسه.

وفي أيار (مايو) ١٩١٤ كان شكسبير معسكرا في نخل بصحراء سيناء في طريقه الى مصر. وكان قد أخطر القسطنطينية بأن هناك شحنة من الاسلحة في طريقها الى حائل على طريق القوافل القديم لتشجيع ابن الرشيد على شن الحرب ضد الرياض. ولكن القسطنطينية تجاهلت هذه المعلومات. وفي ٢٣ حزيران (يونيو) ١٩١٤، أرسل السفير البريطاني في

القسطنطينية ماليت برقية تشع منها البهجة الى وزارة الخارجية يقول فيها: «قبل ابن سعود منصب الوالي والقائد في نجد، كما قبل انه مواطن عثماني وقبل رفع العلم العثماني. وأرسل السلطان برقية الى السيد طالب يهنئه فيها على نجاح مهمته».

وقد عثرت القوات البريطانية بعد أيام من دخولها البصرة على نسخة من المعاهدة بين ابن سعود ووالي البصرة العثماني يرجع تاريخها الى ١٥ أيار (مايو) ١٩١٤. وكان ذلك نهاية ثقة ابن سعود بالشيخ مبارك وثقته ببريطانيا. وعثر مع هذه المعاهدة على خطاب غير مؤرخ من ابن سعود الى السيد طالب النقيب، يبدو منه ان السيد طالب ذكّر الأمير بواجبه وبالتزامه باتباع تعاليم الاسلام وبالولاء للباب العالي ثم افشى أمر هذه المراسلات للأتراك. ولذلك قال ابن سعود في هذا الخطاب: «ان هؤلاء الناس (البريطانيين) الذين تضفي صفاتهم الجيدة الهدوء على دول العالم، هم الذين نعرفهم ونعتمد عليهم ولا نرغب في اثارة غضبهم».

واخطر نائب الملك لندن بعد تلك الاحداث بأن «المفاوضات كادت تنتهي باشتباك بين عبد العزيز والبنباشي (الرائد) بشأن موضوع الحامية التركية في القطيف». وكتب ماليت خطاباً من القسطنطينية الى وزارة الخارجية عن «الشك الذي ثار في عقول الاتراك نتيجة للزيارة التي قام بها شكسبير لابن سعود عام ١٩١٣»، وعن «الطبيعة المراوغة والغامضة للديبلوماسية الشرقية».

ولدى عودة شكسبير الى الكويت في نهاية العام ارسل خطاباً الى المقيم قال فيه: «وصلت الى الكويت يوم ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ وعلمت من الليفتينانت كولونيل غراي ان السيد طالب النقيب رحل يوم ١٦ من الشهر مع حوالي خمسين من أتباعه متجهاً الى نجد فيما يبدو لمقابلة ابن سعود (...) وكان الأتراك قد أمروا السيد طالب بالتوجه الى نجد لضمان تعاون ابن سعود، كما ان السيد طالب كان يشعر بالقلق على موقفه في حالة احتلال بريطانيا للبصرة. ولذلك سعى الى الحصول على ضمانات من الحكومة البريطانية. ويبدو ان المسؤولين الاتراك في البصرة علموا بأمر مباحثاته مع البريطانيين، لأن السيد طالب يخشى على ما يبدو من العواقب المباشرة التي ستترتب على ذلك بالنسبة له شخصياً ولأفراد أسرته اذا بقي في البصرة».

وكان شكسبير واثقاً من أن ابن سعود سيلتزم جانب الحذر في تعامله مع السيد طالب، ومع ذلك كتب خطاباً باللغة العربية الى ابن سعود يحذره فيه من احتمال خيانة السيد طالب له. ووجه في نفس الوقت ترجمة باللغة الانكليزية لهذا الخطاب الى المقيم البريطاني. ويقول شكسبير في خطابه: «سمعت في الكويت بصورة مؤكدة ان السيد طالب هرب من الاتراك في البصرة الى الكويت ثم اتجه اليك بعد قضاء عدة أيام هنا. وقد أخبرني صديقنا المبجل الشيخ مبارك الصباح عن تلاعبه ومناوراته، وانني انتهز هذه الفرصة ايضاً لكي أشرح لك الاشياء العجيبة التي فعلها».

وكان السيد طالب النقيب قد زار عام ١٩١١ كلا من كيتشنر في القاهرة ونائب الملك في سيملا ومعه خطابات تقديم من القنصل كرو في البصرة. وفي تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٤، بعث بولارد، القنصل الجديد في البصرة، خطاباً من السيد طالب الى اللورد كيتشنر يعرض فيه خدماته على بريطانيا. وبعد اسبوعين تم استدعاؤه من البصرة الى القسطنطينية.

* * *

خلال تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٤ كان هناك قدر كبير من الرسائل المتبادلة بين لندن وبوشهر والكويت. وتلقى ابن سعود رسائل من السير ادوارد غراي واللورد كرو ونائب الملك والمقيم البريطاني والشيخ مبارك. وكان ابن سعود يقوم في ذلك الوقت بغارات على قبائل مطير وعجمان المرتدة بهدف تلقينها درسا في الولاء، ومنعها من التحول ضده. وأرسل شيخ الكويت رسالة رد عليها ابن سعود بصورة إيجابية في بداية تشرين الأول (اكتوبر). وحمل هذا الرد قريبه عبد الله بن جلوي حاكم الاحساء. وقبل اعلان الحرب مع تركيا بعث الكولونيل غراي برقية الى بوشهر يقول فيها «ان ابن سعود يقف معنا». ولكن هذا التنبؤ كان سابقاً لأوانه، فقد كان ابن سعود يحاول كسب الوقت. وفي الوقت نفسه كان ابن الرشيد يقوم بتشجيع من انور بالاغارة على اراضي ابن سعود في القسيم، كما كانت القبائل المناوئة في وسط شبه الجزيرة العربية تستعد للقتال.

مع حلول كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٤ كان شكسبير يحاول ترتيب

الأمور في الكويت وينتظر دعوة الامير ابن سعود. وكان من الواضح ان رحلته بدأت تتخذ مساراً خطيراً. وكانت التعليمات قد صدرت لشكسبير بالبقاء مع ابن سعود والاقامة معه في عاصمته لو اقتضى الأمر ذلك. ووردت الى الكويت أنباء عن قتال وشيك لانهاء حكم آل الرشيد في حائل. واستعد شكسبير للتوجه الى مسرح حرب يبدو انها ستكون كاملة، وستتحول الى حل عسكري للمخطط السياسي الذي كان شكسبير يلعب دوراً سرياً في تنفيذه. وفي ٧ كانون الأول (ديسمبر) تلقى شكسبير الدعوة من معسكر ابن سعود بالقرب من بريدة. وكان شكسبير يتوقع حدوث متاعب. ولذلك كتب في ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٤ رسالة الى غراي يطلب منه الاتصال بوالدته «اذا حدث ان ابتلعتني الصحراء». وكان شكسبير قد كتب وصيته ايضاً يوم ٥ كانون الأول (ديسمبر)، وكانت تلك هي المرة الأولى التي فكر فيها في كتابة وصيته برغم حياته التي كانت تتسم بالمخاطرة باستمرار.

وغادر شكسبير الكويت على طريق البطين في ١٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٤، وقضى يوم عطلة عيد الميلاد في مخيمه بالقرب من آبار حفار، ثم توجه الى الصفا والدهناء. ووصل الى معسكر ابن سعود بالقرب من المجمع في اليوم الأخير من الشهر. وكان عبد العزيز بن سعود معتدل المزاج، ورحب بضيفه بحرارة. ولكن اتضح بعد فترة من الوقت مدى غضبه على بريطانيا والشيخ مبارك بسبب المعاملة التي لقيها في اجتماع الكويت.

وعبر شكسبير في رسائله الى المقيم البريطاني في بوشهر، والى شقيقه في الهند، عن مدى غضبه وغضب ابن سعود. وقال في خطاب وجهه الى نوكس يوم ٤ كانون الثاني (يناير) ١٩١٥: «كان ابن سعود غير راض على الاطلاق عن الحكومة البريطانية عندما وصلت (...) وتُحَرك عبد العزيز عوامل الاخلاص الشديد لبلاده والايمان القوي بدينه، والتصميم على اداء كل ما يستطيع من أجل شعبه (...) وكان يثق بالحكومة البريطانية أكثر مما يثق بأي جهة أخرى (...) ولكننا نطلب منه الآن ان يدخل في حرب علنية مع أقوى أعدائه وأشدهم ضراوة (...) وقد صدر هذا الطلب عن دولة أخطرته قبل ستة أشهر فقط بأنها لا تستطيع التدخل لصالحه، وتركته لمواجهة الأتراك وحده». وقال شكسبير في تقرير الى كوكس في

البصرة: «ليس من الضروري أن أعيد سرد ما حدث بين ابن سعود وغراي».

وكان السيد طالب معسكراً مع ابن سعود عندما وصل شكسبير. ووجه شكسبير نصيحته لابن سعود بصورة واضحة بارسال السيد طالب الى البصرة. وبعد رحيل السيد طالب بدأ ابن سعود وزائره الانكليزي في اعداد معاهدة تحالف تضمن الحماية العسكرية والمساعدات المالية البريطانية للأمير السعودي، وتنص ايضاً على مناصرته لقضية بريطانيا في الحرب.

وبينما كانت المفاوضات مستمرة بينهما وصل اليهما رسول من الأمير عبد الله بن الحسين ابن شريف مكة. وكان عبد الله يرغب في معرفة ما اذا كان ابن سعود سيؤيد دعوة السلطان العثماني للجهاد والخطة التي وضعها سفراء انور، والتي تنص على ان يغير ابن سعود على البريطانيين في منطقة البصرة، بينما يتولى الشريف وابن الرشيد حماية الحدود الغربية والشمالية لشبه الجزيرة العربية. ونصح شكسبير ابن سعود باخطار شريف مكة بأنه يجب عليه كسب الوقت مع الأتراك وعدم اعطاء اي وعد. وعاد المبعوث برسالة شفوية من ابن سعود ونسخة مكتوبة من الوعد الذي اصدره نائب الملك بحماية الأماكن المقدسة.

* * *

لم يكن شكسبير سعيداً بهذا الوضع. وكان اهتمام الحكومة البريطانية بمهمته وبالمعاهدة مع ابن سعود قد تضاءل بصورة ملحوظة، منذ استدعائه لأداء هذه المهمة بعد اعلان الحرب مع تركيا. وفي ١٤ كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ كتب شكسبير رسالة يائسة الى شقيقه يقول فيها انه يشك فيما اذا كانت الحكومة البريطانية توجه أي اهتمام لتوصياته، وأضاف قائلا: «ربما تستمر الحكومة في اضاعة الوقت حتى يمل ابن سعود الى درجة يتخلى معها عن موقفه الودي الحالي». واستمر قائلا: «لدى ابن سعود حوالي ٦٠٠٠ من رجاله في المخيم وهناك آلاف من البدو الآخرين في المناطق المحيطة بالمخيم. وخلال يومين سنتحرك لدخول معركة كبيرة مع ابن الرشيد، الزعيم الكبير الآخر في وسط شبه الجزيرة

العربية. وتشير التقديرات كلها الى أنه لا يتمتع بالقوة التي نتمتع بها ولذلك فان النتيجة تكاد تكون محتومة، ولكن لا يستطيع المرء ان يتكهن بما سيفعله هؤلاء البدو».

وأرسل شكسبير مسودة المعاهدة الى كوكس يوم ١٩ كانون الثاني (يناير) ١٩١٥، ومعها مذكرة يقول فيها: «ان الأمير لن يتقدم بأي تنازلات اخرى الى بريطانيا من ناحية الحرب حتى يحصل على بعض الضمانات القوية لموقفه في هذه المعاهدة». وأضاف قائلا انه سيتحرك خلال عدة ايام لمقابلة جيش شمّر.

واتجهوا شمالاً يوم ٢٢ كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ وعسكروا في اليوم التالي بالقرب من زلفي البلدة الرئيسية في منطقة السدير. وكان جيش شمر التابع لابن الرشيد على مسافة ٢٥ ميلا تقريبا في اتجاه بريدة. وفي تلك الليلة طلب ابن سعود من شكسبير مغادرته والذهاب الى زلفي طلباً للسلام. فرد شكسبير قائلا: «اذا ذهبت وتركتك الآن فهذا يعني انني لن اهجرك وحدك، بل انني سأتخلى عن واجبي تجاه وطني ايضا. وانني لا استطيع ان أفعل ذلك». وفي تلك الليلة أيضا وصل رسول لكي يبلغ الأمير أنباء مثيرة للدهشة تفيد بأن عبد الله ابن الشريف حسين يقود جيشاً من الحجاز الى أراضيه وأنه عسكر على الطريق المؤدي الى الرياض.

وفي الصباح التالي استيقظ شكسبير وأخذ معه مسدسه وآلة التصوير. ودخل جيش ابن سعود المعركة. وكان عبد العزيز ابن سعود مع الفرسان، بينما ركب شكسبير على ظهر جمل للانضمام الى المشاة، بين النفوذ أو الكثبان الرملية في اتجاه الشمال. وتم تقييد الإبل في مكان مهجور يطلق عليه البدو اسم «بقر» وهو المكان الذي لاقى «زامل» ـ حاكم حائل ـ مصرعه فيه قبل تسعة أشهر. وكان يصاحب شكسبير شاب من أبناء المدن يدعى حسين، وكان مسؤولا عن مدفع الميدان الوحيد الموجود مع جيش ابن سعود.

وتم تركيب هذا المدفع على تل في موقع يسمى الجرب. وبينما كان جيش شمر يتقدم على خط الافق، كان شكسبير يقف الى جوار حسين ويصور ساحة المعركة. وكان جيش ابن الرشيد مدرباً جيداً وأكبر عدداً مما اعتقد شكسبير. واشتبك فرسان هذا الجيش مع فرسان ابن سعود

على الاطراف.

بعد ساعة من القتال في صباح ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ كان الفرسان السعوديون يبدون مهارة عالية. وبدأ الاضطراب يسود في صفوف جيش شمر الى حد ما. وكانت صيحة «الله أكبر» تتردد بين جنبات الصحراء، كما بدأ القتلى والجرحى يسقطون من الجانبين. وكان تركي نجل ابن سعود يقود المشاة، الذين بدأ فرسان ابن الرشيد في اجتياح مواقعهم. وكان شكسبير مشغولا بتوجيه نيران مدفع حسين بصورة فعالة ، الى ان تعطل هذا المدفع فجأة. وشعر رجال تركي بالاضطراب لتوقف سلاحهم الرئيسي، وبدأوا في الفرار تجاه وادي الرُمة الواقع غرب كثبان البيطار الرملية مباشرة. ولما رأى أفراد قبيلة عجمان الذين يمثلون القوة الرئيسية لفرسان ابن سعود أفراد المشاة وهم يهربون، بادروا بدورهم الى الهرب من ميدان القتال، ووصل بهم الأمر الى حد انهم أغاروا على المخيم الخاص بجيشهم لحمل ما يستطيعون من الغنائم. وظل شكسبير وحده على تل الجرب.

ويروي الميجور براي الذي كان يخدم في مركز قيادة جيش الهند في ذلك الوقت، وكان مطلعاً على تقارير المخابرات، بقية ما حدث، قائلا: «اندفع شكسبير لوقف حالة الارتباك عن طريق اصلاح المدفع، وظل واقفاً وحده يواجه الهجوم. واقترب منه فرسان ابن الرشيد بينما كان يحاول اصلاح المدفع بسرعة، ولكن رصاصهم انهال عليه قبل ان يتمكن من ذلك، وسقطت جثة شكسبير الى جانب المدفع الصامت».

وكان الرصاص قد أصاب شكسبير في ساقه وذراعه ورأسه، وفي اللحظة الأخيرة ازال غطاء الرأس العربي الذي كان يرتديه في الصحراء، رافضاً هذه الكوفية العربية التي كان كثيرون من الانكليز يحبون ان تلتقط صورهم وهم يرتدونها. وبينما كان يرقد الى جوار المدفع مصاباً بجراح قاتلة تقدم منه أحد عبيد سعود بن سبهان وقطع جسده بالسيف. وكان شكسبير لدى وفاته يبلغ من العمر ست وثلاثين سنة.

وكسب ابن الرشيد معركة حيوية وتم اخماد نيران الثورة في الصحراء. وتوجه ابن سعود عائداً الى الرياض، كما انسحب عبد الله بن حسين من شارا. وقابل كوكس نفسه الزعيم السعودي لانهاء التفاصيل الخاصة بالمعاهدة مع بريطانيا، التي تم التخفيف من شروطها

بنـاء على اصرار وزير الدولة البريطاني لشؤون الهند. وفي النهاية تم التوقيع على تلك المعاهدة في القطيف في نهاية ذلك العام.

بعـد ذلك قابـل الميجور براي واحداً من رجال مشاة ابن سعود في البحـرين، وأنّبـه على التخـلي عن شكسبـير في الحرب، فأجابه الرجل السعودي قائلا: «لقد كنا نحب شكسبير كثيراً، ونحن آسفون على وفاته، ولكن والله لم يكن الخطأ خطأنا (...) ان شكسبير نسي قواعد الصحراء (الهرب والقتال في يوم آخر) ولذلك مات».

وكتب كوكس الى نائب الملك تقريراً قال فيه: «خسرت خدمة صاحب الجلالة البريطانية ضابطاً قديراً وشجاعاً». وعندما تلقت وزارة الخارجية البريطانية نسخة من هذا الخطاب، أضاف أحد الحاضرين قائلا: «انها خسارة كبيرة، بل انها خسارة مزدوجة في هذا الوقت بالذات».

الفصل الخامس

الانكليزي المتعجرف

٥ | جيرارد ليتشمان

في العـام ١٩٠٧ يدخل مسرح اللعبة الكبرى ضابط انكليزي آخر، أكثـر تعصبـاً من الذين سبقـوه للامبراطورية البريطانية ومصالحها، اسمه جيرارد ليتشمان، يحمل سمعة عسكرية جيدة من حرب البوير في جنوب افريقيا ويتمتع بسمعة أهم، هي عدم الانصياع لأوامر رؤسائه. وكان ليتشمان من أوائل دفعته في كلية ساندهيرست الحربية، وخدم في جنوب افريقيا والهند. وفي الهند خالف أوامر اللورد كورزن بمنع السفر الى التيبت، ودخل مكتشفاً مجاهل بلاد الدالاي لاما.

وفي الأول من شباط (فبراير) ١٩٠٧ غادر ليتشمان الهند في طريقه الى انكلترا عن طريق الخليج، واضعاً نصب عينيه هدفاً واحداً هو الدفاع عن الامبراطورية. وزار هرمز وبندر عباس والبحرين وبوشهر في طريقه الى البصرة قبل ان يأخذ طريق البر الى سورية. وفي بوشهر لفتت نظره سفينة المانية جديدة اسمها «كانديا» لشركة هامبورغ ـ اميركا تعرض على العرب والاتراك والفرس السفر على متنها الى القاهرة وجدة ومنها الى الحـج وتقـدم لهم المـرطبات وتعزف لهم النشيد الوطني الألماني. ومن البصرة سافـر ليتشمان الى بغداد حتى وصل حلب. وفي حلب نزل في «فندق العزيزية»، حيث تشاجر مع ضابط الماني شتم بريطانيا. وغادر حلب الى اسـطنبـول التي وصلهـا قبـل غيرترود بل وشخص آخر من مواطنيـه لمع اسمه كثيراً فيما بعد، هو الكابتن وليم شكسبير. وفي ١٨ نيسان (ابريل) ١٩٠٧ وصل ليتشمان الى انكلترا، حيث استدعي بعد عدة أيام الى وزارة الحربية وطلب منه الالتحاق بالمخابرات العسكرية.

عام ١٩٠٨ كان سنة الآمال المعقودة. كذلك كان سنة جمعية «الاتحاد والتـرقي». في هذه السنـة تطلع الملايين في الامبراطورية العثمانية الى

الحرية. وفي هذه السنة أيضاً تحركت القبائل السورية ضد العثمانيين وقبائل شمال النمسا ـ المجر على البوسنة وهرزوغوفيا، وعادت أحلام الوحدة بين كريت واليونان، وأحلام استقلال بلغاريا عن الامبراطورية العثمانية. كانت الامبراطورية العثمانية تتمزق وتحتضر. في هذه السنة ايضاً تأسس أول مكتب صهيوني في فلسطين تحت ستار بنك. كذلك في هذه السنة بدأ العرب يؤسسون الجمعيات السرية المدنية والعسكرية في مختلف مقاطعات الامبراطورية العثمانية سعياً للتخلص من النير العثماني وطلباً للاستقلال.

ولما وصل ليتشمان الى بغداد، أقام لدى المقيم البريطاني، جون غوردن لوريمر، (الذي كتب فيما بعد كتاب «دليل الخليج» التاريخي والجغرافي). وبدلا من أن يطلب ليتشمان الاذن من لوريمر أو كوكس للتجول في المنطقة، حصل على اذن مباشر من مركز المخابرات البريطانية في لندن، متخطياً الاثنين معاً، للقيام بجولته داخل العراق والجزيرة العربية. فقد كانت لندن تريد معرفة ماذا يحصل في المناطق التي يسيطر عليها عبد العزيز آل سعود مباشرة.

وفي أواخر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٩ تنكر ليتشمان بلباس عربي على طريقة أهل العراق، وترك بغداد في رحلة استغرقت اسبوعين الى كل من النجف وكربلاء لاكتشاف مناطق الشيعة، واضعاً على المحك قدرته على البقاء في وسط الشيعة كواحد منهم من دون أن يكتشف أمره. ولما عاد ليتشمان الى بغداد كانت الدلائل قد بدأت تشير الى ان الاتراك بدأوا يراقبونه. ولم يكتف ليتشمان بذلك فقد سار الى حضور المعارك الطاحنة التي كانت تدور وقتها بين قبائل العنزة وشمّر، وكأنه ذاهب الى حضور مهرجان كبير.

وفي بغداد، حيث أقام ليتشمان هذه المرة عند داوود بك الداغستاني ابن والي الموصل، وبعد سهرات صاخبة أقيمت هناك، سار باتجاه حائل عاصمة ابن الرشيد وهو باللباس العربي ومتسلح بقدرة التكلم بالعربية بلهجة أهل نجد، التي احتفظ بها الى آخر حياته. وكانت برفقة ليتشمان قافلة بقيادة الشيخ ماجد ابن عجيل الذي كان قريباً من أمير حائل. وعن طريق درب زبيدة، طريق الحج القديم بين النجف وحائل والمدينة سارت قافلة ليتشمان.

في هذا الوقت كان الكابتن شكسبير في طريقه نحو الجنوب باتجاه الربع الخالي، وكان دوغلاس كاراثرز يتجه نحو وادي السرحان شمال صحراء النفود. بينما كان موزيل يسير مع خط الحجاز الحديدي باتجاه الجنوب. وفي الطريق عبر درب زبيدة، بدأ ليتشمان يسمع أخبار «موسى النمساوي» واكتشافاته ويتعرف على اصدقائه، ولم يكن هذا سوى منافسه في المخابرات الألمانية.

في تلك الظروف كان الكابتن شكسبير قد أصبح المدافع الوحيد عن قضية الأمير السعودي على الرغم من انه كان يحصل على تأييد مستتر من بيرسي كوكس في بوشهر ومن نائب الملك، بينما أصبح ليتشمان يعمل لحساب وزارة الحرب في المنطقة. وكان ليتشمان يعتبر شخصاً مندفعاً وغير مسؤول، يدخل المناطق الممنوعة في قلب شبه الجزيرة العربية دون التزام سياسي، وكان ينفذ المهمة المكلف بها دون أي حساب للعواقب المترتبة على ذلك بالنسبة اليه شخصياً أو بالنسبة للآخرين.

ولما وصل ليتشمان الى المعسكر الملكي لقبيلة شمر في ٤ آذار (مارس) ١٩١٠، كان شكسبير قد اكتشف ان مبارك وابن سعود ـ الذي كان مبارك يطلق عليه لقب ابنه ـ كانا يعدان للإغارة على جيش ابن سعدون. وتولى جابر ابن الشيخ مبارك قيادة القوات الكويتية، أما ابن سعود فقد تولى قيادة الفرسان. وانطلق الركب يوم ١١ آذار (مارس) متجهاً الى السهول الواقعة بين الرحيمية والغريبية غربي منخفض البطين الذي كان يمثل الحدود غير الرسمية بين الكويت ونجد. وبعد يومين قاسى هذا الجيش من هزيمة ماحقة، فقد سحق جيش ابن سعدون المدرب القوة السعودية ـ الكويتية.

وحينما وصل ليتشمان أرض المعركة يوم ٣٠ آذار (مارس) ١٩١٠، أي بعد خمسة أيام من وداعه لابن الرشيد، وجد المنطقة مغطاة بجثث افراد الجيش السعودي ـ الكويتي المشترك. وكانت الطيور الجارحة والضباع قد أكلت معظم أجساد الضحايا، وكانت أرض الصحراء مفروشة بالعظام. وهكذا لم يحقق جيش مبارك أي نجاح يذكر في غزواته داخل شبه الجزيرة العربية.

وفي ٣١ آذار (مارس) ١٩١٠ تلقى ليتشمان رسالة من زامل بن صبحان يطلب فيها البحث عن ابن سعدون الذي حقق قبل ١٨ يوماً

نصراً كبيراً على ابن سعود وجابر بن الصباح. وفي أول نيسان (ابريل) انضم ليتشمان الى قبيلة المنتفق واستطاع كتابة تقرير عن هذه القبيلة القوية. وقال في هذا التقرير عن ابن سعدون انه «رجل لطيف للغاية، وقد شعرت بالراحة معه أكثر من أي شخص آخر». وقال أيضاً ان الشيخ مبارك شيخ الكويت لم يكن يشتهر بأنه رجل جيد. ووصلت في ذلك الوقت انباء تفيد بأن ابن سعود يعد لهجوم آخر على قبيلة المنتفق، وأكد شكسبير أن هناك استعدادات جديدة للحرب في الجهرة. وبينما كان مبارك وابن سعود يستعرضان رجالهم وابلهم أمام أحد الانكليز، كان هناك انكليزي آخر يسير مع جيش ابن سعدون ووصفه بأنه جيش «منضبط ويتسم بارتفاع الروح المعنوية ويقوده ابن سعدون بنفسه». وفي النهاية قرر ابن سعود وشيخ الكويت ان من الافضل عدم القيام بهجوم آخر في تلك المرحلة. وكان شكسبير قد حذرهما بصورة مشددة من استئناف القتال، وهكذا تم صرف المقاتلين البدو من الجهرة وعاد ابن سعود وأسرته الى الرياض.

وودع ليتشمان ابن سعدون بأسف شديد، وكتب عنه «هذا الرجل العجوز الممتاز. أنه واع لآخر التطورات ومجامل، وهو ثري للغاية وجندي ممتاز ويكره الأتراك من كل قلبه وقد هزمهم في أكثر من معركة». ولكن الأتراك دبروا مؤامرة ضد زعيم قبيلة المنتفق وتولى ابنه عجيمي زعامة القبيلة بدلا منه. وأصبح عجيمي عدواً لدوداً للسيد طالب النقيب كما تحالف مع جمعية «تركيا الفتاة» في العراق. وعاد ليتشمان الى بغداد يوم ٢١ نيسان (ابريل) ١٩١٠ متنكراً كما هي عادته ومعتزاً بنفسه كمواطن انكليزي، ومن هناك أرسل تقريره الى لندن عن طريق الملحق العسكري البريطاني في القسطنطينية.

وبينما كان ليتشمان وشكسبير يعالجان الشؤون المتشابكة لابن الرشيد وابن سعود ومبارك وابن سعدون في شباط (فبراير)، حل دوغلاس كاراثرز ضيفاً في معان على مايسنر باشا. وكان السبب الرسمي لذهابه الى هناك هو اصطياد المها الأبيض، وقد وجد لدى مايسنر اثنتين من المها في حديقته في مقر حامية خط الحجاز للسكك الحديدية الذي كان يقيم فيه بصورة مؤقتة. وتمتع كاراثرز بكرم ضيافة مايسنر هناك، ثم توجه مع رجال قبيلة بني صخر خلال وادي سرحان الى صحراء النفود بالقرب من

المنـطقة التي كان يعمل فيها ليتشمان، وكان هدفه المعلن من ذلك هو البحث عن فصائل المها التي اختفت تقريباً من شبه الجزيرة العربية.

* * *

في هذه الاثنـاء كان شكسبـير قد عاد الى الكويت في كانون الثاني (ينـاير) ١٩١٢ بعد ان زار لندن ونيودلهي لحضور حفل تتويج الملك جورج الخامس امبراطوراً على الهند. وعند وصوله الى الكويت أخبره الشيـخ مبـارك ان انكليزياً يدعى ليتشمان قد جاءه مع مجموعة من العربان وأنه أعاده من حيث أتى.

كان ليتشمان قد جاء الى الكويت في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١١ (أي قبل حوالي ثلاثة أشهر من عودة شكسبير) عن طريق البصرة، حيث أقام عند السيد طالب النقيب الذي كان يحاول إقناع السلطات التركية بعـزل والي البصرة وتعيينـه مكـانه. كذلك وعد السيد طالب ليتشمان بايصاله الى ابن سعود، شرط ان يبقي هذا الأمر مكتوماً بينهما. وكان هدف السيـد طالب النقيب، وخـاصة بعد موت غريمه العراقي الآخر سعـدون باشـا في السجـون التركية، ان يوصل انكليزيا آخر منافساً لشكسبير الى الرياض، ليعرض وجهة نظر مغايرة بحيث يضمن النقيب بأن يكون له دور عند ابن سعود اذا اتفق مع بريطانيا أو لم يتفق، أو أيد الاتـراك أو لم يؤيـدهم. فقـد كانت خطوط طالب النقيب مفتـوحة مع الجـانبـين. لكن مشروع ليتشمـان بالوصول الى ابن سعود، تعطل في الكويت حين أعاده الشيخ مبارك من دون ان يعرف حقيقة مراميه.

وفي ٢٦ تشرين الأول (اكتـوبـر) ١٩١٢ تسلم المقيم البريطاني في بوشهر طلباً من ليتشمان للسماح له بالسفر في وسط الجزيرة العربية. وكان ليتشمان قد تقدم بطلب مماثل الى وزارة الهند قبل ذلك بشهرين وهو الطلب الذي كان قد رفض من قبل. وكان الكابتن شكسبير، منافس ليتشمان، معارضاً بشكل حاد للسماح له بالسفر.

كان ليتشمان في انكلترا حينما كان الموظفون البريطانيون في الخليج يناقشون طلب السفر المقدم منه بعد وصوله من الهند في أول نيسـان (ابريل) ١٩١٢. وقد كتب في مفكرته الشخصية يقول: «تأييد قوي من

جانب السلطات العسكرية لرحلتي المنتظرة».
وكان ليتشمان قد غادر لندن في طريقه الى بيروت يوم ١٧ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٢، أي قبل تسعة أيام من وصول طلبه الى بوشهر. ولم يكن ليتشمان يضيع أي وقت هباء. فبعد ثمانية أيام من مغادرته انكلترا وصل الى دمشق، ليواجه هجوماً منسقاً ضد وجوده من قبل الجنود والضباط الالمان والنمساويين الذين تزخر بهم الشوارع والفنادق. وكان يتحدث عن اولئك الذين سيتركون الجزيرة العربية الى الحكم التركي السيء أو الى طموح المانيا، باعتبارهم «خونة».

وكتب يقول في مذكراته ان العملاء الالمان والنمساويين يحاولون باستماتة من أجل انضواء حكام الجزيرة العربية تحت اللواء التركي. وفي ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٢ كتب رسالة الى والده يخبره فيها بأنه سيسافر في اليوم التالي، لكنه لم يشر الى المكان الذي يتوجه اليه، واكتفى بالقول انه يكون في غضون ثلاثة أسابيع تقريباً إما في البصرة أو الكويت. ثم سار نحو دمر ومنها اتجه الى الطريق الذي يمرّ وسط الجزيرة العربية تحت أمطار غزيرة، وكان جمله يخوض وينزلق في الرمال الموحلة، عبر طريق السفر الطويل من دمشق الى بغداد.

وسافر ليتشمان مع محمد البسام ورفيق عربي غامض قدّم اليه باسم صالح انضم إليه في «الفندق الوطني» في دمشق. وقال في رسالة بعث بها الى منزله انه عرف هذا الرجل بشكل جيد وانه وصل لتوه من بغداد وانه يوافق على التوجه معي اينما شئت.

ويقول ليتشمان في مذكراته: «في الليلة الثامنة والعشرين بعد مغادرة دمشق، وصلنا مشارف القصيبة عند حلول الظلام، وهي بلدة تقع على الحدود بين منطقة ابن الرشيد أمير شمر، ومنطقة آل قاسم». وهكذا وصل الى منطقة ابن سعود على بعد نحو ٨٠٠ ميل من نقطة البداية بحلول الأول من كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٢. وقد سلك طريقاً سلكها موزيل قبل عام واحد فقط. والتقى في طريقه بعدد من ادلاء موزيل وبعض رجالات الصحراء. وكان ليتشمان فارساً ممتازاً، كما كان يجيد ركوب الجمال.

وعندما كان يتجول في منطقة آل قاسم متجهاً نحو البلدان المجاورة مثل بُريدة وعنزة، كان الاتراك ما زالوا يطالبون بالمنطقة. وعندما وصل

الى عيون على طريق بريدة قدم الى زعيم المنطقة وهو شقيق الشخص المرافق له، الذي همس في اذن شقيقه قائلا انه انكليزي. فما كان من ليتشمان الا ان تلقى اوامر صارمة تقول انه يجب أن ينتحل صفة انه «مصلاوي» ـ أي من أهل الموصل في العراق. وفي نهاية المطاف سلك ليتشمان الطريق التي سلكها سابقوه المشهورون عبر بريدة وعنزة وهما بلدان كبيران في منطقة آل قاسم. ومر من البوابات التي مر منها الرحالة المعروفون، بالغريف ووالين وهوبر ودوتي. وقد شهد مثلما شهد الآخرون النزعات التجارية الحادة لدى أهالي المنطقة وطبيعتهم التي تتسم بالعناد والتعصب.

ولم يسجل ليتشمان تاريخ وصوله وان كان ذلك قد عرف من مصدر آخر. فقد قال الشيخ مبارك، شيخ الكويت، لشكسبير يوم عيد الميلاد: «ان شخصاً أوروبياً قد وصل الى بريدة بصحبة خادم ومترجم وانهما مكثا هناك نحو عشرين يوماً». واذا كان الأمر كذلك فان ليتشمان يكون قد قطع آنذاك نحو ٩٠٠ ميل في أكثر الطرق الصحراوية صعوبة وخطورة في العالم كله، في مدة قصيرة وبشكل لا يصدق وفي فترة لا تزيد عن شهر واحد. أي بمعدل ٣٠ ميلا في اليوم، فوق الصخور والكثبان الرملية والنتوءات الصخرية القاسية.

وفي ٢٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٢ ابلغ الشيخ مبارك أن ابن سعود قد بعث بالفرسان لاحضار هذا المسافر اليه. وقد سلك ليتشمان الطريق نحو جبل طويق، وبعد ذلك سلك الطريق الذي يسمى طريق الشقرا التي لم يسلكها قبله سوى الكابتن سادلير وذلك عام ١٨١٩ عندما خرج بحثا عن ابراهيم باشا المصري. وقد وصل ليتشمان الى الرياض برفقة الحرس مع نهاية العام وبداية العام التالي.

وكتب ليتشمان يقول: «بمجرد وصولنا انتقلنا الى قاعة في الطابق العلوي تطل على السوق والمدينة ككل، حيث كان في استقبالنا الأمير الوهابي عبد العزيز بنفسه، وهو رجل عمره نحو أربعين عاماً، وطوله ستة أقدام، ربع الجسم، عريض المنكبين، وان كان ذا وجه رقيق ويتمتع بأكثر السمات تواضعاً وبساطة. وقد صافحني الأمير عبد العزيز، وأثار ارتياحي على الفور باستقباله الودي وبحديث طويل تركز على انباء العالم الخارجي وخاصة حرب الترك والبلقان».

وكان هذا هو كل ما سجله ليتشمان عن حديثه مع ابن سعود، وقد انصت كما كان ينصت جميع الزوار الى قصة الامجاد القديمة في تاريخ آل سعود. وكان ليتشمان يُعامَل معاملة تتسم بالود واللطف البالغين سواء من جانب ابن سعود أو من جانب والده الأمام عبد الرحمن. لكن الأمير عبد العزيز كان يشك في اهدافه.

والتقى ليتشمان ـ يوماً ما ـ في السوق بأحمد ابن ثنيان، وهو سليل أسرة من نبلاء نجد، وأمه شركسية، وتلقى تعليمه في القسطنطينية. وقد تبادلا معاً حديثاً مطولاً حول الطبيعة الجغرافية للجزيرة العربية، لكنهما لم يناقشا قضايا ذات مضمون سياسي. ولم يوافق ابن سعود على رغبة الرجل الانكليزي في السفر جنوبا عن طريق جبرين. وهكذا توجه ليتشمان نحو ساحل الأحساء عبر المناطق المحيطة بالرياض والحزام الرملي المحيط بالدهناء. وبعد ثمانية أيام من مغادرة الرياض دخل ليتشمان «الهفوف» وهي بلدة تضم ٣٠,٠٠٠ نسمة عدد كبير منهم من الوهابيين، حيث استقبل بحفاوة بالغة من جانب الضباط الاتراك. وبعد ذلك توجه الى عجير ثم عبر الخليج الى البحرين حيث كان يقيم صديقه ماكفيرسن، وقال ليتشمان وهو يدخل منزل صديقه متهالكاً: «الديك شيئاً آكله؟». وقال مضيفه انه «كان يشبه جثة شاحبة وبدوياً قذراً».

وكان من المفترض ان تكون هذه الرحلة «أول رحلة ذات أهمية جغرافية». وقد رسم خريطة لجزء صغير من طريق القاسم بكل دقة، كما حدد بشكل سليم موقع بلدة حازل في شمال الجزيرة العربية. لكن أهمية وصوله السريع الملفت للنظر الى الرياض رغم قيود الحظر الصارمة التي فرضها السير ادوارد غراي وزير الخارجية البريطانية على السفر في وسط الجزيرة العربية، تعني بكل تأكيد ان الرحلة لم تكن جغرافية بحتة.

وعلى مدى عدة سنوات احتفظ ليتشمان مع امراء الصحراء بعلاقات يمتزج فيها الحب والكراهية، لكونه عزوفاً عن الرضوخ اذا وجد انهم يعاملونه بطريقة غير مناسبة. اما شكسبير فكان حريصاً ـ حتى في اطار علاقته الوثيقة مع ابن سعود ـ على التعامل بشكل رسمي وسياسي.

وهكذا كانت رحلته في ربيع ١٩١٢ مثيرة للدهشة في ظاهرها. وهناك أسباب عديدة تفسر الدواعي وراء رغبة المعتمد السياسي في التحدث مع

ابن سعود في ذلك الوقت. كما ان هناك سبباً قوياً يفسر لماذا لم يكن من المفروض ان يفعل ذلك.

* * *

وعلى أية حال، فقد ظل ليتشمان أشهر وألمع شخص بين رجال الاستخبارات الذين وصلوا الى البصرة. لقد وصل جيرالد ليتشمان في آذار (مارس) عام ١٩١٥ ومعه تعليمات من وزارة الحرب الى دلهي ليقوم بعمليات خفية بين القبائل، عاملا مباشرة تحت إمرة سير بيرسي كوكس رئيس المسؤولين السياسيين. كان يقوم بعملياته بمفرده، وتتركز على التقليل من شأن عمل العميل الالماني الداهية بروسر، الذي كان قد أثار القلاقل على طول نهر الفرات. لقد دخل ليتشمان في معركة مريرة مع الرجل الالماني على مدى السنوات الثلاث التالية، حاول كل منهما خلالها احباط خطط الآخر، وآملاً ايقاعه في كمين، وقتله يوماً ما. واضطر في النهاية الى انهاء هذه المعركة بروح من الاحترام المتبادل. وعلى كل حال لم يكن يشغل بال ليتشمان هو وزملاؤه الا فكرة واحدة، هي مصير الجيش البريطاني المحاصر في كوت العمارة.

في آذار (مارس) ١٩١٧ استدعي جيرالد ليتشمان من العراق لكي يكون مندوباً للسير بيرسي كوكس في القاهرة والحجاز، انتظاراً للزيارة التي ستقوم بها للشريف لجنة بريطانية ـ فرنسية مشتركة، برئاسة مارك سايكس وجورج بيكو «لتقديم المشورة بشأن علاقات الحلفاء بالعرب واليهود». وكان اختيار ليتشمان لهذه المهمة يدل على ذكاء كبير، لأن الجنود البريطانيين في العراق كانوا يعرفونه باسم «القائد صحراء» ولأنه عاش مع القبائل العربية لمدة سبع سنوات تقريباً، وعاش في معسكر واحد مع ابن الرشيد، وزار ابن سعود في الرياض، ولم يكن هناك من يفوقه من بين رجال «المكتب العربي».

وقضى ليتشمان ليلته الأولى في «فندق شبرد» بالقاهرة. وكتب يوم ٢٤ نيسان (ابريل) ١٩١٧ في مذكراته: «لا أستطيع فهم الكثير من العربية التي يتحدثونها هنا». وفي اليوم التالي توجه الى البحر الأحمر لمقابلة «الزعماء العظام» للثورة العربية. وكان ليتشمان يشعر ببعض المرض،

ولكنـه تحسن قليلا في أثناء الرحلة البحرية الى رابغ، ومن رابغ توجه ليتشمان الى وجه، حيث كان الأمير فيصل بن الحسين ينام ملء جفونه، والى جواره لورانس، قبـل الرحلة الى العقبة مع قبائل الحويطات التي يتزعمها عودة أبو تاية.

وفي يوم ٣ ايـار (مـايو) ١٩١٧ اجتمع ليتشمان مع الأمير العربي ومستشاره الانكليزي، وحضر براي هذا اللقاء الذي تم في خيمة فيصل، وكتب عنه قائلا: «دخل لورانس في عباءة بيضاء فضفاضة، وكان يتصرف بخضـوع تجـاه فيصل، بينما كان ليتشمان يرتدي الملابس الخاكية، ويتصرف بالكرامة التقليدية للرجل الانكليزي. وكان ليتشمان قادراً على ارتداء الملابس العربية والتصرف كعربي اذا دعت الضرورة الى ذلك، ولكنـه كان يتصرف في أحيـان أخـرى كضابط انكليزي فخور بديانته المسيحية، ويخدم بلاده في الصحراء في الأماكن التي قدرها له الله».

وكـان براي يميـل الى المبـالغـة في تقـدير فضائل «بطله المفضل» ليتشمان، والى نسيان عيوبه. ولكن ليس من الصعب ان يتصور المرء مدى احتقار ليتشمان لمضيفه الأمير العربي وللانكليزي الضئيل الراكع تحت قدميه. ولم يكن ليتشمان مؤيداً للقضية العربية، ولم يعجبه رداء لورانس العـربي أو اسلوبـه المـدعي، كما كان يكره الحجاز. ووصف لورانس بأنه كان يمثل «أسوأ صورة للعرب، وأسوأ من أسوأ النماذج التي قابلتهـا في العراق». وكان ليتشمان قد قابل السلطان المصري في القـاهـرة قبـل توجهه الى وجه، كما انه تناول طعام العشاء هناك مع وينغيت، الذي وصفه بأن «شخصيته ساحرة»، على الرغم من ان العشاء لم يتضمن أي نبيـذ، لأن وينغيت لم يكن يشرب سوى الشاي. وقابل ليتشمان ايضا بيكو وسايكس، ودخل معهما في مناقشة طويلة ومرهقة عن الشـؤون العربية. ووصف ليتشمان القادة والضباط الذين قابلهم في القـاهرة قائلا: «هذا عالم جديد وبعيد تماماً عن العسكريين. انني لم أقابل ضابطاً واحداً من معارفي. ويحمل كل ضابط هناك عشرة أوسمة وميداليات، لا يتصل أيها بالحرب.. وليست هناك اي صعوبة بالطبع في خوض الحرب من فندق شبرد».

وكان ليتشمان قد استمتع قبل عدة شهور بالرفاهية التي يشتهر بها «فنـدق شبرد»، كما ان الاستخبارات العسكرية البريطانية حققت في

نشــاط حاجبــه الرئيسي مورر، بعــد اكتشــاف اوراق تدينه مع بعض اليــونــانيــين الذين تم ترحيلهم من مصر. وتم اعتقــال مورر. وكشفت التحقيقات أيضاً عن ان مدير «فندق ناسيونال» في القاهرة كان يعمل سائقاً في الجيش الألماني من قبل، وأنه كان ينقل بعض الاسرار الى العدو. وتم اعتقال خمسة أفراد آخرين في الفندقين. ولاحظت محطة برن بعد هذه الاعتقالات ان الخديوي السابق، الذي كان يعيش في سويسرا بعد ان نفتــه بريـطانيا مع بعض الأتراك من حاشيته الى هناك، قد أرسل مبعوثاً خاصاً الى مكة لمقابلة الشريف حسين. وحدث ذلك في وقت المهمة الأولى التي قام خلالها ستورز أيضاً بمقابلة الشريف. وكان ستورز يتجه الآن الى بغداد بعد ان عقد «اجتماعات مرضية» مع سايكس وبيكو في القــاهــرة. وكتب ستــورز قائلا ان سايكس كان سعيداً بخطة القاهرة الأخيرة «لفتح وسط شبه الجزيرة العربية»، كما انه زار الشريف في جدة.

***

وفي تشرين الأول (اكتــوبــر) ١٩١٨ كان الجنــرال مارشــال رئيس الاركان البريطاني في العراق يمضي عطلة في بريطانيا حين اخطرته وزارة الحرب ان انشقاق بلغاريا وانتصارات اللنبي تشير الى ترجيح احتمال ان تسعى تركيا للسلام.

وأسرع مارشــال بالعودة الى بغداد ليعمل على ان يتم احتلال أكبر مســاحة ممكنة من الأراضي قبل الهدنة. وضاعت كثير من الأرواح في حراســة الأراضي التي تم احتــلالها وفي تحويلها الى ممالك دستورية معارضة. وفي حزيران (يونيو) ١٩٢٠ وقعت موجة مفاجئة من عمليات القتل في تل عفر اعقبت زيارات قام بها عملاء الوحدة الاسلامية. وقادت هذه العمليات الى حركة عصيان عام ـ وفي ١٣ آب (اغسطس) من نفس العام ابرقت بغداد الى وزارة الهند تقول «علم ان الليفتنانت كولونيل ليتشمان قد وقع في كمين وقتل يوم ١٢ آب (اغسطس) قرب الفلّوجة». وكان ليتشمان قد قضى معظم فترة الحرب بمصران أعور ملتهب يصيبه بنوبات حادة من الألم، وفي عام ١٩١٩ عاد الى انكلترا لاستئصاله ثم عاد الى العراق بمعنويات مرتفعة. غير انه كان قد خلق لنفسه اعداء بين

العـرب الى جانب من كسب من أصدقاء. وفي آب (اغسطس) ١٩٢٠ استدعي الى الفلّوجة حيث أطلق عليه النار من الخلف خميس ابن الشيخ ضاري بن محمود رئيس قبيلة الزعبة.

وقـد اختفى المعتـدون، غير انه بعد سبع سنوات، وفي عام ١٩٢٧ بالتحديد، القي القبض على الشيخ ضاري. وفي اليوم التالي لمحاكمته على قتـل ليتشمان بمقتضى القانون التركي الذي لم يتغير، عثر على الرجل العجوز ميتاً في زنزانته ضحية نوبة قلبية كما قيل. وفي نفس الوقت جرت عمليات انتقام رهيبة بين قبائل الفرات.

الفصل السادس

الصهيوني الطموح

٦ هارون هارونسون

عندما اغلقت وزارة الخارجية البريطانية في شباط (فبراير) ١٩٠٤ الباب أمام خطط الادارة البريطانية في الهند بشأن وسط شبه الجزيرة العربية، قام يهودي شاب يتمتع بمواهب فائقة بأول رحلة كبيرة له الى الصحراء السورية، وكان اسمه هارون هارونسون. وكان هارونسون متين البنية، شعره أشقر مجعد، وعيناه زرقاوان، ويتمتع بارادة حديدية.

وكان هارونسون مختلفا عن معظم اليهود. فقد كان منفتحاً على العالم ويتسم بالشجاعة وقوة العقل والجسد، كما كان مطلعاً على موضوعات كثيرة لم تكن لها صلة بالدين. ولما بلغ الثلاثين من عمره أصبح واحداً من أشهر خبراء العالم في الزراعة وفلاحة الأرض.

وكانت له احلام عريضة بالنسبة لفلسطين أو «أرض اسرائيل» ـ كما كان يسميها ـ والتي كان يعتقد انه يستطيع بخبرته وباستغلال الإمكانات المشتركة للعرب واليهود في تنمية الزراعة فيها، ان يجعلها جنة أو على الأقل أرضا للوفرة والرخاء. وكان هارونسون من اوائل الذين دعوا الى استخدام العمال العرب في المزارع، وهي دعوة كان كثيرون من جيرانه يعارضونها بشدة.

وكان هارونسون قد وصل الى فلسطين عام ١٨٨٢ قادماً من بلدة فالتيشيني الرومانية التي ولد فيها، وكان عمره عند وصوله الى فلسطين ست سنوات. وكان والده افرائيم فيشيل مزارعاً مجداً وناجحاً، أما والدته ملكة فكانت ربة بيت مخلصة. وأقامت الاسرة منزلا لها في مستعمرة زخرون ياكوف اليهودية بالقرب من جبل الكرمل، وأصبح والدا هارون رائدين مرموقين في مجال المستوطنات الزراعية التي نشأت فكرتها على يد البارون ادمون دي روتشيلد، الذي كان يعتبر الاب الروحي ليهود

العـالم. ودرس هارون الزراعـة في معهد غرينيون الفرنسي بمنحة من البارون دي روتشيلد، ثم عمل بعد ذلك مدرباً في احدى الضياع التي كان يملكها البارون في جبل الدروز في سورية. واكتشف هارون بعد وقت قصير هناك ان شيوخ الدروز الذين باعوا تلك الاراضي لأسرة روتشيلد قد خدعوا البارون. فقد كانت الارض غير صالحة للزراعة، بل ليست لها فائدة على الاطلاق. وعندما اخطر هارون البارون برأيه، رد عليه روتشيلد قائلا، إنه أرسله الى هناك للعمل في مجال الزراعة وليس لاثارة الشكوك في مدى سلامة القرارات التي يتخذها مستخدمه.

وتـوجـه هارونسـون بعـد ذلك الى الانـاضول، حيث كلفه الاتراك بالاشراف على أعمال الابحاث الزراعية في ضيعة كبيرة ومزدهرة كانت تعرف باسم «الشيطان»، وذلك بعد ان ترامت اليهم انباء سمعته العلمية في فلسـطين. وكانت علاقات هارون بالاتراك طيبة. فقد أقام عدداً من الاتصالات المفيدة معهم. ولكن عمله هناك لم يستمر فترة طويلة. وقد تصـادق هارون أثناء وجوده هناك مع مهندس يدعى جوزيف ترايدل ومهندس زراعي آخر من روسيا يدعى الدكتور سيليغ سوسكين.

وساهم كل من الثلاثة بمبلغ ضئيل من المال في انشاء مكتب للمسح الفني والزراعي. وربما كانت هذه الفكرة ناشئة عن الخديعة التي تعرض لها البارون روتشيلد في شراء الارض من الدروز. وأدى العمل الجديد الى عودة هارون الى اسرته مرة اخرى. وبدأ يعمل مع زميليه في مجال اختبار الصحـراء الفلسـطينية ومسحها بحثاً عن النباتات والثروات المعدنية والمـاء، وكـانـوا يحللون النتائج عند عودتهم الى زخرون ياكوف. وكان هارونسون يمتطي باستمرار صهوة فرسه التي كان يطلق عليها اسم «فهرة». ولم يركب جملا قط . وكان ينام في معظم الاحيان في العراء ملتفاً بعباءته العربية. واجتذب المكتب زبائن مهمين من المانيا واميركا وفرنسا وبـريـطانيـا، ولم يكن اهتمام كل هؤلاء الزبائن مقتصرا على الزراعة وحسب. ففي عام ١٩٠٤ استقبـل هارونسـون على سبيل المثال بعثة علمية المانية في ميناء حيفا.

وفي عام ١٩٠٤، وهي السنة التي توفي فيها هيرتزل ايضا، ظل الوطن القومي اليهودي الذي كان هـيرتزل النمساوي يكافح من أجله مجرد حلم بعيد المنال. وكان هيرتزل قد أجرى قبل عامين من وفاته مباحثات في لندن

مع جوزيف تشمبرلين وزير المستعمرات البريطاني بشأن وطن قومي بديل لليهود. وتم ذكر اسم سيناء التي كانت مجرد صحراء جرداء كمكان لهذا الوطن، ولكن اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر، لم يوافق اطلاقاً على الفكرة. وتناولت المباحثات أيضا أسم قبرص وأيضاً العراق الذي كان في ذلك الوقت جزءاً من الامبراطورية العثمانية. ومع ذلك كان معظم اليهود الصهاينة يعارضون بشدة فكرة الوطن القومي البديل. وكانوا يقولون ان فلسطين هي ارض الميعاد وليست هناك أرض أخرى يمكن ان تقوم مقامها.

ولم يكن هارون الشاب يلقي اهتماماً كبيراً الى هذه الاعتبارات اثناء قيامه بالرحلة الاولى من رحلاته المتعددة في تلك الصحراء وشرق الاردن وسيناء الجرداء والخالية من أية موارد مائية.

ولم يكن لدى هارون وقت كبير للتفكير في وطن قومي جديد أو في حنين اليهود الى الماضي وشكواهم المستمرة من المظالم التي يتعرضون لها. وكان يعتبر ان هناك فرصة وحيدة سانحة في فلسطين يجب ان ينتهزها رجال يتمتعون بالنظرة البعيدة والارادة القوية والمثابرة.

وكان الكل يذكر في ذلك الوقت المحاولة الفاشلة التي قام بها قيصر المانيا للتدخل من أجل صالح الصهاينة عندما زار القسطنطينية عام ١٨٩٨. وكانت ذكرى رسالة السلطان عبد الحميد قبل عامين من ذلك التاريخ ماثلة في الأذهان أيضاً. وكان هيرتزل قد زار السلطان العثماني في حزيران (يونيو) ١٨٩٦ وعرض «تسوية الشؤون المالية لتركيا بأكملها» في مقابل حصول اليهود على وطن قومي في فلسطين. ولكن السلطان عبد الحميد قال لفيليب ميشيل دي نيولينسكي صديق هيرتزل:

«اذا كان المستر هيرتزل صديقاً لك بدرجة صداقتي معك، فان عليك ان تنصحه باتباع طريق آخر نحو هذا الموضوع. انني لا استطيع بيع قدم واحد من الأرض لأن هذه الأرض ليست ملكا لي، وإنما ملك لشعبي. ان شعبي حقق هذه الامبراطورية عن طريق الكفاح من أجلها بالدماء، كما انهم خضّبوها بدمائهم. اننا سنغطي هذه الأرض بالدماء مرة اخرى قبل ان نسمح بانتزاعها منا (...) ان الامبراطورية التركية ليست ملكاً لي وانما ملك للشعب (...) دع اليهود يوفرون بلايينهم. وربما يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل عندما يتم تقسيم امبراطوريتي، ولكن

الشيء الوحيد الذي سيتعرض للتقسيم هو جثتنا. انني لن أوافق على عملية بتر».

وقـام هارونسون برحلة الى شرق الاردن مرورا بالبحر الميت، وكان يصحبه العالمان الالمانيان بلاكنهورن وبنتسينغر، وقطع الثلاثة الجزء الأول من الرحلة بالقـطار. ودوّن هـارونسون مذكراته عن هذه الرحلة بتفصيـل بالغ باللغـة الفـرنسية. وفي ٤ شباط (فبراير) ١٩٠٤ التقى الثلاثة مع دليليهم العربيين، سالم ومحمد راشد، عند رأس مرسيد على السـاحـل الغـربي للبحر الميت. وبعد ذلك داروا حول البحر الميت في طريقهم الى بلدة الكـرك الحصينة التي تقع على خط واحد تقريباً مع سدوم وعمورة. وكان بلاكنهورن وبنتسينغر يدونان ملاحظاتهما بدقة عن وجود الفوسفات والبيتومين والاسفلت في المنطقة، بينما كان هارونسون يركـز على وجـود الميـاه والنبـاتـات، وهما العاملان الحيويان بالنسبة للمسـافرين وللجيوش. وأدت هذه الرحلة التي استغرقت ١٢ يوما الى اكتشاف ثلاثة مصادر للمياه لم تكن معروفة من قبل.

ولم تكن هذه الرحلة طويلة أو صعبة بدرجة كبيرة ، ولكنها كانت ذات فائدة كبيرة للفريق الالماني الذي التقط صوراً للقوات في الكرك وهي تسير بالطريقـة الاستعـراضيـة الألمـانيـة، بينما كان الجنود يرتدون أزياء عسكرية جديدة لونها بين الخاكي والأخضر. ولم يكن هناك فارق كبير في الشكل بين هؤلاء الجنود والجنود الألمان. وعثرت البعثة أيضاً على مناجم للفوسفات، كما اقتربت من الخط الحديدي الحجازي. ودوّن افراد البعثة ملاحظاتهم عن الحياة النباتية في المنطقة كما التقطوا صوراً لها، وأخذت هذه الصور والملاحظات طريقها فيما بعد الى الصحف والمجلات العلمية في شتى انحاء العالم.

في ٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٥ انطلق هارونسون مرة اخرى بمحاذاة الخط الحديدي الحجازي وكان يصحبه بلاكنهورن. واستقل الاثنـان القطار الى درعا التي يلتقي فيها خط الحجاز مع وصلة حيفا للسكك الحديدية التي يملكها الفرنسيون. وقضى الاثنان المساء الأول من رحلتهما مع ميغليفتس رئيس حركة السكك الحديدية ، الذي كان يستضيف الهر مايسنر (باشا) ومعه فتاتان. وعندما وصل هارونسون وبـلاكنهورن كان مايسنر يلعب «التنس». وبعد العشاء لعب الجميع

الدومينو، ولكن هارونسون استأذن بالتوجه الى غرفته لكتابة بعض الرسائل، ولا بد انه كان يدون مذكراته أيضاً في ذلك المساء. واستخدم هارونسون في رحلته دليلا عربيا شاباً يدعى تومان الحاجي، وانطلق في اليوم التالي الى معان عن طريق حوران. وفي معان قابل هارونسون وبلاكنهورن شخصاً فرنسياً من معارفهما يعمل في الاستخبارات الفرنسية ويدعى ديلور. وانطلق الركب بعد ذلك الى البتراء، ثم عادا الى درعا التي كان مايسنر باشا لا يزال موجوداً بها. وكان دفتر مذكرات هارونسون يمتلىء بسرعة بأسماء النباتات النادرة ومواقع آبار المياه والحاميات التركية والممثلين المتعددين للدول الاوروبية.

وفي ٨ ايار (مايو) ١٩٠٦ انطلق هارونسون مرة اخرى من «فندق غروسمان» في طبرية في رحلة قصيرة ولكنها مفيدة للغاية الى مرتفعات الجولان في الجليل. وكانت هذه الرحلة اساسا لاكتشاف النباتات في المنطقة، برغم ان هارونسون زار خلالها العالم الصهيوني المسيحي الدكتور تورانس للحصول على معلومات تتصل بالطقس من أجل زميله ترايدل. وكان هارونسون يعلم منذ عام ١٩٠٢، عندما عمل في مزرعة البارون روتشيلد، مدى اهتمام علماء الزراعة بأسباب انخفاض مستوى انتاج الغلال في العالم. وكان هذا المحصول القيّم الذي زرعه الانسان منذ بدء الحضارة قد تعرض للضعف في الآونة الاخيرة بسبب ندرة عمليات التهجين وانتشار الآفات والأوبئة في المحاصيل. ولم يكن أي انسان قد عثر من قبل على نبات القمح البري الأصلي الذي استخدمه الانسان في زراعة المحصول الأول في العالم. وفي ١٠ أيار (مايو) وصل هارونسون الى مزاريب في اتجاه خط حيفا للسكك الحديدية، ثم عاد الى طبرية بالقطار. وهناك انضم اليه عالم زراعي آخر هو الدكتور بيرمان. واتجه الاثنان شمالاً نحو صفد، ثم افترقا على الطريق لكي يجمع كل منهما عينات نباتية مختلفة.

وتوجه هارونسون الى قرية روشبينة. وأثناء تجواله هناك بين الحقول على سفح جبل الشيخ، عثر على أعظم اكتشاف في حياته. فقد كان هناك فرع من نبات القمح البري «تريتيكوم» يتمايل مع الهواء. وخلال عام واحد أدى هذا الاكتشاف الى جعل هارونسون الشاب مشهوراً في العالم بأكمله، وكانت المجلات والجمعيات العلمية الغربية تتسابق في طلب

المقالات والمحاضرات منه.

وعاد هارونسون الى زيارة منطقة صفد عدة مرات، حيث وجد هناك عينات اخرى من نبات القمح البري. وفي آذار ونيسان (مارس/ابريل) ١٩٠٨ قام بأكبر رحلاته الى المناطق الصحراوية. وهكذا انطلق بصحبة بلاكنهورن مرة أخرى من الصفا على الحافة الجنوبية للبحر الميت، عبر الوديان الجافة في البتراء العربية حتى وصل الى أرض قبيلة عطية في فينان. وعاد الاثنان بعد ذلك الى الصفا حيث كانت بعض وحدات الجيش التركي تقوم باستعراض، والتقط الاثنان صوراً لجنود الامبراطورية العثمانية في الأيام الأخيرة من حكم السلطان عبد الحميد. وخلال شهرين فقط من ذلك التاريخ انضمت هذه الوحدات الى وحدات اخرى في باقي أنحاء الامبراطورية العثمانية في موجة من التمرد، كما كان مندوبو بريطانيا وروسيا قد اجتمعوا بهدف التخطيط للتخلص من «الرجل المريض» في اوروبا. وكتب بلاكنهورن في ذلك الحين على شعار الامبراطورية الالمانية: «لم يعد الشرق والغرب منفصلين عن بعضهما». وربما كان يعني بذلك أنه يدرك مدى نجاح سياسة القيصر الالماني.

وفي المنطقة نفسها التقى هارونسون وبلاكنهورن بأفراد قبيلة عربية مميزة يرتدون أثواباً طويلة. وكان افراد قبيلة الحويطات يعيشون في المنطقة الصحراوية بين سيناء ووادي سرحان، وكان زعيمهم الشيخ عودة أبو تاية الذي كان يشتهر بشدة بأسه. وعاد الاثنان بمحاذاة ساحل البحر الميت الى الزرقاء والحمام، والتقط هناك المزيد من الصور للمعسكرات التركية وللسكان المحليين وهم يحتجون على الخدمة العسكرية التي كانت إجبارية بالنسبة للعرب والمواطنين الآخرين في الدولة العثمانية. وذهب الاثنان بعد ذلك الى اريحا حيث كان ينتظرهما العالم الالماني فاتسينغر، ثم اتجها الى تل نمرين وجرية وتل دير الله حيث شاهدا فتاة بدوية تدخن غليوناً طويلاً. ووجد البروفيسور بلاكنهورن المزيد من الاسفلت في المنطقة. وهكذا كانت هذه الرحلة شاقة ولكنها كانت ناجحة، وكانت هي الرحلة الاخيرة التي قام بها هارونسون لبعض الوقت. وحصل هارونسون على مدى ثلاثة أعوام على عينات كثيرة من الحياة النباتية والثروات المعدنية في الصحراء السورية والاردنية. ورسم أيضاً خرائط للكثير من الموارد الطبيعية للمياه وصحح مواقع

العديد من المراكز السكانية التي كانت موضوعة في أماكن خاطئة في الخرائط البريطانية والالمانية والفرنسية. وأقام هارونسون ايضاً اتصالات عديدة بالاشخاص الذين كانوا يتولون مناصب القنصل ومدير الناحية والقائمقام. وكذلك المستشارين المهنيين من غزة الى بيروت ومن معان الى دمشق على الخط الحديدي الحجازي الذي كان بناؤه قد تم.

وعاد هارونسون الى صفد وتلال روشبينة وبحيرة طبرية عام ١٩٠٨ مع رفيق جديد هو ابشالوم فاينبرغ الشاب الذي كان لا يقل مهارة عن هارونسون نفسه في السفر في الصحراء وفي القدرة على الابتكار. وكان عرب الصحراء يعرفون ابشالوم فاينبرغ باسم الشيخ سالم. وصحبتهما في الرحلة سارة شقيقة هارون التي كانت تبلغ ١٨ سنة من العمر والتي كانت تتميز بجمالها ورقتها البالغة. ونزل الثلاثة لدى الدكتور تورانس في طبرية واستمعوا مرة اخرى الى الروايات الدينية لهذا العالم الصهيوني المسيحي الذي كان يقول ان عودة الاسرائيليين الى فلسطين ستكون ايذاناً بعودة المسيح مرة اخرى.

وتلقى هارونسون لدى عودته الى زخرون ياكوف دعوة عاجلة من وزارة الزراعة الاميركية لزيارة الولايات المتحدة. وغادر فلسطين متجهاً الى الولايات المتحدة في بداية عام ١٩٠٩، وهناك عرض عليه منصب استاذ الزراعة بجامعة بيركلي في كاليفورنيا، ولكن هارونسون لم يكن يرغب في تكريس حياته للمجال العلمي أو في البقاء بعيداً عن فلسطين. وقابل هارونسون في اميركا القانوني البارز القاضي براندايز الذي كان قاضيا في ذلك الوقت، كما قابل الدكتور ديفيد فيرتشايلد من وزارة الزراعة، وهنرييتا زولد الثرية اليهودية التي كان عمرها يبلغ ٤٩ سنة، وكانت تترأس جميعة النشر اليهودية. وخلف هارونسون انطباعاً ممتازاً لدى كل من قابله، وعاد الى فلسطين بأموال وتأييد حماسي لمشروع انشاء محطة زراعية تجريبية هناك.

* * *

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥ قررت سارة هارونسون، أو سارة ابراهام (التي كانت قد تزوجت من يهودي بلغاري يدعى حاييم ابراهام

في آذار (مارس) ١٩١٤، وعاشت معه منذ ذلك الحين في القسطنطينية)، إ
ان تعود الى عائلتها في زخرون ياكوف.

وأثناء رحلتها بالقطار من محطة حيدر باشا في القسطنطينية الى حيفا شاهدت الأطفال والنساء من الارمن الجائعين المذعورين وهم ممددون على الأرض. ووجدت فلسطين تئن تحت وطأة حكم جمال باشا المعروف بـ «السفاح». وعندما دخل الجيش الرابع مدينة القدس عن طريق مدخل يافا في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٤، قابله اليهود بالترحاب حاملين لافتات كتبوا عليها «مبارك الذي يأتي باسم الرب». كان الكثيرون قد عرفوا الآن أخاها هارون باسم «الجاسوس»، وهي كلمة كان العجائز يتناقلونها همساً ويتذكرون معناها وخاصة في روسيا واوروبا الشرقية، وكان الشبان يلفظونها باحتقار، هؤلاء الشبان «الحفاة» الذين كانت تملأ صدورهم الأفكار الثورية الاشتراكية.

كان اليكس هارونسون شقيق سارة وهارون، قد عاد الى زخرون ياكوف من اميركا في عام ١٩١١، عندما كان في الرابعة والعشرين من عمره، ليجد نفسه مجنداً تجنيدا اجبارياً في الجيش التركي. ولكنه كان قد استطاع تسريح نفسه بدفع مبلغ من المال في الوقت الذي عادت فيه سارة ، وكوّن مع هارون ورفيقه أبشالوم فاينبرغ منظمة لم تستمر إلّا فترة قصيرة أطلقوا عليها اسم «غيديونيتس»، كان الهدف منها محاربة السلطة العثمانية والكفاح من أجل «اريتز اسرائيل» أي أرض اسرائيل، وكذلك اذا دعت الحاجة لمعارضة منظمة هاشومر (أي الحراس) ولجان العمال. كان هارون، رئيس المنظمة، ما زال يحتقر «مرض اللجان»، أو الصهاينة من أمثال دكتور جيكوبسون السيء السمعة ، والذي كان رئيساً للمؤتمر الصهيوني الذي عُقد في بازل عام ١٩١٢، والذي تبنى علانية القضية الالمانية وكان لا يقل عن الاتراك والعمال الثوريين عداء للمنظمة الجديدة. وكان أتباع هارونسون متهورين في معارضتهم لحكم جمال، وفي اعتقادهم بأن خلاص اليهود رهن بانتصار الحلفاء. وكانت سارة ستصبح أكثر أعضاء عصبة هارون الصغيرة المنعزلة ولاء وتضحية في أداء واجباتها.

وفي أعقاب حملة جمال السيئة الحظ عبر شبه جزيرة سيناء في كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) ١٩١٥، كان الجواسيس اليهود يقفون

جنباً الى جنب مع الضباط الألمان في «فندق فاست» بالقدس وهم يتبادلون الاسرار الشخصيــة والعسكـرية وكذلك النكات حول جمال. وكانوا قد قاموا بحملة من أخطر وأكثر حملات التجسس فعالية في الحرب. ولكنهم كانــوا لبعض الوقت غير قادرين على نقل أسرارهم التي حصلوا عليها بصعوبة. لم يكونوا يمتلكون وسائل الاتصال بالقاهرة أو باستخبارات سيناء التي كان يتولاها باركر، والتي كانت تعتمد على عملاء عرب من مسلمين ومسيحيين.

وكانت رفقة، أصغر بنات الأسرة، قد ارسلت الى المدرسة الامريكية في بيروت وذلك حتى تقيم اتصالا مع القنصل الامريكي هناك، وكان اليكس وهارون على اتصال مع القنصل الامريكي في القدس، المستر غليز بروك، وهو امريكي من الجنوب كان استاذاً للاهوت في جامعة برينستون. وفي آذار (مارس) ١٩١٣، كان اليكس يقف مع غليز بروك في يافا لمشاهدة الموكب «الحزين» عندما كان الاتراك يعودون من السويس الى ما كان يزعم جمــال بأنه «انسحاب منتصر»، وكانت الجماهير تجر كلباً وجملا وعجلا في الشوارع، بعد ان لفوها بأعلام بريطانيا وفرنسا وروسيا وذلك حتى يستطيع الناس قذف الحيوانات التعيسة بالحجارة والقاذورات.

وكــان هارونســون عام ١٩٠٩، في الوقت الذي اكتشف فيه القمح البري، يلقي المحاضرات على المستوطنين الفرنسيين في تونس، ويشير الى ان الهجرة اليهودية الى فلسطين بدأت في نفس العام الذي احتلت فيه فرنسا تونس ـ عام ١٨٨٢. كما كان يتحدث عن المستعمرة اليهودية «ان اليهودي في فلسطين، مثله مثل الرجل الفرنسي هنا، لا يضع نفسه مكان المواطن الأصلي ولكن الى جانبه، انها مسألة تجاور، وليس استبدال». بعد ذلك بفترة قصيرة، ذهب هارونسون الى أميركا لزيارة دكتور ديفيد فيرتشايلد من وزارة الزراعة، والقاضي لويس براندايز، والثري شماريا ليفن من اللجنة الصهيونية التنفيذية في نيويورك. كان قد استحضر في ذهنه صورة لحضارة مشرقة بُنيت بالعرَق على رمال الصحراء، الصورة التي يجب ان يكـون عليهــا العــالم بوجــه عام. وكــان يقول لمضيفيه الامــريكيــين «اعطونا تأييدكم وسوف نحقق حلم هيرتزل في بناء دولة صهيــون». وقــال فيرتشــايلد زوج ابنة الكسندر غراهام بيل (مخترع التليفون) « سرعان ما اكتشفت انني أجلس مع رجل غير عادي».

كانت المحطة الزراعية عند عتليت على طول الساحل التي بُنيت بأموال المعونة الامريكية، قد تحولت الى وكالة تجسس، وفي شهر آذار (مارس) ١٩١٥، تلقى جمال أوامر من القسطنطينية بعدم اتخاذ أي اجراءات اضطهاد ضد اليهود «لأن اللحظة غير مناسبة سياسياً». وأصبح جمال الزئبقي يسميهم الآن «اخوتنا العثمانيون». وتصدى هارونسون للمواجهة واحتج لدى المحافظ بشأن سياسته الزراعية، وكذلك حول سياسته العنيفة، ولما سأله جمال: «ما الذي ستقوله اذا أمرت بشنقك؟» أجابه هارون: «لن أقول شيئاً يا صاحب الفخامة، ولكن ثقل جسدي السمين سوف يحدث صوتاً لدى ارتطامه بالارض، يسمع في اميركا».

وكان جمال باشا، كبقية المسؤولين الكبار الذين كانوا على علاقة بهارونسون، معجباً بحصيلة معرفته وثقته بنفسه، كما كان في حاجة ماسة الى مساعدة اليهود. ومنح الرجل الذي كان سيصبح فيما بعد رئيس عملاء الاستخبارات في الجيش البريطاني في فلسطين، مكتباً في مقر القيادة العامة التركية في دمشق. وترك هارونسون صديقه فاينبرغ ليتولى ادارة محطة التجسس في عتليت. ولما كان فاينبرغ «في عرين الاسد»، خطط هو وأحد رجاله، اليهودي الروسي الحالم ليوفاشنيرسون، لعملية هروب الى القاهرة للاتصال بالسلطات العسكرية هناك.

وقرر هارونسون ان الوقت قد حان لاستدعاء اخته الصغرى رفقة من بيروت وارسالها الى امريكا حيث تكون في أمان. كما قرر ان يصطحبها شقيقها اليكس الى القاهرة، حيث يحاول الاتصال بالبريطانيين. بعد ذلك يستطيع اليكس ان يذهب الى الولايات المتحدة مع رفقة محاولا الحصول على مزيد من الدعم المالي لفلسطين. كان عليهما ان يهربا على سطح السفينة الحربية الامريكية «تشيستر»، التي كانت تجيء على فترات الى حيفا لجمع اللاجئين. وغادرا مصر في حزيران (يونيو) ١٩١٥ بعد أن ساعدهما المستر غليز بروك وجهّزهما بجوازات سفر مزيفة. وقال هارونسون لشقيقه الأصغر اليكس: «اننا لا نستطيع حتى التأكد من أنهم سيثقون فينا. فليس هناك أحد أكثر تحفظاً في هذا الشأن من الانكليز». وأضاف قائلا: «انهم قد يعتقدون اننا سنخونهم كما نخون الاتراك». وأبلغ رسوله أن يوضح للبريطانيين انهم يفعلون ما يفعلونه

ليس من أجل مكافأة مادية أو من أجل الانتقام: «اننا نفعل ذلك خدمة لقضيتنا».

وكما أُنذِرَ اليكس، فقد استقبل بطريقة ودّية في مقر القيادة العامة من قبل الكابتن ترامبل دور، بطل الحرب الروسية ـ اليابانية ومؤسس فرقة «راكبي البغال» الصهيونية، والذي كان يعمل أصلا مع القوة المصرية، وكان يروح ويجيء من الدردنيل حيث كان جيشه الشهير الذي يركب افراده البغال يقوم بدور بطولي. كان ديدز في مقر القيادة العامة فاترا نحو اليكس، واعتقد وولي أنه قد يكون عميلاً للاعداء، وكان كلايتون في شك من الأمر. كانت عملية التقديم الى الاستخبارات العسكرية البريطانية مخيبة للأمل بالنسبة لرجل أصبح فيما بعد أحد ابرز رجالها الذين خدموا مدة طويلة في صفوفها.

وتوجه اليكس مع رفقة الى اميركا والحيرة تملأ نفسه، ولكن كان قد أصبحَ من الواضح لهارون انه يجب أن يحصل شخص ما على ثقة كلايتون. وفي أوائل تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٥، غادر ابشالوم فاينبرغ مع آخر مجموعة من اللاجئين تهرب من فلسطين. كان متخفياً وراء قبعة عتيقة الطراز ونظارات غريبة الشكل وقد اكتسى وجهه بمظهر جدي. ولكنه لم يزل موضع شك نتيجة للحادث الذي يتعلق بالاستخبارات البريطانية في وقت مبكر من ذلك العام، وتقرر انه من الأفضل ان يبقى مكانه.

كان وولي قد غادر القاهرة لينعم بسلام نسبي في مكتب استخبارات بور سعيد (القوة الشرقية)، وتوجه ابشالوم مباشرة الى هناك لمقابلته. وطبقاً لتقارير موجودة، ناقش الاثنان خطة لانتفاضة مسلحة تعتمد بدرجة رئيسية على دعم العرب. ولكن وولي رأى ان الفكرة غير ناجحة. كان يريد أن تركز جماعة عتليت على جمع المعلومات والبقاء في الخفاء بحجمها الصغير. وتقرر استخدام سفينة المراقبة «زايدة» التي كانت أصلا على اتصال مع حلقات التجسس العربية في حيفا وصور. وهكذا عقد وولي الأنيق المتغطرس مع اليهودي النحيف الغزير المادة صفقة مربحة ومخيفة.

تمكن فاينبرغ والكابتن ويلدون، ضابط الشيفرة في السفينة «زايدة»، من وضع رموز اشارة في «فندق الكازينو»، الذي كان يستخدم كمقر

لقيادة الأركان في بور سعيد. بعد ذلك كتب ابشالوم الموالي للانكليز الى هنرييتا زولد، سكرتيرة اللجنة الصهيونية الامريكية ليخبرها انه «سبق السيف العذل». وأضاف: «ان مصيرنا مرتبط أكثر وأكثر بقضية الحلفاء (...) واذا كان هناك شعب يحبنا أكثر من الامريكيين، الذين لا يسعنا الا الثناء عليهم، فهو الشعب الانكليزي. لأنه اذا كانت امريكا قد قدمت الطعام والذهب الى الأصدقاء الذين يحتاجون اليهما، فإن انكلترا أدخلتهما الى دولة عدوة، وبطريقة هادئة حذرة».

أخذت احدى سفن التجسس وولي ابشالوم الى عتليت ثانية في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥. وكان مبتهجاً بنجاح مهمته، وفي الوقت نفسه بوصوله في الوقت المناسب لمقابلة سارة التي كانت قد وصلت من القسطنطينية. وبعث برسالة الى رفائيل ابو لافية، وهو لاجىء روسي يعمل مع جيش ترامبلدور في القاهرة. كانت الرسالة تقول ببساطة: «عاش الملك، وعاشت بلادنا» وباسلوب يتميز بالادب الانكليزي «سوف اعود بعد ستة أسابيع او ثمانية. أنت تعلم عنواني، طرف الملازم المحترم وولي بالمركز العام في بور سعيد». اما عن وجود سارة المتجدد، والتي كان أبشالوم يكن لها حباً يكتمه في صدره، فقد كتب: «انني لا أجرؤ على لمسها، بالرغم من أنها تثيرني»، وكان يصرح بحبه هذا لزوجة أخيها، ولكنه أضاف: «من الذي يصلح بدرجة كافية لأن يكون صهراً لملاك» وفي مناسبة أخرى أظهر شجاعة وراء ستار من المنطق: «لقد مارس النبي داود الخيانة الزوجية فلماذا لا أفعل انا ذلك أيضا ؟»

* * *

وقعت أحداث هامة في المناطق التابعة لجمال باشا أثناء غياب فاينبرغ. فقد كان مصير يهود فلسطين، مثل مصير الأرمن في تركيا، غير مؤكد دائماً. في لحظة كان السلام يسود، وبعد ذلك فجأة تهوي قبضة السيد العثماني الحديدية عليهم. وفي بداية عام ١٩١٥ أوصى بهاء الدين، حاكم يافا، بترحيل المسيحيين واليهود من الميناء. وفي آذار (مارس) ١٩١٥ جاءت تعليمات من القسطنطينية بالتعاون مع اليهود. ولكن مع مرور السنة، عاد جمال الى أساليبه القديمة. بل انه بدأ يشحن

ذهنه المنحرف بأمور اكثر عنفاً. وبينما كان هارونسون يجلس في مكتبه ككبير المستشارين الزراعيين، كان جمال يخطط لقلب الامبراطورية ويرى في نفسه السلطان الجديد.

ترى هل كان هناك سبب أقوى من ذلك لرحلة فاينبرغ المتعجلة الى مصر في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٥؟ وهل التقط هارونسون، الذي كان يجلس في مقر قيادة جمال في دمشق، نذر التمرد في عرين رئيسه الزئبقي؟ من المحتمل ان جمال الذكي كان يريد ان يعرف الجاسوس الجالس معه بخطته بشأن الانقلاب. ولم يقم وولي ابدا بالافصاح عن أسماء مصادره أو طبيعة عمل الاستخبارات الذي كان يقوم به، بعكس رفيقه في قرقميش، لورانس، واتفق موعد انقلاب جمال المقترح مع انتفاضة مقترحة للعرب السوريين. ومن المحتمل أن فاينبرغ ذهب الى مصر حاملاً معلومات سرية عن الفريقين.

في ذلك الحين كانت مجموعة المخابرات السرية البريطانية في منطقة البحر الابيض المتوسط قد بدأت بارسال تقارير عن حوادث فرار على نطاق واسع بين الضباط العرب في الجيش التركي حتى بين صفوف القيادة العليا. كانت الاستخبارات الروسية ايضاً متلهفة لالتقاط نفس الشائعات، بل وأكثر تشوقاً لاستغلالها. وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٥ ابلغت الاستخبارات العسكرية في القاهرة مفوضية أثينا بأنها يجب ان لا تحرض على «محاولة احداث ثورة عربية في سورية»، اذ ان مثل هذا الحدث سوف يؤدي الى أعمال انتقام وحشية من جانب الاتراك.

وفي ٢٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٥ وزع غراي على أعضاء الوزارة في لندن ملخص رسالة وصلت ذلك اليوم من سازانوف وزير الخارجية الروسي: «اننا نعلم من أوساط أرمنية في القسطنطينية ان جمال باشا مستعد لقيادة ثورة علنية ضد الحكومة التركية والالمان شريطة أن يقبل الحلفاء بالشروط التالية». كانت تلك الشروط هي ضمان سيادة تركيا واستقلالها في آسيا، لكي تشمل الأقاليم «ذات الحكم الذاتي» سورية وفلسطين والعراق وشبه الجزيرة العربية (وربما يعني بذلك وسط الجزيرة واليمن)، مع أرمينيا وكردستان. وتتبع هذه المناطق لحكم السلطان، الذي سيكون بالطبع هو جمال، والذي سيجعل الحكم وراثياً في أسرته، والذي يجب أن يمنح في نهاية الحرب المعونة المالية اللازمة.

واذا قبل الحلفاء بهذه الشروط، فسوف يعلن الحاكم العثماني في سورية سقوط الحكومة في القسطنطينية وعزل السلطان « الذي أصبح اسيراً في المانيا». ووافق جمال على التخلي عن المضايق والقسطنطينية، وكان على استعداد ان يضمن سلامة الامْريكيين.

وجاء في ختام المذكرة: «ان مستر سازانوف يرى انه حتى في حالة فشل جمال في الاطاحة بالحكومة وعزل السلطان، فان أي اضطراب داخلي في تركيا سوف يؤدي الى إضعافها وبالتالي خدمة مصالحنا المشتركة، لذلك فانه من المستحسن الدخول في مفاوضات سرية مع جمال عن طريق عملاء أرمن موثوق بهم».

في ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٥، ذهب الكونت بنكندورف السفير الروسي الى وزارة الخارجية في لندن ليسأل سير ادوارد غراي رأيه بخصوص تشجيع ثورة يقوم بها جمال باشا «بشروط معينة». ورد غراي بأنه «لا يعتقد أنها ستأتي بنتيجة كبيرة، ولكنه يرغب في تشجيعها على أية حال».

في مذكرة وزارية كتب غراي عن تحفظات تخص مستقبل اقليمي البصرة وسورية، وكذلك المصالح الفرنسية:

«اذا كانت ستتاح لحركة جمال باشا اي فرصة من فرص النجاح، فعليه ان يستميل العرب الى جانبه ويصل الى اتفاق معهم. اذا فعل ذلك، فان وعودنا للعرب ستكون مرضية لهم اذا قدمنا شيئاً يوافقون عليه. لقد ذكرت للكونت بنكندورف انه من الضروري ان يستشير الحكومة الفرنسية فيما يتعلق بسورية خاصة... لقد أبلغت الكونت بنكندورف اننا امتنعنا بعناية عن تقديم أي وعود أو اجراء أي محادثات عن «الخلافة». لقد اعتبرنا ذلك موضوعاً اسلامياً يجب ان يقرره المسلمون».

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥ حدثت تغييرات في القسطنطينية عكست السخط في الامبراطورية، فقد عزل الرجلان القويان أنور وطلعت، حليم الرجل الرقيق من منصبه كوزير للخارجية، وهو منصب كان يشغله إضافة الى رئاسة الوزراء. وأعطيا وزارة الخارجية الى خليل بك الرجل السمين الموالي للفرنسيين والذي كان فيتزموريس يشبهه بميرابو. أما المبعوث الألماني البارون فون وانغنهايم، الذي كانت خلافاته

مع وزارة خارجيته ومع ليمان فون ساندرز قد أصبحت حادة، فقد خلفه الكونت وولف ميتيرنيخ السفير الألماني في لندن حتى نشوب الحرب. ولكن العمل الذي كان ينتظر الكونت في العاصمة العثمانية لم يكن سهلا. اذ كان وانغنهايم ، الذي مات بعد عودته الى برلين بفترة قصيرة، قد ترك وراءه إرثاً كبيراً من عدم الثقة. استمر وولف ميتيرنيخ في منصبه حوالي عام. وفي ذلك الوقت حل محل وزير الخارجية جاغو، نائبه الأول زامرمان اليهودي، كما حل محل السفير مساعده فون كولمان، «فيتزموريس الالماني».

في نهاية كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٥ بعد وصول سارة هارونسون الى زخرون ياكوف قادمة من القسطنطينية بفترة قصيرة، عادت السفينة «زايدة» الى عتليت في يوم محدد، ولكنها كانت لسبب غير واضح قد غيرت رموز الاشارة التي كان فاينبرغ قد اتفق عليها مع ويلدن. وبعد عدة أيام قرر ابشالوم المغامر ان يتخلى عن زي فرقة هارون لمكافحة الجراد، ويعبر سيناء في محاولة لمقابلة وولي ومعرفة ما يجري. وكان قد اقترب من السويس عندما لحقته دورية تركية، والقي به في السجن في بير سبع. ولكن أحد عملاء هارون الذين يعملون في منظمة هاشودر وهو يوسف ليشانسكي، رشا حراسه بالذهب الذي قدمته جماعة عتليت، بينما احتج هارون لدى جمال قائلا ان «الالمان الملعونين» قبضوا على سكرتيره. لعن جمال الالمان الذين كانوا ما زالوا يضحكون ويسخرون من حملته في السويس. وأطلق سراح أبشالوم، ولكن وضع هارون نفسه كان قد أصبح خطراً بعد أن بدأ جمال ينحاز الى فريق ثم الى الآخر، وبدأ يفكر في طريقة للهروب الى انكلترا.

ومرت عدة شهور دون أي اتصال مع العالم الخارجي. وفي حزيران (يونيو) ١٩١٦ أرسل هارونسون فاينبرغ الى القسطنطينية لترتيب زيارة لرومانيا، حيث كان هناك عملاء بريطانيون يمكن الاعتماد عليهم، وذلك للتظاهر باجراء محادثات حول شؤون زراعية. ولكن في غياب ابشالوم، استطاع وولي، الذي كان الالمان قد استطاعوا حل شيفرته، ان يبعث برسالة مكتوبة الى الشاطىء.

«في خلال ثلاثة أسابيع من الآن سوف نعود». ولكن السفينة «زايدة» لم تعد. بل ولم تشاهد منذ ذلك الحين.

مع بداية شهر تموز (يوليو)، اقترح كلايتون ان يتمتع وولي باجازة، وهكذا وكما قال «قمت ببعض الأعمال القليلة وبعد ذلك وجدت نفسي في خليج اسكندرونة». كان قد تأكد ان رئيس الطهاة قد زود بالعناصر اللازمة لوجبة فاخرة تليق باجازة مترفة على ظهر السفينة «زايدة». كانوا قد انتهوا لتوهم من طعام الافطار وكان القبطان قد ذهب الى الجسر لكي يريح الضابط الأول عندما وقع انفجار هائل. لقد اصطدمت السفينة بلغم. وقفز البحارة من سطحها وتشبثوا بقطع من حطامها في الوقت الذي هوى فيه يخت لورد روزبري في أقل من نصف دقيقة. كان آخر شيء يتذكره وولي هو ولولة الطاهي على ان محاولته الأولى لطهو اوزة محشوة بالمشمش الجاف والفستق قد غرقت مع سفينة التجسس. وقامت سفينة تركية كانت واقفة بالتقاط وولي ورفاقه، وقضوا السنتين التاليتين كأسرى حرب، ويقال ان الاتراك يأسوا من مهمة احتجاز الرجل الانكليزي الذي قام بالحفر في قرقميش وكان من المفروض ان يقوم بالحفر ايضاً عن الآثار الكلدانية في أور في أرض العراق، اذ ان شخصيته كانت لا تتمشى مع ما يتطلب من سجين حرب. لذلك تركوه يذهب حيث كان يريد عند قسطموني، حيث أخذ ضباط الكوت الذين أسروا، ثم الى القسطنطينية. وكان وولي شخصية تثير الناس بعجرفتها، وكانت له طريقة في جعل الناس تذعن لرغباته، وينطبق ذلك على سجّانيه. ولكنه قابل الشخص الذي يقف ندّاً له. كان ذلك بعد الحرب، وكان الشخص هو زوجته كاترين التي كانت فنانة موهوبة. وكانت مثله تحب ان يذعن لها الآخرون وألا يعارض أحد كلمتها. وذات ليلة قالت لزوجها قبل ان تذهب الى الفراش «لين، سوف أموت هذه الليلة». وفي صباح اليوم التالي وجدها قد نفذت ما قالته وماتت بجواره.

كان غرق السفينة «زايدة» صدمة لهارونسون أكبر مما كانت صدمة لصاحبها المؤقت. فقد انزعج هارونسون اكثر وأكثر بأعمال الاتراك الوحشية في فلسطين، وكذلك بحكم جمال باشا المذبذب غير الحساس، وحيثما كان يذهب هو وسارة وابشالوم فاينبرغ كانوا يرون الجيش والشرطة التركية منتشرين في كل مكان. وغالباً ما كانوا ينتظرون عبور فتاة أرمنية أو يهودية بمفردها حتى يبادروا باغتصابها بالقوة بطريقة جماعية. ولم ينج الفتيان العرب من هذه الأعمال الوحشية أيضاً، فقد

كان الجنود ورجال الشرطة الاتراك يمارسون تطبيق وسائل التعذيب عليهم ومن بينها الضرب بالعصا على الأقدام العارية. وكان داء الزهري قد بدأ يتفشى بين هؤلاء المجندين الشبان، كان هارونسون يشعر بمقت شديد تجاه سادته، وبدأت معارضته لهم تزداد خطورة. ولكن عبء معرفة أسرار القوى المركزية التي حصل عليها عن طريق مكتبه في مركز القيادة العامة في دمشق، والأحداث الهامة في القاهرة ومكة، هي التي جعلت زيارته للندن امراً ملحاً.

وفي تموز (يوليو) ١٩١٦ سافر الى القسطنطينية مع ليوفا شنيرسون التي اصطحبها كسكرتيرته. وكان يستخدم اسم يهودي سفاردي آخر هو حاييم كوهين، كما كان يحمل خطاباً من جمال يسمح له بالسفر في أي مكان في اوروبا لمواصلة بحثه العلمي. وذهب الى السفارة الالمانية في القسطنطينية للحصول على تأشيرة دخول الى برلين، وقال لهم ان لديه معلومات هامة تتعلق باستنبات نوع جديد من بذور السمسم غنية بالزيت. كان قد ترك شنيرسون في انتظار تعليماته، ووصل الى برلين في شهر آب (اغسطس) ١٩١٦. واستقبل هناك بحفاوة من قبل الأوساط العلمية الالمانية، بالرغم من ان مذكراته لا تظهر انه تحدث اليهم بخصوص استنبات السمسم. ولحسن الحظ انه كان في برلين في نفس الوقت الذي كان فيه جودا ماغنس الحاخام الامريكي هناك في بعثة إغاثة. وبالطبع كان باستطاعته مساعدة هارون بدرجة كبيرة. قضى شهراً في العاصمة الالمانية يلتقط معلومات في غاية الأهمية قبل ذهابه الى كوبنهاغن حيث لحق به الحاخام ماغنس بعد وصوله بأيام قليلة. ومن الواضح ان الاستخبارات البريطانية كانت في هذه المرحلة على علم بمهمته، اذ انه كان قادراً على ترتيب اجتماع سري مع السفير السير رالف باغت. وكانت كوبنهاغن أرضاً خصبة للتجسس، اذ ان العملاء فيها كانوا يراقبون السفارات على الدوام. اتصل باغت بمحطة استخبارات برن، التي أعطت التعليمات بشأن رحلة هارون الى لندن. واستقل هو وماغنس سفينة هولندية كانت متوجهة الى امريكا، ولكن حدث باتفاق مع الادميرالية ان اعترضت سفينة حربية بريطانية طريقها بالقرب من كيروول في جزر الاوركينز، شمال اسكوتلندا، وقبض على هارونسون. وتسربت أنباء القبض على «الجاسوس التركي» الى السلطات

العثمانية والالمانية. وفي نهاية تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٦، كان جالساً في مقر الاستخبارات الخاصة حيث كان هول وتومسون يقومان بمقابلة معظم جواسيس الحرب المشهورين. ولكن لم يؤثر عليهما أحد مثلما أثر هذا اليهودي الأشقر من فلسطين.

ظل تومسون يتحدث مع هارونسون لعدة أيام ووجد أن ضيفه، الذي كان ما زال مسلحاً بفرمان جمال باشا ووثائق أخرى تضمن له حرية الحركة، «شخصية نادرة ومرموقة». وأصغى رئيس فرع الاستخبارات الخاصة، الذي كان قد أصبح هو وبلينكد هول بمثابة «الاداة اللاقطة» للحكومة البريطانية في الداخل وفي الخارج، باهتمام الى الاسرار التي كان يدلي بها هارونسون وكذلك الى نصائحه بشأن امداد القوة المصرية في سيناء وفلسطين بالمياه الطبيعية، والى آرائه بشأن افضل طريق يمر بها خط سكة حديد بالامدادات عبر الصحراء، واستمع أيضا الى شرحه لدوره هو شخصياً في الحرب ورغبته في مساعدة قضية الحلفاء، ليس كشخص مثالي أو شريك زائف، ولكن شعوراً بواجبه تجاه القضية الصهيونية. وفي يوم ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٦ جلس في منتزه سنت جيمس بارك في لندن الذي كان يغلفه الضباب يصف لتومسون ارض فلسطين ورحلة الاستكشاف في القيصرية، التي تستغرق يوماً واحداً، وكذلك طبيعة المنطقة الجيولوجية، واسلاف المواطنين الحاليين من المسيحيين والرومان، والنباتات فيها وينابيع الماء. كان تومسون يستمع وهو مشدوه. ولكن تأثيره على تومسون لم يكن كبيراً كتأثيره على شخصيات أكثر أهمية من الناحية السياسية، الأمر الذي جعل من زيارة هارونسون الى لندن في نهاية عام ١٩١٦ ذات أهمية خاصة.

* * *

كان الجنرال اللنبي قد بدأ في اجراء تعديلات جذرية في قيادة القاهرة، حتى قبل وصوله الى هناك. واختار على وجه الخصوص الكولونيل ريتشارد ماينرتسهاغن لمنصب مدير المخابرات، وهو ابن أخ سيدني ويب، ولم يكن يخشى احدا، ولا حتى «الثور»، وكان له سجل حافل كمدير للمخابرات في شرق افريقيا. وبتعيين ماينرتسهاغن مديراً

للمخابرات الحربية، أصبح هناك ايضا فرع للمخابرات السياسية تولى ويندهام ديدز رئاسته. وكان كلاهما ضابطاً محنكاً يعرف كل جوانب نشاط المخابرات ابتداء من العمل المكتبي، وحتى تجنيد العملاء الذين يمكن الثقة بهم، والمراقبة المستمرة للعاملين في المكتب، وأيضاً لرجال العدو. وكان ديدز قد خدم في تركيا، ثم في لندن، ثم عمل في القاهرة مع هارونسون الذي أصبح ديدز يقدر مواهبه الكبيرة بعد فترة تردد في البداية. وابتداء من حزيران (يونيو) ١٩١٧ أصبح هارونسون الساعد الايمن لماينرتسهاغن الذي قال عنه: «كان أفضل العاملين معي اليهودي هارون هارونسون الذي لم يكن يخشى أي شيء وكان لديه ذكاء خارق». وفي ظل القيادة الجديدة أيضاً تم تعيين كلايتون ضابطاً سياسياً، واكتسب المكتب العربي صبغة سياسية.

وبعد ان قابل مدير المخابرات العسكرية الجديد فريق هارونسون القادم من فلسطين، كتب قائلا: «أجد نفسي الآن، للمرة الأولى في حياتي، على اتصال وثيق باليهود في العمل، وقد تبينت مدى ذكائهم وشجاعتهم بعد فترة قصيرة. وقد استخدمت ١٥ تقريباً من اليهود اللاجئين الذين قدموا الى القاهرة من فلسطين، وكانوا جميعاً يتمتعون بلياقة بدنية ممتازة، كما تبينت لدهشتي الشديدة ان عيونهم زرقاء وشعرهم أشقر. وقد عملوا معي كفريق برئاسة هارونسون، الذي كان رجلاً ممتازاً وعميلاً شجاعاً ومتواضعاً يعادل في كفاءته الهولندي بريتوريوس الذي كنت استخدمه في تنغانيقا. ولن اتعرض هنا لتفاصيل المهام التي قام بها نظراً لطبيعتها السرية».

وفي كانون الثاني (يناير) ١٩١٧ تلقى هارونسون طلباً فيه إهانة لشخصه من بعض صغار ضباط القيادة بتقديم مذكرة يشرح فيها مؤهلاته للعمل. وصدر طلب الكابتن نورمان بنتويتش ـ وهو محام يهودي وضابط في قيادة قوة العريش ـ بالعودة الى القاهرة لاجراء مقابلة مع «اليهودي القادم من فلسطين، والذي اصدرت وزارة الحرب توصية بشأنه» وأكد بنتويتش لكلايتون انه يمكن الوثوق بهذا الرجل، الذي كان تنظيمه يقدم معلومات جوهرية للندن والقاهرة على مدى عامين. وبعد ذلك اصدر ويندهام ديدز باتخاذ خطوات فورية لاعادة الاتصالات مع عتليت.

وعندما طلب الفرنسيون ذهباً للعرب في كانون الثاني (يناير) كان هارونسون يعمل في الاسكندرية مع الكابتن ادموندز الذي بدأ يوافق على وجهة نظر هارونسون بأن «الثورة العربية ظلت حية نتيجة لتدفق كميات ضخمة من الذهب. ولكن يجب علينا الحصول على أقصى قدر من الفائدة، دون ان يؤثر ذلك على الاحتياط النقدي الموجود لدينا». ومع ذلك كان هارونسون أكثر اهتماماً بالنبأ الذي أبلغه به ادموندز يوم ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩١٧ وجاء فيه ان دورية استرالية عثرت على زميله اليهودي ليشانسكي جريحاً بالقرب من العريش، ونقلته الى بور سعيد.

وكان ابشالوم فاينبرغ ويوسف ليشانسكي قد قررا اختراق الخطوط التركية يوم ٢٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٦ للاتصال مع مركز القيادة البريطاني، بعد ان فشلا في الاتصال بهارونسون في القاهرة، ولادراكهما ان الجيش البريطاني كان يخطط للتقدم من العريش مع وجود روايات متناقضة عن تكثيف الحرب وعن مفاوضات السلام الوشيكة التي ستتم عن طريق الرئيس الامريكي.

واتخذ فاينبرغ وليشانسكي الطريق الساحلي في رحلتهما الطويلة والخطرة، واستطاعا تجاوز آخر دورية تركية يوم ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٩١٧. وكان كلاهما يرتدي ملابس عربية ويتكلم العربية بطلاقة. وكان هناك ضباط في الجو عندما وصلا مع دليلهما البدوي الى الشيخ زويد بالقرب من العريش وهناك قرروا الاستراحة حتى صباح اليوم التالي. وفجأة هاجمهم حوالي ٤٠ رجلا كان لهم ثأر مع الدليل البدوي. ورفض أبشالوم تسليم الدليل اليهم، ونشب قتال لقي فيه أبشالوم الشاب مصرعه برصاصة. وتعرض ليشانسكي لجرح بسيط في رقبته، ولكنه تمكن من الزحف الى الخطوط البريطانية، حيث عثرت عليه احدى الدوريات. ومع ذلك اتضح ان ابشالوم ضيع حياته سدى، لأن القاهرة كانت قد قررت بالفعل إعادة الاتصالات مع عتليت.

واستدعى ويندهام ديدز هارونسون الى مكتبه للتعبير عن اسفه لمصرع ابشالوم، ومنذ ذلك الحين بدأ الجو يتحسن في مكتب المخابرات الحربية في القاهرة، كما دب فيه النشاط فجأة، وبدأت سفينة التجسس «ماناغام» في زيارة عتليت بدلا من سفينة وولي التي تعرضت للغرق. وكان

ليوفا شنيرزون ينتظر مع سارة وصول سفينة من مصر لمدة شهر بعد عودته من القسطنطينية، وبالفعل ظهرت السفينة «ماناغام» في مساء يوم ٢١ شباط (فبراير) ١٩١٧ وأرسلت قارباً الى الشاطىء به ليشانسكي ولاييل بورنشتاين وشارل بوتاجي والكابتن سميث.

وعندما هبط بورنشتاين الى الشاطىء قال لسارة انه سيأخذ معه الى مصر بعض رفاقه الموثوق بهم على السفينة «ماناغام». ولم يهبط هارون الى الشاطىء ولكنه بعث اليها برسالة مع ليشانسكي الذي تقرر ان يبقى معها في زخرون ياكوف. ولما عاد الرجال الى السفينة، سأل قبطان السفينة النيوزيلندي الكابتن سميث عن كلمة السر الخاصة بهم، ففتح ليوفا كتاب التوراة باللغة العبرية الذي كان يحمله معه وقرأ كلمات «نيزاه يسرائيل لو ييشاكر» (قوة اسرائيل لن تكذب)، ومنذ ذلك الحين أطلقت الجماعة على نفسها اسم «نيلي» الذي يتكون من الاحرف الاربعة الاولى من هذه العبارة.

وعندما أخبر ليشانسكي سارة بمصرع شقيقها أبشالوم، ملأها شعور بالمرارة وأصبحت لديها رغبة قوية في الانتقام. وكتبت الى هارون قائلة انها ستكمل «ما بدأه شقيقي الحبيب، وهذا هو كل ما أرغب فيه. انني أعمل من أجل الانتقام الهائل من اولئك المتوحشين من سكان الصحراء ومن الاتراك القساة. وأرجو ان يطيل الله في عمري حتى أتمكن من الاستمرار».

وكانت السفينة قد سلمت الى المجموعة أموالا تلقاها هارونسون من امريكا لاستخدامه الشخصي، ولتوزيعها على اليشوف، وهكذا انطلقت سارة مع ليشانسكي في رحلة عاجلة الى سورية، وكانت مهمتهما تتلخص في تذكر أكبر عدد ممكن من أسماء وعناوين المتعاطفين معهم، مع الحذر من عملاء الأتراك، وخصوصاً اليهود انفسهم الذين لا يرغبون في التعامل مع الجواسيس او الذين يمكن ان يجلبوا على رأس اليهود نقمة جمال وجنود الدرك التابعين له، برغم ان هؤلاء اليهود كانوا يقبلون المال عن طيب خاطر من سارة وليشانسكي. وتم توزيع الذهب في مناطق واسعة من سورية الخاضعة للحكم العثماني. وكانت سارة وليشانسكي يتنقلان بعربة تجرها الجياد تركها هارونسون في المحطة الزراعية، وكان يقودها ابو فريد خادمه وصديقه منذ أيام ما قبل الحرب. ولاحظ الاثنان في اثناء

مرورهما وجود مخزن للاسلحة لدى راهبات الكرمل، والجنود العرب الذين كانوا يموتون جوعاً في الجيش الرابع، كما كانا يلاحظان مواقع الحاميات المختلفة. وتم ارسالهما الى طبرية لانها موطن ليشانسكي الاصلي الذي طرده منه هاشومر. وأرسلا ابو فريد ومعه ٥ جنيهات ذهبية للحصول على التصريح من مكتب القائمقام، وصدر هذا التصريح على الفور، وجاء فيه: «يجب عدم التعرض لجيادهم على الطريق».

ولم يكن هناك عدد كبير من معارفهما اليهود على استعداد لقبول المهام الخطرة التي كانا يعرضانها، ولكنهما قابلا لحسن حظهما الدكتور الالماني اليهودي نيومان بعد عبورهما نهر الاردن عند تقاطع عفولة للسكك الحديدية، وكان نيومان صديقاً لهارون. وخاطر الاثنان باخباره عن النشاط الحالي الذي يمارسه هارون، وطلبا معونته. وقال نيومان: «سأدفع حياتي ثمنا لذلك». ولكنه وافق على التعاون معهما، وأصبح أهم عملاء جماعة «نيلي» في سورية بأكملها أثناء حملة اللنبي. وكانت كل تحركات القوات تتم خلال تقاطع السكك الحديدية الذي كان نيومان يعمل كبيراً للاطباء فيه، وأشرف في النهاية على مد خط سيناء البريطاني للسكك الحديدية الى عفولة، حتى يمكن نقل القوات البريطانية الى دمشق مباشرة.

ووصل الاثنان الى القدس بعد ثمانية أيام من خروجهما من زخرون ياكوف، ونزلا في «فندق فاست» الذي كان الضباط الالمان ـ ومن بينهم القائد كريس فون كريسنشتاين ـ يحبون قضاء أوقات فراغهم فيه. وبعد تناول المشروبات مع بعض الضباط الالمان والحديث اليهم، قدر يوسف ليشانسكي عدد الجنود الالمان في فلسطين بـ ٥٠,٠٠٠، وكان تقديره دقيقاً. وعاد ليشانسكي وسارة بعد ذلك الى زخرون ياكوف يوم ١١ آذار (مارس).

وتقرر منذ ذلك الوقت قيام السفينة «ماناغام» بزيارات منتظمة لعتليت، وتم الاتفاق على ان تعلق سارة على حبل الغسيل في فناء منزلها ملاءة بيضاء اذا كان كل شيء على ما يرام، وثوباً أحمر للدلالة على وجود خطر. وكان أحد رجال «نيلي» يقيم حفلات للشرب ولعب الورق، ويدعو اليها رجال الشرطة والجيش الموجودين في المنطقة، في الليالي التي تصل فيها السفينة. ومع ذلك كانت هناك لحظات خطرة، فقد هبط قائد غواصة

المانية في عتليت، ولدى عودته الى الشاطىء شاهد السفينة «ماناغام» وهي تبتعد ولكنه لم يستطع ملاحقتها.

وفي ربيع ١٩١٦ نشبت خلافات بين يهود فلسطين، ويهود مصر واليهود في شتى انحاء العالم، وتركزت هذه الخلافات على توزيع الاموال على مناطق الحرب. وكان قد تم تشكيل لجنة امنية في القدس لدى بداية الحرب لتقديم المساعدة ليهود فلسطين. وكانت هذه اللجنة مستبدة ومتعسفة في أساليبها، ولم توافق على الطريقة التي وزعت بها سارة وعملاء نيلي الاموال في بداية ١٩١٧. وقررت قيادة تنظيم هاشومر في منطقة الناصرة ان تطلب مساعدة حركة العمال في يافا لتحطيم تنظيم هارونسون «نيابة عن اللجنة الامنية واليشوف التابع لها». وقالت الصحيفة الرسمية للجنة السياسية لحركة العمال: «ان سياستنا الواقعية في ظل الظروف الحاضرة تعتمد على الولاء المدني الكامل. ويجب النظر الى أي نشاط يهدف الى أبعاد اليشوف عن هذا الاطار خطرا على اليشوف نفسه». وكانت الصحيفة تتحدث أساساً عن المستوطنين المتقدمين في السن، الذين كانوا يريدون الحياة في سلام مع جنود جمال ورجال الدرك التابعين له، وكان كثيرون منهم يؤيدون الاتراك نتيجة لعدائهم الشديد لروسيا.

ولكن جمال لم يكن يحترم الذين يعيشون في سلام، وأعلن في آذار (مارس) ١٩١٧ بعد صد الهجوم البريطاني على غزة، انه سيتم اجلاء كافة السكان المدنيين عن يافا، وان المزارعين وحدهم سيبقون هناك. وأعلن ايضاً ان الذين لا يملكون أراضي سيرحلون الى السهول السورية لكي تعتني بهم الحكومة العثمانية. وكانت تلك الأوامر تنطبق على العرب واليهود، ولكن سيتم السماح للالمان والنمساويين من غير اليهود بالبقاء. واحتج فرايهر فون شابينغر القنصل الالماني في يافا على ذلك، كما احتج أيضاً القنصل النمساوي. وأرسل الدكتور بروده القنصل الالماني العام في القدس تقريراً بهذا الشأن الى تسيمرمان في برلين، ولكن ريتشارد كولمان السفير الالماني في القسطنطينية لم يكن يقدم أي مساعدة. وتم استدعاء بروده الى مكتب جمال وتحذيره من التدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، كما طلب «السفاح» أيضاً اعتذاراً من شابينغر لأنه «أهان الاتراك». وكان التاريخ المقرر للطرد هو ٣١ آذار

(مــارس)، ولكن جمــال غيره فجأة كعادته باستمرار الى يوم ٩ نيسان (ابريل) ١٩١٧ الموافق عيد الفصح اليهودي.

ولم يكن العالم مدركاً لحجم الكارثة التي أصابت اليشوف، عندما تم اجلاء ٩٠٠٠ يهودي من يافا، بينما تم جمع عدة آلاف من العرب بالقوة وطردهم الى خارج المدينة بما استطاعوا حمله من متاعهم. وبعد عشرة أيام، أي في يوم ١٩ نيسان (ابريل)، أعلن جمال انه سيتم اخلاء القدس أيضاً. وعندما سمع هارونسون عن هذا القرار في القاهرة، أرسل نداء عاجـلاً الى زعمـاء العالم يطلب منهم فيه المعاونة في كبح جماح جمال المتعصب، كمـا يطلب امـوالا لمعـاونة مئات الآلاف الذين سيغادرون ديارهم. واستدعى هارونسون سارة الى القاهرة ايضاً لاعطائها تعليمات تفصيلية عن عملها في فلسطين. ومع ذلك جاء أقوى احتجاج على هذه الاجـراءات من جانب كريس فون كريسنشتاين قائد الجيش الثامن، الذي كان الضباط الالمان كلهم يقدرونه، والذي قال: «ان خطة جمال تقارب حد الجنون». وكتب فون كريسنشتاين الى السفارة الالمانية قائلا «ان اخلاء مدينة في تركيا يعادل الحكم عليها بالفناء (...) ويهدف اخلاء القدس الى القضاء على سكانها بالكامل، والى دمار كافة المنشآت اليهودية والمسيحية فيها. ان التاريخ سيحمل حلفاء تركيا مسؤولية هذا العمل (...) واعتقد ان واجبنا يفرض علينا مقاومة هذا الاجراء بشدة ورفض تأكيـدات جمال باعتبار انها عديمة القيمة (...) ويجب عند الضرورة اصدار انذار بسحب الضباط والجنود المسيحيين كلهم من فلسطين.»

وفي ذلك الوقت كان طلعت قد حل محل سعيد حليم في منصب الصدر الأعظم، ووعد كولمان باثارة الامر معه. ولكن تسيمرمان وزير الخارجية كان الشخص الذي تدخل لوقف تنفيذ خطة جمال. وفي يوم ٢٦ نيسان (ابـريل) ١٩١٧ اتصل تسيمرمان بالقيادة العثمانية العليا وبعد عدة ايام أصدر انور أوامره الى جمال بالغاء هذه الخطة. ومع تكشف تفاصيل خطة جمال لتشتيت يهود فلسطين، حدث تطور مهم آخر عندما دخلت امريكا الحرب.

وغادرت السفينة «ماناغام» بور سعيد يوم ١٤ نيسـان (ابريل) اي بعد خمسة أيام من عملية ترحيل سكان يافا، والتقطت سارة في اليوم التـالي ومعهـا ليشـانسكي. وعنـدمـا وصـل الاثنان الى «فندق غراند

كونتيننتال» في اليوم التالي، دق هارون بقبضته على المائدة غاضباً بشدة، الى درجة انه كسر زجاج ساعته وصاح في ليشانسكي قائلا: «كيف تجرؤ على مغـادرة موقعك في هذا الوقت؟» ووقف يوسف ليشانسكي صامتاً، بينمـا أخذت سارة تدافع عنه. وكان هارون يلوم ليشانسكي في قرارة نفســه أيضاً على تشجيع أبشالوم على القيام برحلة سيناء التي أودت بحياته. وكان يوسف شاباً قديراً وشجاعاً وكان له اصدقاء كثيرون من بدو فلسطين، ولكن هارون كان يعتقد انه يفتقر الى الحكم الصائب.

وأدت ظروف الطقس السيئة الى تأخير عودة «ماناغام» الى عتليت عدة أيـام، وبـذلك تمكن هارونســون من قضـاء امسيـاته في تلقين سارة وليشانسكي الاسلوب الصحيح لعمل مجموعة «نيلي» في فلسطين. وكان ضباط القيادة البريطانية قد أدركوا حتى قبل وصول ماينرتسهاغن ان معرفة هارونسون الوثيقة بتضاريس سيناء وفلسطين ستساعدهم الى حد كبير، الى جانب اتصالاته مع جماعة «نيلي» وقدرته على التوصل الى خطط تتفوق على مخططات الاتراك والالمان في المنطقة. وكان هارونسون يجتمـع يوميـا مع ليـنـدن بل رئيس الاركان وضباط القيادة في «فندق السافوي». وفي تلك الأثناء قال هارون لسارة: «يجب علينا الا نهدأ دقيقة واحدة، فان الكبار، الذي يملكون مصير العملية كلها في أيديهم، بدأوا في الاستماع الينا. وبعد ان تعودوا على الاستماع، وحتى على طلب المشورة، أصبح من واجبي ان أكون متواجداً تحت تصرفهم في أي وقت». وكان هارونســون يشعـر بالدهشـة لأن ضباط القيادة البريطانيين كانوا لا يزالون يستخدمون لدى الوصول الى القاهرة المعلومات الطبوغرافية التي وضعها كيتشنر وكوندور عام ١٨٧٨.

والى جانب الأعبـاء الثقيلة لعمـل المخـابـرات العسكـريـة، كان هارونســون يتحمل وحده مسؤولية اطلاع العالم بأكمله على أنباء ما يحـدث لليهـود في فلسـطين، وتـوزيع أموال التبرعات. وكان يستخدم الشيفـرة الرسميـة لاطلاع جهـاز المخـابـرات البـريطاني والخارجية البـريطانية والمكتب الصهيوني في كوبنهاغن على نشاط جمال. ونجح المكتب الصهيوني في كوبنهاغن على وجه الخصوص في اقناع الطوائف غير اليهودية في اوروبا وامريكا على اخذ الأمر مأخذ الجد وتقديم تبرعات.

والى جانب ذلك ساعدت البرقيات التي أرسلها الى مدير المخابرات العسكرية ووزارة الخارجية في لندن في مساعدتهما على اثارة المشاعر في الولايات المتحدة. وعلى سبيل المثال قالت صحيفة المانشستر غارديان في افتتاحية لها: «ان جمال باشا رجل ماكر لا يقدم على إصدار الأوامر بتنفيذ مذبحة، ولكنه يعتمد على دفع السكان الى التضور جوعا، والى الوفاة نتيجة للعطش والأوبئة». وكانت هذه الافتتاحية مجرد ترديد للعبارات التي كتبها هارونسون في رسالة وجهها قبل عدة أيام الى وسائل الاعلام العالمية. وكان جمال باشا قد بدأ يدرك مدى خطورة النشاط الذي يقوم به مساعده السابق هارونسون، ولذلك أشار اليه في حديث له باعتباره نموذجاً واضحاً للغدر اليهودي. ومع ذلك كان نشاط هارونسون يؤدي أيضاً الى إحراج المؤسسات اليهودية العالمية القائمة منذ زمن طويل.

وكانت اللجنة المصرية للاجئين الفلسطينيين تعتقد انها يجب ان تشترك في توزيع الأعمال ولذلك طلبت من رفائيل أبو لافية أن يقترح على هارونسون تشكيل لجنة من خمسة أعضاء لهذا الغرض، ولكن هارونسون رد قائلا: «انني لست موظفاً حكومياً، ولا اهتم بتشكيل اللجان. انني أعمل كفرد، وأتحمل بنفسي أي خطر أو مسؤولية. ويستطيع الناس الحكم على النتيجة». وقال هارونسون أيضا انه لا يحتاج الى مساعدة إحدى اللجان للحصول على أموال من امريكا.

وكانت سارة تقوم بدور حمامة السلام في القاهرة، وكان الكل يحبها، ويرغب في بقائها، ولكنها كانت مصممة على العودة الى اسرتها في زخرون ياكوف والى محطة عتليت. وكان هارون يعتقد أنها معرضة لخطر كبير هناك بسبب عداء هاشومر وخوف اليشوف، كما ان الكابتن ادموندز قال لها: «طلبت مني القيادة العليا ان اوجه لك الشكر على كل ما فعلتيه لنا، وهي تطلب منك ايضا عدم العودة الى فلسطين. ان مصر مفتوحة امامك، وتستطيعين البقاء هنا كما يحلو لك. ان ما قدمتيه كانت له قيمة كبيرة، وهو يكفي في حد ذاته».

وردت سارة بالفرنسية ـ لانها لم تكن تتقن الانكليزية ـ وشكرت الكابتن على عطفه، ولكنها قالت انها لا بد ان تعود. وفي النهاية عادت سارة مع ليشانسكي الى عتليت يوم ١٥ حزيران (يونيو) ١٩١٧، وكانت

السفينة «ماناغام» قد عرجت بهما في البداية على قبرص، حيث تدرب يوسف ليشانسكي على استخدام المواد المتفجرة لنسف جسر مجومي وبعض اقسام خط دمشق للسكك الحديدية، عندما تحين اللحظة المناسبة. وتوجه معهما ايضاً الى عتليت ليوفا شنيرزون بعد ان مل هارون من حديثه الحزين والمستمر عن وطنه روسيا.

* * *

وبعد ظهور اللنبي على الحلبة، انتقل ماينر تساغن مع مقر القيادة العامة الى العريش، وتم استدعاء هارونسون للانضمام اليه هناك. وبرغم ان أوامر القائد العام الجديد كانت لها الأولوية، فان هارونسون كان مشغولاً بأشياء أخرى، من بينها توزيع الأموال على اليهود الذين خرجوا من يافا. وكان وايزمان يرغب في توزيع هذه الأموال عن طريق بنك فلسطين الانكليزي في يافا الذي كان يديره شخص هولندي، ولكن هارون اعترض على ذلك بشدة، كما انه كان قلقاً من احتمال التأخير في وصول الأموال الى وجهتها. وكانت وزارة الخارجية البريطانية تشعر بالقلق أيضاً بشأن تخصيص الكميات الهائلة من الأموال التي كانت تتدفق من كافة أنحاء العالم على خزائن لجنة الاغاثة في بريطانيا. ولم يكن كل فرد في وزارة الخارجية البريطانية يؤيد يهود فلسطين، وعلى سبيل المثال قال كيدستون الذي كان وكيلا للوزارة: «ان اليهود يعانون الآن من اضطهاد يقل عن الاضطهاد الذي تعرض له الأرمن لفترة طويلة على يد «جمعية الاتحاد والترقي» التي كان لليهود اشتراك فعال بها. وانني أشك شخصياً الى حد كبير في ما اذا كانت تلك الأموال ستصل الى الذين يعانون حقيقة في فلسطين. ان وايزمان لديه قدر كبير من المال تحت تصرفه، ولا أعرف السبب الذي جعله لا يرسل أيا من هذه الأموال. واعتقد انه لا بد من اخطاره بأن لجنة القاهرة تشعر بنفاد صبرها».

وقرر الزعيم اليهودي ان يطلب الى هارونسون أن يصبح سكرتيراً للجنة القاهرة، بعد ان شعر بالاضطراب الناتج عن الخلافات بين لجنته ولجنة القاهرة. وفي يوم ٢٣ آب (اغسطس) ١٩١٧ أرسل وايزمان عن طريق غراهام وكيل الوزارة برقية الى هارونسون قال فيها: «نحن ندرك

مدى تقدير السلطات العليا لقدراتك وللمجهود الشخصي الذي تبذله، ولذلك نلح في الرجاء بأن تتولى منصب سكرتير اللجنة الجديدة المقترحة التي ستعمل على أساس مبدأ الاشتراك الجماعي في المناقشات والقرارات والمسؤوليات. وسوف نتعاون عن طيب خاطر مع لجنتكم ونشجع عملها، وذلك على اساس ان تفعلوا الشيء نفسه بالنسبة لنا».

ووقع على هذه البرقية كل من وايزمان، والصحافي الروسي اليهودي المهاجر ناحوم سوكولوف الذي كان يتمتع باعتبار كبير بين اوساط اليهود.

وكان اهتمام وزارة الخارجية البريطانية بالأمر يتعدى مشاعر وكلاء الوزارة بالتعاطف او بالعداء لليهود وللاقليات الاخرى التي تعاني في سورية. ولهذا السبب كتب السير آرثر نيكولسون قائلا: «ان موقفنا الحالي تجاه المسألة الفلسطينية يقوم من وجهة نظري على اساس صيغة حل وسط بين تشجيع الأماني القومية لليهود، وتجنب شكوك الحزب الاستعماري الفرنسي».

وفي تموز (يوليو) ١٩١٧ كان هارونسون يتنقل في سيناء، لكي يبين لمهندسي الجيش البريطاني أفضل مصادر للمياه على الخط الذي سيتبعه اللنبي للوصول الى فلسطين. وفي تلك الاثناء تلقى هارونسون رسالة من ليشانسكي يخبره فيها بأن «اليشوف» توقفوا عن معارضتهم، وبأن «نيلي» تحت قيادة سارة محلياً، كانت تحظى بتأييد واسع. وكان عدد كبير من الضباط اليهود في الجيش العثماني يزودون «نيلي» بالمعلومات، كما ان سارة وليشوفسكي أقاما خط اتصال مباشر (عن طريق الحمام الزاجل) بين عتليت ومقر القيادة العامة في العريش. ومع اقتراب الاستعدادات لحملة اللنبي من نهايتها، ومع استعداد هارون للقيام برحلته الثانية الى لندن، كان هناك خطر كبير يتهدد تنظيم «نيلي» وعائلة هارونسون في زخرون ياكوف. وكان نجاح هذا التنظيم في نشاطه يجعل كشفه أمراً محتوماً.

وفي يوم ٢٠ آب (اغسطس) ١٩١٧ أرسل وينغيت تقريراً طويلاً وسرياً للغاية الى وزير الخارجية البريطاني بلفور. وقال وينغيت في بداية هذا التقرير: «كنت أرغب في أن أرسل اليك تقريراً عن الصعوبات التي يعانيها هارونسون محلياً وفي تعامله مع المنظمة الصهيونية في لندن، ولكن حدثت في الآونة الأخيرة مناقشة حامية بين هارونسون والكولونيل

ديدن، أدت الى تغيرات في الموقف».

وأوضح تقرير وينغيت انه كانت هناك خلافات عميقة بين هارونسون والممثلين السياسيين لأغلبية اليهود في فلسطين. وكان هارونسون قد طلب من ديدز ووينغيت ان يصدرا منشوراً الى الشخصيات اليهودية المهمة في كافة أنحاء العالم لاطلاعهم على الموقف الحقيقي في فلسطين، وبين أوساط اليشوف بصورة عامة. وكان هارونسون يعتقد ان الموقف الحقيقي هناك غير معروف عالمياً، وان اليهود انفسهم يشتركون مع الاتراك في اخفاء حقائق ذلك الموقف.

وكان زعماء اليهود الفلسطينيين قد وعدوا بعدم خيانة منظمة «نيلي» أو مهاجمتها، ولكنهم كانوا لا يرون ان هناك أي فائدة في استفزاز الأتراك. وكان زعماء اليشوف قد قرروا ارسال رجلين الى قبرص للاجتماع مع هارونسون الذي كتب تقريراً مفصلا للاستخبارات البريطانية، تحدث فيه عن علاقته الوثيقة مع جمال باشا في الماضي، وعن معرفته الشخصية بخطط جمال لاخلاء يافا من سكانها، وعن الاجتماعات السرية التي عقدها في القسطنطينية مع ليشتهايم ممثل المؤتمر الصهيوني هناك، ومع السفير الالماني، وأيضاً مع هوفمان فيليبس القائم الامريكي بالاعمال هناك. وهاجم هارونسون في تقريره زعماء اليهود في فلسطين بحدة قائلا: «ليست هناك قيمة لنفي زعماء اليهود في فلسطين للأعمال الوحشية التي يقوم بها الأتراك، لان هذا النفي صدر بعد تهديدهم، ولانه يثبت أنه كان هناك شيء ما يستحق النفي».

وكان موقف وينغيت واضحاً، فقد أرسل يوم ١٤ آب (اغسطس) ـ قبل تاريخ تقرير هارونسون ـ برقية الى وزارة الخارجية يطلب فيها «موافقة فورية» على ما طلبه من قبل. وقال وينغيت في برقيته الى بلفور ان من بين الأسباب التي تدعو الى عدم إثارة عداء هارونسون «ان السلطات العسكرية تعلق أهمية كبيرة على الاحتفاظ بخدمات التنظيم الذي أقامه في فلسطين».

ولكن كانت هناك أمور أكثر أهمية في آب (اغسطس) ١٩١٧. فقد كانت حركة الحكم الذاتي العربية بزعامة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ـ الذي كان يعيش في المنفى في مصر ـ تشك بصورة متزايدة في اتفاق

سايكس وبيكو، برغم ان هذه الحركة لم تكن تعرف أي شيء حتى ذلك الوقت عن بنود هذا الاتفاق. وكانت هذه الحركة تزداد تشددا في معارضتها للخطط الانكليزية الفرنسية. وكان مكتب برن قد حذر مدير الاستخبارات العسكرية في لندن من أن الاتراك يقترحون على المانيا عرض الحكم الذاتي على العرب في سورية والعراق، بينما كان مجلس الوزراء البريطاني يوشك ان يمنح فلسطين لليهود.

وفي ايلول (سبتمبر) ١٩١٧ تلقت وزارة الخارجية البريطانية برقية من وينغيت يقول فيها «ان هارونسون يود التوجه الى انكلترا فوراً للاجتماع مع وايزمان وآخرين. واعتقد ان هذه هي الوسيلة الوحيدة لتسوية الخلافات بينهما. وتعتقد السلطات العسكرية ان هذه الزيارة ضرورية». وهكذا وصل هارونسون الى لندن في نهاية الشهر لتجديد اتصالاته مع طومسون وهول وماكدونا، ولكي يتعرف بصورة وثيقة على سايكس وعلى جون بيوتان مدير الاعلام بالخارجية البريطانية.

وكان الكابتن هول قد حقق قبل ستة أشهر من زيارة هارونسون اكبر انتصار في حرب الاستخبارات، عندما حل شيفرة العدو، وفك رموز برقية تسيمرمان الشهيرة الى امريكا عن طريق ستوكهولم وبوينس ايرس، والتي استخدم فيها الالمان سلاح التهديد بالغواصات لاجبار الرئيس الامريكي على قبول التحالف بين المانيا والمكسيك. وكان هو يعتقد ان كتاب الشيفرة الذي استخدمه خبراء مكتبه في فك رموز هذه البرقية، كان يخص فاسموس. ولكن هذا الكتاب كان يخص في الحقيقة القنصل ليستمان، وقد استولى عليه هيستينغز عندما اقتحم غرفة نومه. وكان الاهتمام الأساسي لخدمات الاستخبارات والدعاية البريطانية منصباً منذ ربيع ١٩١٧ على النفوذ العالمي لليهود. ومع استمرار استعدادات اللنبي لحملته في تموز (يوليو) ١٩١٧، تولى فون فالكنهاين رئيس الأركان الالماني السابق قيادة فلول «ييدريم» والجيش السوري السادس، التي توحدت الآن تحت اسم «الفيلق الآسيوي» وتولى أيضاً التخطيط لهجوم مضاد في العراق.

وازدادت الخلافات حدة بعد انتشار انباء المباحثات السرية التي كانت تدور في لندن بين بلفور ووايزمان، والتي كان اللورد روتشيلد يلعب دوراً كبيراً فيها. وفي حزيران (يونيو) طلب هارونسون ـ قبل سفره الى

لندن ـ من مورغنثاو السفير الامريكي السابق لدى القسطنطينية، أن تؤيد الولايات المتحدة نشاطه في فلسطين. وكان الرئيس ويلسون يعرف أن كلا من المانيا وبريطانيا يدرس اصدار تعهدات لليهود بشأن مستقبل فلسطين، مع القيام بمبادرات سلام في الوقت ذاته، ولذلك قرر ارسال مورغنثـاو الى مصر لمقابلة هارونسون واللجنة الصهيونية هناك، والى سويسرا للاتصـال بممثلي التحالف المركزي. وبمجرد سماع الحكومة البـريطانية عن هذه المهمة طلبت من وايزمان مقابلة مورغنثاو لاقناعه بالعـدول عن تنفيـذ تلك المهمـة التي كان يصحبه فيها رجل القانون الامريكي والزعيم الصهيوني البارز فيليكس فرانكفورتر. وتمكن وايزمان بالفعـل من اقنـاع مورغنثاو بقطع رحلته، ولكن بعد أن قابل المندوب الفرنسي الكولونيل ديل في جبل طارق. وقابل وايزمان في باريس «رجل الخير» البارون ادمون دي روتشيلد، ثم عاد الى لندن يوم ٢٢ تموز (يوليو).

* * *

وكتب اللورد روتشيلد الذي كان رأساً للفرع البريطاني من الأسرة وزعيماً لليهود البريطانيين خطاباً في ١٨ تموز (يوليو) ١٩١٧ الى بلفور يجسد فيه الآمال والمطامح التي عبر عنها قبل عامين هربرت صموئيل في تقريره الى مجلس الوزراء. ومع ذلك كانت هناك مشكلة واحدة تتمثل في معارضة العضو اليهودي الوحيد في الحكومة البريطانية للفكرة.

وكان ادوين مونتاغيو الوكيل البرلماني لوزارة الهند قد كتب رسالة الى رئيس الوزراء يطلب مقابلته قائلا:

«عزيزي رئيس الوزراء
انني اتوق الى الحديث معك
كما تتوق رمال الصحراء الى المطر
وكما يتوق سكان لندن الى الشمس
وكما يتوق الفقراء الى البطاطس
وكما يتوق مالك العقار الى الحصول على الايجار
وكما يتوق العنكبوت الى الذبابة

وكما يتوق هربرت صموئيل الى فلسطين
وكما تتوق امرأة على جسر واترلو الى جندي».

وكان مونتاغيو اليهودي الذي ينحدر من شرق لندن يرغب في تولي منصب وزير الخزانة، ولكن لويد جورج عينه في وزارة الهند. وكان مونتاغيو يعارض بشدة القضية الصهيونية وفكرة الدولة اليهودية، وقد أصبح المستشار المقرب لرئيس الوزراء في الوقت الذي كانت فرنسا قد أصبحت فيه مرهقة من الحرب ومستعدة للسلام، وعندما كانت الحكومة البريطانية تحتاج بشدة الى إثارة الطوائف اليهودية في شتى انحاء العالم، وخصوصاً الطائفة اليهودية القوية في امريكا، بهدف الحصول على مساندتها للحلفاء في الحرب.

وفي ذلك الوقت كانت الصحف البريطانية تهاجم ايضا استراتيجية الحكومة تجاه الشرق. ووقع اللوم بصورة رئيسية على عاتق هاردنغ الذي كان يعارض بشدة - عندما كان نائباً للملك - «المغامرة الشرقية» للحكومة البريطانية. وقد هاجمته الصحف بعد نشر التقرير والمناقشات البرلمانية عن الحملة على العراق في تموز (يوليو)، ودعته الصحف والبرلمان الى الاستقالة من وزارة الخارجية، حيث كان يشغل منصب وكيل الوزارة المسؤول عن الشرق الاوسط. وفي شهر تموز (يوليو) ايضا اعترف تشامبرلين بمسؤوليته السياسية عن الاخطاء التي صاحبت الحملة على بغداد، وقدم استقالته بعد نشر التقرير البرلماني. ولكن لم يكن من المتوقع ان يتنحى المسؤول الرئيسي، لويد جورج، عن منصب رئيس الوزراء، كما ان الخبيرين الآخرين في شؤون الشرق لم يعد لهما صوت، اذ توفي اولهما، وهو كيتشنر، بينما خرج الثاني، وهو ونستون تشرشل من منصبه. وظل لويد جورج على اصراره على صحة موقفه، ورفض قبول استقالة هاردنغ او محاكمته، ومنح وظيفة تشامبرلين الى مونتاغيو الطموح، برغم ان الملك قال انه يرغب في ان يخلف النائب اليهودي مونتاغيو تشلمز فورد في منصب نائب الملك.

ولم يدخل مونتاغيو في المناقشات الدائرة حول فلسطين حتى آب (اغسطس) ١٩١٧ وحتى عاد وايزمان من باريس قائلا ان مورغنثاو وفرانكفورتر الغيا رحلتهما الى سويسرا لمقابلة مندوبي تركيا، وبعد ان أخطر وينغيت لندن بأن «موقفي تجاه هارونسون ورفقاءه ما زال غامضاً

بعض الشيء، رغم انني ممتن للبرقية التي بعثتموها بتاريخ ١٨ تموز (يوليو) والتي ذكرتم فيها ان بلفور ولويد جورج اصدرا تأكيدات عامة بتأييدهما للمنظمات الصهيونية (...) وقد فهمت انكم ترغبون في ان أقوم باسترضاء هارونسون دون ان أذكر له اي شيء محدد».

واختار مونتاغيو هذا التوقيت لكي يتقدم بنداء حار لزملائه بعدم المضي قدما في اصدار بيانهم. وكتب تقريراً الى مجلس الوزراء تحت عنوان «المعاداة للسامية في الحكومة البريطانية». وكان تقريره منصباً على أن مثل هذا البيان سيثير مشاعر العداء للسامية في كافة انحاء العالم، وقال «كانت الصهيونية تبدو لي باستمرار اتجاهاً سياسياً شريراً، ولا يستطيع أي مواطن بريطاني مخلص اعتناقه». وأشار مونتاغيو أيضاً الى التقارير التي كتبتها غيرترود بل عن الاتراك في آسيا. وكانت غيرترود بل تشغل في ذلك الوقت منصب مساعد المسؤول السياسي في بغداد، وكان معظم اعضاء مجلس الوزراء البريطاني يعرفونها. وقد كتبت غيرترود بل عن «الاجناس غير العربية» التي تنظر الى فلسطين باعتبارها «الارض التي تستحقها عن طريق الوراثة». وتحدثت غيرترود بل ايضا عن الهجرة التي يتم تشجيعها بصورة غير طبيعية عن طريق الهبات والتبرعات التي يتقدم بها أصحاب الملايين في اوروبا، وعبرت عن شكها في رغبة اليهود المحليين في انشاء «دولة يهودية».

ومن أجل مقاومة التأييد للبيان المقترح، جمع مونتاغيو أقوالا ليهود بارزين من الساسة والحاخامات والعلماء والفلاسفة، وكلهم لا يثقون بالصهيونية ويشعرون بالولاء للدول التي ولدوا فيها. وعلى سبيل المثال كتب العالم والنائب الفرنسي اليهودي جوزيف ريناك: «انني من الاعداء المتشددين للصهيونية. ان القدس تنتمي الى الاديان كلها، ونحن نعرف تاريخها على مدى ٣ آلاف عام، والمملكة اليهودية لم تستمر هناك لأكثر من ٥٠٠ عام». وكتب لويجي لوزاتي رئيس الوزراء الايطالي السابق: «اليهودية ليست جنسية، وانما ديانة». وكانت الكلمة الاخيرة في هذه المناقشة الحامية لرئيس المجلس اليهودي للاوصياء ل. ل. كوهين، الذي قال: «ان الدعوة الى اقامة وطن قومي للعنصر اليهودي في فلسطين تفترض مسبقاً ان اليهود يشكلون أمة، ولكنني انكر ذلك. وتفترض هذه الدعوة أيضاً انهم مشردون، الأمر الذي يعني أنهم يشكلون كيانات

منفصلة في الدول التي يتمتعون فيها بالحرية الدينية وبالحقوق الكاملة للمواطنين، ويعني أنهم لا يهتمون بمصالح الدول التي يشكلون جزءاً منها، وهذا افتراض انكره ايضاً».

ولكن لم تكن هناك فائدة من ذلك كله، فقد كانت حكومة حزب الاحرار البريطاني والمسيحية المتحررة قد عقدتا عزمهما، وأصبحت نتيجة المناقشات محتومة بسبب مقتضيات الحرب، وبسبب تأييد الرئيس الامريكي لاعلان النوايا الخاصة بفلسطين. وكان سي. بي. سكوت رئيس تحرير صحيفة «مانشستر غارديان» قد كتب في شباط (فبراير) مقالا يطلب فيه من لويد جورج عدم السماح للحكومة الفرنسية أو لوزارة الخارجية البريطانية بالتأثير على الحوار الذي كان على وشك البدء بين وايزمان واللورد روتشيلد ومارك سايكس. وكان وزير الخارجية البريطاني يعتبر منذ زمن طويل ان اعادة فلسطين الى اليهود ستحقق العدالة التاريخية، وستريح الضمير المسيحي الذي تحدث عنه في كتابه «أسس الايمان». وكان سايكس قد ذكر اثناء مناقشة قانون الهجرة عام ١٩٠٥، عندما كان رئيسا لحكومة المحافظين ان معاملة اليهود في اوروبا تمثل «وصمة على جبين المسيحية».

وكان دور سايكس شاملا، لأنه اشترك في اعداد وعود للشريف حسين التي تعطي فلسطين للعرب، كما اشترك في اعداد اتفاق سايكس ـ بيكو السري والذي جعل فلسطين التي لم يرسم اي شخص حدودها خاضعة للاشراف الدولي بحيث تسيطر بريطانيا على مينائها الرئيسي في حيفا. وكان سايكس ايضا القوة المحركة وراء وعد بلفور الذي نادى بمنح فلسطين للصهاينة. وكان سايكس ـ كما هي عادته دائما ـ يتصرف تجاه الصهيونية وكأنه من معتنقيها.

وانقطعت مناقشات مجلس الوزراء البريطاني حول هذا الموضوع يوم ٣ ايلول (سبتمبر) ١٩١٧ مع وصول تقرير من مدير الاستخبارات العسكرية عن خطة فرنسية غير واضحة الملامح لاقامة دولة يهودية في اقليم الاحساء التابع لابن سعود. وكانت الحكومة الفرنسية قد أكدت لوزارة الخارجية البريطانية تعاطفها مع الآمال الصهيونية، ولكنها خرجت الآن بفكرة تشكيل ميليشيا يهودية للاستيلاء على الأرض التي استعادها ابن سعود من الأتراك عام ١٩١٣. وذكر مونتاغيو مجلس

الوزراء بان بريطانيا تلتزم بموجب المعاهدة مع ابن سعود «بمساندته هو واتباعه بصورة عامة». وهكذا رفضت بريطانيا الخطة الفرنسية.

* * *

ووصل هارونسون الى لندن في الوقت المناسب للاشتراك في المراحل الاخيرة من المناقشات وفي الوقت الذي قررت فيه الحكومة البريطانية استطلاع رأي الرئيس ويلسون. وبعد وصول هارونسون بوقت قصير، توجه مع وايزمان وسوكولوف الى باريس لمقابلة البارون دي روتشيلد. وكان ذلك الوقت عصيباً بالنسبة لهارونسون لأنه لم يستطع الاتصال بشقيقته سارة قبل مغادرة القاهرة، كما ان جنود جمال باشا هاجموا عتليت ومنظمة «نيلي» في وقت سفره. وكتب هارون الى شقيقه أليكس الذي وصل من امريكا لأداء مهام هارون في القاهرة، خطابا قال فيه:

«وصلت الى هنا يوم ٢١ ايلول (سبتمبر) وقابلت رجل الخير (روتشيلد) الذي وجه اليّ بعض الاسئلة، ولكنه لم يتطرق الى موضوعات معينة.. وهو يشعر مثلي بأننا يمكن ان نحصل على أشياء عظيمة اذا تولت بريطانيا حكم بلادنا، ولكنه لا يستطيع الحديث، لأنه ليس هناك أي شيء محدد ولأنه تعهد بالصمت (...) وقد حضر مارك سايكس الى هنا واخبرني بكل شيء، وبين لي ان هناك عدداً كبيراً من الاعداء لقضيتنا، ومعظم هؤلاء الاعداء من اليهود، وهو شيء خطير بالنسبة لتنظيمنا. وقال لي سايكس ان خطابي الى وايزمان كان قذى في عين وايزمان نفسه، ورجاني سايكس ان اتصالح مع وايزمان وأن لا اختلف معه، وقال انني يجب ان استمع الى وايزمان وسوكولوف. قلت له انني لست ذاهبا الى لندن للاختلاف، بل لأعرفهما باخطائهما، وابين لهما الطريق الصحيح».

وقال هارونسون في احدى رسائله الى شقيقه ايضا ان «بيكو سيغادر باريس خلال اسبوعين أو ثلاثة وسيتوجه الى القاهرة. وسيعمل هناك مع الجنرال كلايتون، وهو الشخص الذي طلبت منك محاولة التعاون معه». وكان سايكس قد أبرق الى هارونسون يطلب منه انتظاره في باريس قبل التوجه الى لندن. وفي الوقت نفسه اجتمع هارونسون مع ويليام ييل الذي يعرفني منذ ايام القدس، عندما كان يعمل في شركة البترول. وكان ييل قد

أصبح الآن مستشاراً للحكومة الامريكية لشؤون الشرق الاوسط. ويواصل هارون الحديث عن بيل قائلا: «تحدثت معه بالتفصيل، وهو يهتم اهتماما كبيراً بالشؤون الشرقية. حاول ان تصادقه الى اقصى حد ممكن لانك ستحصل منه على معلومات تحتاج اليها، وخصوصاً بشأن الاحداث في مصر». وقابل هارونسون في باريس ايضا شخصاً امريكيا آخر كان يعرفه منذ ايام فلسطين، وهو غليز بروك، الذي سأقابله مرة اخرى في لندن، وسأتمكن من الوصول الى السفير عن طريقه.

واختتم هارونسون رسالته الى شقيقه قائلاً: «آمل في تلقي القرار الاخير عند وصولي الى لندن، وسأكتب لك عن هذا القرار. ويجب أن تطلع اعضاء اللجنة على هذه الأشياء (...) كما يجب أن تطلع عليها اصدقاءنا: الكولونيل ديدن، والجنرال كلايتون، والليفتنانت فيلدنغ، والمستر ادموندز والآخرين».

وبمجرد وصول هارونسون الى لندن في ايلول (سبتمبر) ١٩١٧ تلقى انباء تفيد بأن استخبارات جمال باشا اكتشفت دلائل على نشاط منظمة «نيلي» في عتليت، فقد تم اكتشاف حمامة زاجلة في «قيصري» - على الساحل - وهي تأكل مع حمام المدير التركي هناك، وكانت هناك رسالة مربوطة في رجلها الى مركز قيادة اللنبي المتقدم. وبرغم ان الاتراك لم يتمكنوا من فك رموز هذه الرسالة، إلا انهم ادركوا ان شيئاً ما يدور في الخفاء. وحضرت السفينة «ماناغام» للمرة الأخيرة يوم ٢٣ ايلول (سبتمبر)، وحملت رسالة من سارة الى القاهرة تقول فيها ان الأتراك يفتشون الساحل، وانها ستتوقف عن العمل في الوقت الحالي، لأنها معرضة مع زملائها لخطر داهم. ومع اقتراب عملية التفتيش التركية من مقر أسرة هارونسون، بدأ السكان المحليون في المنطقة يتحدثون عن «الأعمال القذرة» التي تقوم بها هذه الأسرة، وبدأوا يقولون لسارة ورفقائها انهم يهددون اليشوف بأكمله.

وفي أول تشرين الأول (اكتوبر) وصل جنود جمال باشا الى زخرون ياكوف. وكانت سارة وحدها في المنزل مع والدها، بينما اختبأ شقيقها الأصغر زفاي، وابن عمها روبين شفارتز وليشانسكي والآخرون في أماكن قريبة من المنزل. واستمر الجنود الأتراك في ضرب سارة لمدة ٤ أيام وبدأ الآخرون يستسلمون واحداً وراء الآخر بعد سماعهم صراخها. وفي

يوم ٥ تشرين الأول (اكتوبر) قرر الجنود اصطحاب الجميع الى الناصرة لكي يستجوبهم هناك حسن بك كبير أطباء الجيش الرابع الذي كان يشتهر بوسائله في معاملة الجواسيس. واستأذنت سارة في الذهاب الى الحمام وهناك انتحرت عن طريق اطلاق الرصاص على نفسها خلال الفم.

وفي السجن في الناصرة أصيب افرام هارونسون بمرض التيفوس، وكان ذلك سبباً في انقاذ حياته. ومات روبين شفارتز شنقاً، ولم يعرف أحد ان كان قد انتحر، أم ان الاتراك شنقوه. وسجن زفاي في دمشق ثم أصبح قعيداً طوال حياته نتيجة للتعذيب. وشنق افراد آخرون من أعضاء تنظيم «نيلي».

واختبأ ليشانسكي لدى أصدقائه القدامى من أفراد هاشومر، ولكن الاتراك هددوا بتدمير قرية زخرون ياكوف بأكملها اذا لم يتم تسليمه اليهم. وقررت هاشومر اغتياله برغم حصوله على حمايتها، وأرسلت بالفعل فريقاً لقتله، ولكنه أصيب فقط وحاول الوصول الى مواقع اللنبي المتقدمة، ولكن البدو اسروه وسلموه للأتراك. وتم اعدام ليشانسكي مع نعمان بلكيند الذي يعتقد انه ابلغ الاتراك عن تنظيم «نيلي» في يوم واحد، هو ١٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧. ويقال ان المسؤولين الألمان في فلسطين قاموا بمحاولات متعددة لصالح هؤلاء المعتقلين، وبذلك تم اطلاق سراحهم بالفعل، بينما تم سجن البعض الآخر وتجنيدهم للخدمة في الجيش التركي.

وكان المثقفون اليهود يعلمون ان الدول المتحاربة تتنافس في سبيل كسبهم الى صفها. ففي أيار (مايو) ١٩١٧ اخطر السير رينيل رود السفير البريطاني لدى روما بلفور بأن وزير الخارجية الايطالي تلقى طلباً بمقابلة شخص «صهيوني» هو سوكولوف. واستمر رود في تقريره قائلا: «ولم يكن الوزير الايطالي ميالا الى عقد هذا الاجتماع، لانه لم يكن راغبا في معالجة الموضوع رسمياً بأي صورة من الصور. ومع ذلك أصبح بعد ذلك يميل الى النظر بعين العطف الى الأفكار التي عرضها عليه سوكولوف، ولم يكن لديه أي اعتراض اطلاقاً على الاقتراح الخاص بانشاء مستعمرات يهودية في فلسطين».

***

وقبل عدة أيام من هذه المقابلة كان الكوماندر ويدجوود عضو البرلمان البريطاني قد وجه سؤالا الى بلفور في مجلس العموم عما اذا كانت بريطانيا قد قدمت «أي تعهدات لفرنسا أو ايطاليا يمكن ان تعوق اقامة دولة فلسطين اليهودية المستقلة والمتكاملة تحت الحماية الامريكية او البريطانية». ورد اللورد روبرت سيسيل نيابة عن وزير الخارجية قائلا انه لا يستطيع الاجابة على اسئلة تتعلق بالتعهدات التي قدمت للدول الحليفة بشأن شروط السلام. وجاء في اوراق وزارة الخارجية انه لم يكن من السهل الاجابة على هذا السؤال، «ونحن ملتزمون في الوقت الحالي باقامة ادارة دولية في فلسطين».

وكانت هناك ايضاً احداث جانبية مصاحبة لتلك الوقائع. ففي يوم ٩ حزيران (يونيو) ١٩١٧ القى مارماديويك بيكتول ـ الذي كان متهماً بأنه عميل للعدو منذ عودته من القسطنطينية ـ محاضرة أمام جمهور غفير في كاكستون هول بلندن عن «المصالح الاسلامية في فلسطين». واستمع الى هذه المحاضرة ممثلون عن دول اسلامية عديدة، وكذلك ممثلو الاستخبارات البريطانية. وكان رجال الاستخبارات البريطانية يراقبون النشاط الاسلامي في ذلك الوقت عن كثب، كما بحثوا عن كاتبي عدد من الرسائل باللغة العربية الى مجلة «القبلة» التي كان يصدرها شريف مكة بأموال بريطانية.

وتم بالفعل اكتشاف هوية كاتبي هذه الرسائل: سيدتان متقدمتان في السن اعتنقتا الاسلام، وهما ماي اثرنغتون وايثيل اثرنغتون.

والأهم من ذلك ان وزارة الخارجية البريطانية وزعت على أعضاء مجلس الوزراء في شهر حزيران (يونيو) مقالا بقلم البروفسور غوستاف دوبيلر نشرته صحيفة «رايشز بوته» الالمانية المحافظة التي تصدر في برلين. وقالت الخارجية البريطانية ان هذا المقال يدل على سعة اطلاع. ويدعو البروفسور الالماني في مقاله الى دعم الدولة العثمانية عن طريق نفوذ اليهود في منطقة «الجسر الموصل بين مصر والهند» مع عدم اخفاء الأعمال السياسية الالمانية «تحت ستار النفاق كما تفعل انكلترا». واختتم البروفسور الالماني مقاله بالعبارات التالية:

«تماماً كما تستخدم النيران في اطفاء حرائق الغابات، فاننا نستطيع افساد آخر خطة امبريالية انكليزية عن طريق توقع نوايا انكلترا

واستباقها. ان اقامة دولة يهودية تحت السيادة التركية سيمثل بالنسبة لنا اجراء دفاعيا، تماما كما نستخدم حرب الغواصات رداً على الحصار الانكليزي. انه أسلوب استخدام النيران لمقاومة النيران».

وفي اليوم الذي توجه فيه رجال الدرك التابعون لجمال باشا الى زخرون ياكوف، وصلت الى لندن رسالة من مركز الاستخبارات البريطانية في برن تقول:

«يقال انه عقد مؤخراً اجتماع في برلين حضره الهر فون كولمان وجمال باشا وأحد الصهاينة البارزين، وذلك بهدف مناقشة مسألة فلسطين. وقد تم اصدار وعود معينة لليهود بهدف ضمان تعاونهم في قرض الحرب الجديد. وقيل أيضاً ان الكونت برنشتورف (السفير الالماني السابق في امريكا) أجرى اتصالات مع اليهود في القسطنطينية، بينما عقد الوزير الالماني المفوض في برن اجتماعاً مطولاً مع أحد اليهود البارزين لبحث الموضوع نفسه (...) ويبدو ان الحكومة الالمانية تقوم بمحاولة لافساد تأثير الجهود البريطانية لتحرير فلسطين .

برن في ٢ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٧ »

وفي يوم ٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٧ أرسل بلفور مسودة منقحة من الصيغة المقترحة الى الكولونيل هاوس، رداً على رسالة من الرئيس الامريكي وجاء في هذه المسودة «بالنظر الى التقارير التي تقول ان الالمان يقومون بجهود كبيرة للسيطرة على الحركة الصهيونية فان مجلس الوزراء البريطاني درس مرة أخرى موضوع ان تبعث الحكومة البريطانية رسالة تعاطف الى الحركة الصهيونية». وفي يوم ١٦ تشرين الاول (اكتوبر) جاء رد الرئيس الامريكي بالموافقة، ثم تم توزيع ردود الشخصيات اليهودية البارزة على اعضاء مجلس الوزراء البريطاني في ٢٢ تشرين الأول (اكتوبر). وفي يومي ٢٤،٢٥ من الشهر نفسه، تم اجراء مزيد من المناقشات في داوننغ ستريت (مقر رئيس الوزراء البريطاني)، كما أرسل كورزون الى وزارة الحرب تقريراً عن «الصهاينة واعداء الصهاينة» داخل الطائفة اليهودية. وقال سايكس في رده ان «فلسطين مكان قذر، واذا لم يذهب اليهود الى هناك، سيذهب غيرهم إليها، فالطبيعة تمقت الفراغ». وكان مجلس الوزراء قد اطلع قبل ذلك

على آراء «اللورد كرومر الراحل» في شكل مقال كتبه لمجلة «سبكتاتور» قبل وفاته مباشرة. ونقل هذا المقال عن آشر غينسبرغ (الذي كان يطلق على نفسه اسم آحد هاعام (واحد من الناس) قوله: «هل أحسد اليهود من امثالي على تحررهم؟ انني أقول بكل صدق واخلاص: كلا، بل كلا وألف كلا. ان هذه الامتيازات لا تستحق الثمن الذي يدفع من أجلها».

والأهم من ذلك ان الحكومة البريطانية تلقت في منتصف تشرين الأول (اكتوبر) انباء توقيع معاهدة عسكرية في القسطنطينية بين تركيا والمانيا. وقد وضع الخطوط العريضة للتعاون بين الدولتين، في أثناء الحرب وبعدها، جاويد اليهودي البارز في الحكومة العثمانية.

وفي يوم ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) أرسل وزير الخارجية البريطاني النص النهائي لخطابه التاريخي الى اللورد روتشيلد وجاء فيه الالتزام التالي: «تنظر الحكومة البريطانية بعين العطف الى اقامة وطن قومي للعنصر اليهودي في فلسطين، وسوف تحاول بكل ما تستطيع من قوة تسهيل تحقيق هذا الهدف». ورد روتشيلد على هذا الخطاب يوم ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) معبراً عن شكره وامتنان «جماهير غفيرة من الشعب اليهودي».

وفي الوقت الذي صدر فيه هذا الوعد قام الثوريون الذين يتزعمهم لينين باقتحام لقلاع روسيا، وكان في طليعتهم السياسية عدد كبير من اليهود الذين كانوا يتحدثون عن الحرية والليبرالية وعن تصحيح اخطاء الماضي. وكان من بين الأعمال الأولى التي قام بها البلاشفة في مجال السياسة الخارجية كشف بنود اتفاق سايكس ـ بيكو للاتراك وللعالم، والغاء الاتفاق الانغلو ـ فرنسي مع روسيا في ١٩١٥، والذي كان ينص على منح القسطنطينية لقيصر روسيا.

وشعر يهود العالم بالسعادة للوعد البريطاني الذي صدر بعد شهر واحد من القضاء على تنظيم «نيلي»، وأصبح التركيز الآن على تجنيد اليهود من أجل الاشتراك الفعال في المجهود الحربي. وكانت القوات الامريكية تقاتل بالفعل في اوروبا، كما كانت هناك فرقة امريكية في طريقها الى الشرق الأوسط. وبعد يوم من الاعلان عن خطاب بلفور الى اللورد روتشيلد، وزع بلفور على اعضاء مجلس الوزراء البريطاني خطط السير رونالد غراهام لتشكيل قوة يهودية مقاتلة.

وقال وزير الخارجية البريطاني لمجلس الوزراء: «عقدت اجتماعا في الليلة الماضية حضره السير مارك سايكس، والدكتور وايزمان والمستر سوكولوف والمستر هارون هارونسون، وذلك بهدف بحث افضل السبل للاستفادة السياسية الكاملة من الموقف الجديد». وكان البلاشفة قد اقتحموا القصر الشتوي، وكان من المعتقد ان الاهتمام الرئيسي يجب أن ينصب على روسيا التي يلعب فيها اليهود دوراً ثورياً جديداً، «يتوق الصهاينة الآن الى القاء ثقلهم كله في الحلبة (...) ومن الواضح ان روسيا هي الدولة التي نستطيع فعل الكثير فيها». وكانت الخطة تنص على ان ترسل بريطانيا الى روسيا كلا من سوكولوف وتشلينوف (زعيم الصهاينة الروس في بريطانيا) وجابوتينسكي (مؤسس الفيلق اليهودي في الجيش البريطاني، ويمتاز بقدرته الفائقة في التنظيم والخطابة). وواصل بلفور حديثه قائلاً: «انني لا أثق كثيراً في الشخصين الأولين (سوكولوف وتشلينوف)، برغم ان لهما وزناً كبيراً في روسيا نظراً لمركزهما. ولكن جابوتينسكي يمثل الشخص المطلوب لاداء المهمة».

وكان الكولونيل جون بيوكان الذي عين مديراً للدعاية في وزارة الخارجية البريطانية بعد عودته جريحاً من فرنسا ـ يعمل بتعاون وثيق مع جابوتينسكي وهارونسون لصياغة الحملة الدعائية في روسيا وامريكا. وكان يساعد في هذه المهمة بولياكوف مراسل صحيفة «روسكي سلوفو» الروسية في لندن. ونصت الخطة التي تم اعدادها على ما يلي:

«سيتوجه هارون هارونسون الى امريكا حيث ستكون له فائدة كبيرة نظراً لخبرته الواسعة بظروف فلسطين. وسيتوجه الى مصر صاموئيل هارونسون (شقيق هارون الذي انضم اليه في لندن). وسيتوجه وايزمان الى باريس للتنسيق مع البارون ادمون دي روتشيلد، وبعد ذلك يعود الى لندن للاشراف على التنظيم المركزي. وليس هناك شك في أن الصهاينة يشعرون بامتنان بالغ للوعد البريطاني».

وفي نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ أخطر وينغيت لندن بأن الأموال بدأت تصل اخيراً الى اللجنة الخاصة في القاهرة. وكان هناك اقتراح بتشكيل لجنة دولية في لندن تتألف من وايزمان، وجيمس مالكولم الأرمني البارز الذي يعيش في لندن، والسوري المسيحي نجيب هاني، وأحد العرب المسلمين. وسعى سايكس الى الحصول على موافقة مكة

والقاهرة على اشتراك العرب في هذه اللجنة. وفي يوم ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) عقد اجتماع حاشد في لندن اشترك فيه العرب واليهود جنباً الى جنب للترحيب بالتحالف الجديد.

* * *

كانت استعدادات الجنرال اللنبي للحملة النهائية في سورية قد أصبحت جاهزة في آذار (مارس) من عام ١٩١٨. وكانت اللجنة الصهيونية برئاسة وايزمان آنذاك في طريقها الى القدس. وكان هارونسون من بين أعضائها. وكان هذا الأخير قد عاد من امريكا في شباط (فبراير). فأصبح قريباً من موطنه إلا انه ما زال معزولاً عن العائلة والأصدقاء الذين كان بعضهم في السجون التركية والبعض الآخر مدفوناً في قبور بسيطة بزخرون ياكوف.

لقد صعقت اللجنة للحالة التي كانت عليها القدس، المدينة المفتقرة الى المرافق الصحية والخدمات الطبية. وكان اللنبي مصمماً على المحافظة على السيطرة العسكرية على المدن المحتلة الواقعة في خلف صفوفه. ولذا فانه لم يكن ليسمح بنشر وعد بلفور في القدس. ومع ذلك فانه وافق مع الزعماء اليهود على ضرورة تقديم المساعدة على جناح السرعة. فتقرر ان يقطع هارونسون المحيط الأطلسي مرة أخرى للضغط من أجل مضاعفة النشاط السياسي وكذلك للحصول على المزيد من العون المادي من الولايات المتحدة. وسافر عن طريق روما وباريس ولندن، وفي طريقه إجتمع بآليس سليغز برغ رئيسة البعثة الطبية الصهيونية الأمريكية. وكان غادر فرنسا، في اليوم السابع من ايلول (سبتمبر) على ظهر السفينة «لورين»، برفقته البروفسور ليفي الممثل الفرنسي في اللجنة الصهيونية. وأجرى أثناء وجوده في فرنسا محادثات هامة مع القيادة العليا للحلفاء في فيرساي ومع الحكومة الفرنسية.

وفي الوقت الذي كان اللنبي مستعداً فيه للمضي قدماً، خصصت لجيش الأمير فيصل بعض الأدوار المعينة التي كان من المفروض على لورانس ان يشرف عليها بصفته الضابط السياسي للمحاربين غير النظاميين. الا ان لورانس كان كئيباً، ووصل الى القيادة العامة في أم

الكلب بالقرب من العريش وكله أسف وندم. وكان هوغارث في انتظاره على رصيف المحطة. وهناك إعترف له بأنه عبث بالأمور فأفسدها. وجاء ليرجو اللنبي ان يجد له مهمة أصغر شأناً يؤديها في مكان آخر.

وفي تلك الأثناء كان فيصل قد تسلم رسالة تثير الدهشة. إذ كانت اللجنة الصهيونية، قد وصلت آنذاك الى مسرح الأمور وكان هارونسون قد قابل سايكس وهو في طريقه الى القاهرة. أما الرسالة فكانت مكتوبة باسم سايكس وربما كان لهارونسون يد في تحريرها. ومما جاء فيها:

«أكتب لك عن هذه المسألة بكل صداقة (...) أعرف ان العرب يحتقرون اليهود ويدينونهم ويكرهونهم. إلا ان العاطفة تؤدي الى هلاك الأمراء والناس معاً (...) تذكر ان ذلك الشعب لا يسعى لقهرك (...) ولا يسعى لطرد العرب من فلسطين. ان كل ما يطلبه هو ان يتاح له فعل ما لم يفعله في أي مكان آخر، الا وهو العودة الى أراضي أجداده وأسلافه ليفلحها ويعمل فيها بيده كي يغدو فلاحاً مرة أخرى. إن هذه فكرة سامية في روح اليهود. إن هذا الشعب لا يطلب الغنى ولا السلطة (...) إنه يبحث، بعدما تاه ألفي سنة، عن شيء لا يمكن أن يتأتى من الغنى والسلطة (...) إنه تراب الأراضي التي أنجبته».

إن في تلك السطور شيئاً من فلسفة هارونسون. إنه رؤيا الأراضي الصحراوية التي تتحول الى أراضٍ خصبة تدر خيرات زراعية بعمل اليهود وكدِّهم وتعاون العرب معهم كشركاء وبالأموال اليهودية والزعامة اليهودية.

أما بقية السطور فتمثل أسلوب سايكس وربما كانت فيها مسحة من روح لورانس من حيث الصياغة والعبارات:

«يا فيصل، لقد وقفت الى جانبك عندما قدمت الى جدة وسمعتك تبكي حين شاهدت موطنك جدة: إنه عين الشعور الذي يدفع اليهود الى نشدان فلسطين. ثم، يا فيصل، انظر الى الحركة اليهودية بمثابة مفتاح كبير يفضي الى نجاح العرب (...) ناصر العرب في حقوقهم (...) واتخذ الترتيبات القويمة. ولكن قف دائماً بين صديق وحيد بين يتساوى الواحد مع الآخر، وقبل كل شيء إعترف برغبة اليهود في ان يعيشوا حياتهم القومية في فلسطين: إعترف بكونهم حلفاء أقوياء».

لقد قطع اسم مؤلف هذه الرسالة بكل عناية من النسخة الانكليزية

في ملف «المكتب العربي» بالرغم من ان فهرس وزارة الخارجية ينسبها الى سايكس. ويتضح من الرسائل التي تبودلت بين فيصل ووالده في تلك الفترة ان الشريف كان يعارضه في اجتماعه بالأتراك، وخاصة أنهم كانوا يعرضون الانسحاب الى الخط الواقع شمالي الخط الحديدي الممتد بين حيفا ودرعا على وجه التحديد، وهو الخط الذي أصرت عليه بريطانيا في جنيف عن طريق زخاروف، وأن يسمح لقوات الشريف باحتلال المنطقة التي تم الجلاء عنها. لقد أصبح العرب مذعورين حيث كانت الثقة بين الطرفين ضعيفة واهنة، على حد تعبير لورانس، كما أثرت في ذلك الدعاية الماكرة التي بثها مكتب أوبنهايم العربي. فوجود اللجنة الصهيونية، مع كشف النقاب عن اتفاقية سايكس - بيكو ووعد بلفور ورواج الشائعات حول المفاوضات البريطانية السرية مع الأتراك، كلها عوامل إجتمعت لتثير قلق الشريف والوطنيين العرب.

وجاء سبعة زعماء عرب برئاسة رفيق العظم في القاهرة ليشكلوا مشكلة للحكومة البريطانية. فقد رفضوا الاعتراف ببعض اللجان المشكلة في باريس وأماكن اخرى. وأعربوا عن أسفهم لأن يشير أحد التصريحات عن أهداف الحرب الى ضمان السيادة والاستقلال للاقاليم التركية ولكن ليس للأقاليم العربية. وكانوا يتطلعون الى قيام نظام حكومي فيدرالي، لا يختلف عن نظام الولايات المتحدة، يترأسه شريف مكة وفقاً لمبادىء الادارة اللامركزية. وطرح هؤلاء السبعة سؤالين إثنين:

« هل يمكننا ان نؤكد لشعبنا ان حكومة صاحب الجلالة تهدف أولاً الى مساعدتهم (أي شعبنا) على نيل الاستقلال التام في جميع الاقطار العربية، وثانياً - لتشكيل إتحاد مثل الولايات المتحدة».

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٧، أعلنت الحكومة البريطانية تعاطفها مع اقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وأكثر من ذلك تعهدت ببذل كل ما في وسعها لضمان تحقيق هذا الهدف. وقد مكن هذا الاعلان بريطانيا العظمى من كسب تأييد اليهود الصهاينة في جميع انحاء العالم وليس فقط في فلسطين نفسها. ولا بد من ان الآمال التي انطوى عليها هذا الاعلان الذي كان بمثابة تأكيد للسياسة البريطانية، كانت في ذهن هارونسون عندما أبرق من واشنطن الى مقر القيادة العامة بفلسطين يوم العاشر من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ يقول:

«تهانيّ القلبية على نجاحكم الباهر. أثق في انكم ستتولون شخصياً حماية الوالد والشهداء الاحياء الآخرين. انني قلق جدا لصمت اليكس، اين هو الآن؟ أرجوك ان تطلب منه أن يكلف شخصاً ما باجراء تقصٍّ كامل وإرسال تقرير اليّ حول الحالة الحقيقية لمحطة الزراعة والعاملين الذين نجوا وحجم الأضرار. كما أرجوك ان تزودني برأيك حول الاسراع بالعودة الى الوطن أو البقاء هنا».

وقد عاد الى وطنه على عجل، وطلب من رئيس اللجنة الصهيونية في فلسطين، أن يسحب من صندوق الاستعمار الصهيوني أية أموال لازمة للمنزل والحقول الموجودة في زخرون ياكوف، وقد أعاد رفقه الى موطنها زخرون ثم أسرع بالتوجه الى باريس وعرج على روما في طريقه حيث التقى بأصدقائه من البعثة الطبية الامريكية التي كانت تقيم هناك. ووجد رجال الدولة مشغولين كثيراً بالمسألة الفلسطينية. وكان لويد جورج يقول رداً على أي سؤال يتعلق بتحديد المنطقة المقصودة:

تماماً كما جاء في التوراه من «دان» الى «بير سبع» لكن لسوء الحظ لم يكن هناك من يعرف أين تقع «دان».

وفي باريس، أقام هارونسون في «فندق كرُّيون» مع القاضي فرانكفورتر وحاييم وايزمان. وكان الى حد كبير مسؤولا عن دفع المحادثات بين الأمير فيصل وممثلي بريطانيا وفرنسا حول حدود الدولة اليهودية المقترحة والتي كانت في ذلك الوقت تضم امارة شرق الاردن، كما كان هو الذي حصل من فيصل على الخطاب الشهير الموجه الى فرانكفورتر:

«أود ان انتهز فرصة اتصالي الأخير مع الصهاينة الامريكيين لابلغك بما كنت أقوله كثيراً للدكتور وايزمان. اننا نشعر ان العرب واليهود اولاد عمومة، وأنهم عانوا من عمليات قمع مماثلة على يد قوى أشد بأساً منهم. وننظر نحن العرب ـ وخاصة المتعلمين منا ـ الى الحركة الصهيونية بتعاطف عميق. وسنلقى اليهود بترحيب قلبي (...) ان اولئك الذين ليسوا على نفس مستوى الوعي والاحساس بالمسؤولية الذي يتمتع به قادتنا وقادتكم، يتجاهلون الحاجة للتعاون بين العرب والصهاينة ويحاولون استغلال المشكلات المحلية والتي لا بد وأنها برزت في فلسطين خلال المراحل الأولى لتحركاتنا».

وفي اليوم الذي نشر فيه هذا التصريح الذي صيغ بعناية، رافق

وايزمان أعضاء وفد للاجتماع مع أخيهم في السامية فيصل. وقد توالت كلمات المجاملة رداً على الكلمات البراقة التي قالها الأمير فيصل أو التي أوحي له بقولها. وسمع الحاضرون عوني عبد الهادي، سكرتير الأمير، وهو يعلق بقوله «لا يضير الانسان ان يقول أشياء لطيفة». في حين قال أحد اليهود الموجودين: «انه يتحدث كما لو كانت فلسطين تابعة له بحيث يحق له التنازل عنها».

وقد دُعي هارونسون للاجتماع بمجلس الاربعة في فرساي لالقاء كلمة أمام الرجال العظام حول فلسطين، وتقديم نداء من أجل صهيون. وفي معرض مناقشة كلمته المقترحة مع ويليام سي. بوليت، القنصل الخاص للرئيس ويلسون في باريس، تساءل عما اذا كان الرؤساء وكليمانصو ولويد جورج اورلاندو سيتفهمون طلبه الخاص بان تضم الدولة اليهودية قطعة أرض معينة. وقال: «ان هذه الارض بها نوع معين من النبات البري الذي لا بد من الحفاظ عليه. ان اليهود سيعنون به لكن العرب قد يهملونه».

وقد كان يمثل الشخص الخارج، حتى بين رفقائه المقربين من الحركة السياسية اليهودية، «ان رسولا علمياً يعتبر رجلا خطيراً. انه ينفر من النحيب في عتمة المعابد القديمة حيث يبكي الرجال وتنوح النساء. ان النحيب هو داء اليهود، ويصيبه ذلك بالغثيان».

وكانت هناك انقسامات بين ممثلي اليهود في مؤتمر السلام، مثلما كانت هناك شكوك، مؤامرات ومؤامرات مضادة بين العرب واليهود، وبين رجال الدولة الذين يمثلون القوى المنتصرة. وكانت الدردشات الجانبية تعتبر بمثابة تصريحات سياسية. فقد نقل عن وايزمان قوله ان «الصهيونية بولشفية بناءة» وأن «دولة فلسطين لن تكون يهودية بشكل يضر بالسكان العرب» وكان فيصل في وقت من الأوقات صديقاً لليهود، وعدواً لدوداً بعد ذلك. وقد بدأ فرانكفورتر زعيم الصهاينة يشك في اخلاص الرئيس ويلسون، وطلب منه اصدار تصريح لا يشوبه أي لبس. وقد استجاب الرئيس ويلسون لذلك وقالت مذكرة لوزارة الخارجية «انه شيء مثير للاهتمام» لقد حمل ويلسون على الانحياز الى جانب الصهاينة الذين يرفضون التخلي عنهم من خلال شعارات جوفاء وطنانة. وقد بدا هارونسون كما لو كان يحرث في أخدود منعزل.

فقد كان هارونسون ـ مثله مثل هيرتزل ـ يؤمن بدولة صهيونية قائمة على أساس من الفضيلة، دولة مفتوحة لجميع أهل فلسطين وأولئك الذين هاجروا اليها تدفعهم العبقرية اليهودية، لكي تكون مركزاً متقدماً للحضارة ونموذجاً متألقاً للتقدمية، ينظر اليه العالم نظرة رهبة وحسد. وفي الظروف الخاصة التي نشأت في فلسطين ما بعد العهد العثماني، قدم نفسه الى البريطانيين في القاهرة لأن يكون «مناهضاً للديمقراطية». يا له من رجل خطير حقاً.

وفي العاشر من أيار (مايو) ١٩١٩، غادر هارونسون قاعات المؤتمر والحشود المتراصة في الفندق متوجهاً في زيارة الى لندن تستغرق أيام قلائل. وقيل ان الهدف من الزيارة جمع الخرائط والمعلومات وملابس يرتديها هو وفرانكفورتر في باريس. وقد أمضى خمسة أيام هناك، ولم يتمكن أحد من تعقب تحركاته بشكل مفصل، لكن من شبه المؤكد انه زار المكتب المركزي الصهيوني في بيكاديللي لمناقشة المؤتمر القادم، والذي سيكون فيه متحدثاً بارزاً.

* * *

وفي يوم الخميس ١٥ مايو (أيار) بعد الغداء مباشرة توجه الى القاعدة الجوية الملكية في كينلي بالقرب من لندن، حيث خصصت خدمة جوية خاصة لنقل البريد من مؤتمر السلام واليه، ولتكون تحت تصرف اعضاء الوفود البارزين. وكان قائد الطائرة هو الكابتن الجي جيفرسون.

وكان الطقس سيئا في جميع انحاء اوروبا والجو عاصفاً في القنال الانجليزي. لكن سمح للطائرة باستخدام طريق كان عادة ما يستخدمه بانتظام كل من لويد جورج وبونار لو ووينستون تشرشل وأعضاء بعثة السلام الامريكية. وفي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، كانت الطائرة على وشك عبور الساحل الفرنسي عندما سقطت في ميناء بولوني. وقد نشرت صحيفة «لوتيلغرام» المحلية نبأ الحادث في اليوم التالي، وورد كما يلي:

«في الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر أمس الخميس، سقطت طائرة بريد كانت في رحلة من لندن الى باريس وعلى متنها راكبان». ومضت

الصحيفة قائلة «وقد عثر المركب الشراعي رقم ٣٢٨ على حطام الطائرة وانتشل بعض زكائب البريد التي وجدت طافية على سطح الماء. وسلمت هذه الزكائب الى قسم السجلات البحرية. وكان أحد الراكبين قد غرق بالفعل. ثم لمح طاقم المركب الشراعي الراكب الثاني وبدأ المركب يتجه اليه من على مسافة معينة عندما اختفى لسوء الحظ تحت الماء بشكل مفاجىء».

ولم يعـرف البريطانيون أنباء هذا الحادث الا بعد خمسة أيام من وقوعه. فقد نشرت صحيفة التايمز اللندنية تقريراً من مراسلها في باريس يوم ٢٠ أيار (مايو) وكان عنوان التقرير «مقتل صهيوني بارز: دكتور هارونسون يلقى حتفه في حادث طائرة». وجاء في التقرير:

« وردت أنباء يوم الجمعة الماضية بأن طائرة بريد قد سقطت في ميناء بولوني، في طريقها من لندن الى باريس. وقد قتل في الحادث قائد الطائرة وراكبها. ولم يكن قد عرف حين سقوط الطائرة ان الراكب هو الدكتور هارونسون، أحد الزعماء الصهاينة المعروفين والخبير الزراعي». وبعد ذلك ورد عرض لنشاطه خلال الحرب في القاهرة واسهامه في حملة فلسطين.

ونشرت صحيفـة الجـويش كرونيكل تقريراً مماثلا في اليوم نفسه وأعربت في مقال افتتاحي عن أسفها وحزنها على هذه الخسارة الفادحة التي منيت بها الحركة الصهيونية. ولم يصدر المكتب الصهيوني في لندن بياناً حول الحادث الا يوم ٢٧ أيار (مايو) وجاء في هذا البيان: «فقدت الحركة الصهيونية خدمات نصير فذ وشخصية بارزة، وذلك في حادث مأساوي وقع يوم الجمعة ١٦ أيار (مايو)». وبعد ذلك اقتبست الصحيفة من صحيفة التايمز معظم التفصيلات المتعلقة بسجل حياته.

وهدأ الحديث عن حادث الطائرة شيئاً فشيئاً، وقال ماينيرتزهاغن أحد المعجبـين بالدكتـور هارونسون ومن أقرب أصدقائه سواء في مصر أو باريس، ان الشائعات التي ترددت حول وجود مؤامرة مدبرة، ليس لها ما يبـررهـا. ولا شك انـه يعتد في مثل هذه الأمور بأقوال رجل عمل مع الاستخبـارات العسكرية في لندن، كما كان رئيس الاستخبارات خلال حملة اللنبي.

وفي عام ١٩٨٠ كانت «رفقـة هارونســون» ما تزال على قيد الحياة

وكانت ما تزال تقيم في زخرون ياكوف، حيث أقيم متحف لتخليد مآثر أخيها، وحيث يقوم يهود وأناس آخرون بزيارة قبر اختها البطلة سارة. وكانت رفقة واولئك الذين يتذكرون كثيراً اسم هارونسون يعربون عن اقتناعهم بان موت هارونسون كان نتيجة لحادث عادي. لكن الغموض الذي يكتنف الحادث ظل قائما، بل تزايد من خلال بدء التحقيق فيه.

فقد تضمنت السجلات الرسمية في لندن ان الطيار جيفرسون قد مات غرقاً في البحر يوم الخميس ٥ أيار (مايو) وقبل الحادث بشهر واحد كتب وصية في حضور الكابتن غوتش والليفتنانت ادمز من السلاح الجوي الملكي. وكان قائد السلاح الجوي الملكي في كينلي آنذاك هو الليفتنانت كولونيل نيل بريمرون، الذي أجرى تحقيقاً رسمياً في ظروف الحادث. وقد تضمن تقريره تفصيلات وردت في سياق مقابلة مع كابتن راميت الذي اكتشف الطائرة الغارقة عندما كان في قارب صيده «نوتردام دو بولوني» وكان دليله في ذلك الحادث يقتصر على ظروف الطقس وحالة البحر.

وقد وضع هذا التقرير في ملفات متحف هارونسون في اسرائيل. ولكن لا توجد نسخ منه في ملفات السلاح الجوي الملكي أو ملفات مكتب البريد في بريطانيا. وان كان هناك تقرير اعدته وزارة الطيران المدني، يتضمن تفصيلات الخدمات المسجلة من شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧. ويقول التقرير في سياق عرضه للفترة التي تنتهي في شهر آب (اغسطس) ١٩١٩: «في الطريق من لندن الى باريس، قتل ثلاثة طيارين وراكب واحد. كما جرح طياران وراكبان خلال ٧٤٤ رحلة طيران».

وبعد سبعة وخمسين عاماً من الحادث الذي حرم الصهاينة وفلسطين من رجل يعتقد الكثيرون انه ربما اقنع زعماء العالم بضرورة التعجيل باصدار قرار حول مسألة الوطن القومي لليهود، عقد علماء عدد كبير من الدول تجمعاً دولياً في زخرون ياكوف لتأبين «الأب الرائد لعلم الطبيعة في اسرائيل». وتتذكر اهل البلاد الكلمات التي قالها وقت أشد محن الحرب:

«اذا سقطنا، فمن الذي يتذكرنا بعد ذلك؟ اننا نعيش وسط شعب لا يقر بالجميل».

الفصل السابع

الديبلوماسي الساخر

٧ مارك سايكس

ولم تكن القاهرة او الاسكندرية هي افضل مكان يعيش فيه الانسان خلال حزيران (يونيو) ١٩١٥ . فقد كان الجو خلال الليل شديد الحرارة ، الى حد ان معظم الاوروبيين المقيمين كانوا ينامون على اسرة نقالة على اسطح البيوت او في الحدائق . وكانت المدينتان ممتلئتين بالجنود الاوستراليين والنيوزيلانديين الذين ينتظرون دورهم للمشاركة في حمام الدم في غاليبولي . وكان ذلك هو الشهر الذي بدأ فيه مارك سايكس سلسلة زياراته الى مصر خلال فترة الحرب ، باعتباره المرشح من قبل كيتشنر في اللجنة المشتركة بين الادارات التي رأسها موريس روبنسون لبحث مستقبل الامبراطورية العثمانية . وقال : « كنت اقوم بالعمل وفيتزجيرالد يتكلم وكيتشنر يوحي».

وكان دور مارك سايكس في الاجراءات فعالا وديناميكيا ، وهو امر كان يتوقعه كل من يعرفونه . ومع الاجتماع الرابع كان قد وفر للجنة خططا وخرائط تتضمن حلين ممكنين . يفترض الاول تقسيم الامبراطورية بكاملها بين الحلفاء ـ باستثناء الاناضول ـ ويعترف الحل الثاني باستقلال اسمي مع سيطرة اوروبية على المصالح الاقتصادية والسياسية . وكان كلا الحلين يشتمل على اقامة خط حديد بريطاني يمتد حوالي الف ميل بين حيفا ورواندير . وبهذه الطريقة فانه كان مسلحا بخطة تفصيلية حين وصل الى البحر المتوسط حيث اجرى محادثات مع السير ايان هاميلتون قائد الفرقة ٢٩ في غاليبولي ، ومع فالنتاين كيرول في كريت ، والذي كان عمله في جريدة « التايمز » يمثل لعدة سنوات غطاء لعمله في الاستخبارات البريطانية لحساب وزارة الخارجية . وكان كيرول قد ابعد مؤخراً من اسرة تحرير « التايمز » بأمر من صاحبها اللورد

نورثكليف ، فاتجه الى دلهي ليعمل مراسلاً حرا في العاصمة الهندية .
وفي صوفيا زار سايكس فيتزموريس ، الذي كان لا يزال يتابع سير الاحداث في البلقان وتركيا ويعيش وسط الجواسيس الالمان المتمركزين حول منزله . وفي القاهرة اتصل سايكس بالاشخاص الذين شاركوه فيما بعد شهرة تقسيم اراضي العرب كما شاركوه الالقاب التي قدمت مكافأة لذلك .

وفي ١٤ تموز (يوليو) ١٩١٥ كتب سايكس الى رئاسة الاستخبارات في لنـدن يلخص نشـاط مخـابـرات العدو وخلاصة العمل البريطاني الفرنسي المضاد له فقال : « في الوقت الذي يعمل فيه عملاء العدو على ابقاء بلغاريا واليونان في حالة تعارض دائمة لمنعهم من توحيد جهودهم لمساعدتنا ، وبنفس الوسائل العمل على ازالة شكوك الروس والبريطانيين فيمـا يتعلق بمستقبـل القسطنطينية ، فان من الواضـح ان نفس تلك القوى تعمل من اجل الايقاع بيننا وبين فرنسا حول سورية . والفكرة العامة لذلك هي ان كلا من بريطانيا وفرنسا يريدان وحدهما الحصول على سورية بكاملها من العريش الى الاسكندرونة».

واعتبـر سايكس جو التشكيـك في تعارض مصالح كل من بريطانيا وفـرنسـا راجعـا الى نشـاط المـولين الفرنسيين في المشرق ، والقوى السويسرية ذات الصلة بتشعب الاقتصاديات الالمانية العثمانية . وكان عملاء الألمان والاتراك يدعون ان بريطانيا العظمى تنوي الاستيلاء على سورية . وكان باستطاعة سايكس الاستناد الى مقالة واحدة في احدى الصحف لدعم هذه الادعاءات . غير انه لم يكن بحاجة الى النظر لأبعد من دائرة المحيطين به ليكتشف مصدر حمى الخوف من فرنسا ، التي بدأت علاماتها تتضح له منذ اللحظة التي نزل فيها « بفندق شبرد » في القاهرة . وكان لا يزال في القاهرة حين عقد اول اجتماع للجنة الدردنيل في لندن ، وخلف بلفور تشرتشل في قيادة البحرية .

وباعتبار ان سايكس كان كاثوليكيا متشددا ومؤمنا بشدة بضرورة نشر الحضارة الاوروبية في انحاء الشرق التي عرفها ـ ولم يحبها ـ في شبابه ، فانه لم يكن بطبيعته معاديا لادعاء فرنسا انها حامية المصالح الاوروبيـة في سوريـة ، وهـو ادعـاء يستمد جذوره من فترة الحروب الصليبية . غير ان ستورز وهوغارث ولورانس لم يحتاجوا لوقت طويل

لاقناع سايكس انه بازالة فرنسا من الطريق ، فان العراق وسورية وفلسطين يمكن ان تصبح وحدة تحت سيطرة بريطانيا ، تجمعها وحدة لغوية وتستطيع تحقيق اكتفاء ذاتي اقتصاديا ، وتوضع تحت الحكم الاسمي لسلطان مصر وتحت السيطرة الروحية لشريف مكة ، الشريف حسين .

وكان العاملون مع الجنرال وينغيت - سردار الجيش المصري - قد باتوا مقتنعين تماما بفائدة شريف مكة لقضية الحلفاء . وتزعم السردار الاشادة بفضائله واخذ يبعث بتقارير طويلة وتفصيلية - وان لم تكن صادقة تماما - حول مناقب الشريف حسين الى لندن . وخلال زيارة سايكس قام كابتن سايمز - سكرتير وينغيت الخاص - بارسال شهادة الى وزارة الحرب ، « ادلى بها شخص متعلم وذكي من عائلة الشريف حسين » توضح ان « الشريف قد أجبر الأتراك - خوفاً منه - على الاعتراف بسلطته في الحجاز وهو ما بث شعورا بالارتياح بين جميع العرب وزعمائهم في الحجاز ، وان الوالي التركي نفسه قبل يده علنا امام السكان من اجل استرضائه».

أما لورانس فقد كان عام ١٩١٥ اكثر انشغالاً بالخطط السياسية التي بدأها رونالد ستورز ومارك سايكس . وكانت تربط هذين صلة قديمة منذ كانا زميلين يدرسان على استاذ العلوم الشرقية الشهير الدكتور براون في كمبردج . وكان سايكس ميالاً الى الأخذ بادعاءات شريف مكة مأخذ الجد ، وهي الادعاءات التي نقلها له ستورز وكلايتون . كما كانت هناك ايضا صلات اخرى اقوى ، مثل صلة سايكس مع رئيسهم في لندن الجنرال ماكنرو . وكان رئيس الاستخبارات البريطانية في مصر كاثوليكيا مثل مسؤول الشؤون التركية فيتزموريس ، وبذلك كانت هناك بالفعل اسس مبكرة لاتفاق فكري تحولت بعد ذلك الى علاقات عمل وثيقة بين هذه المجموعة .

وفي احدى الامسيات العديدة التي كانوا يقضونها معا ، أظهر سايكس لمضيفه انه - اضافة لكونه واحداً من النواب القلائل الذين يمكن ان يملأوا مجلس العموم - فهو ايضا فنان قدير وكاتب ماهر وممثل كوميدي موهوب . فقد قدم عرضا تمثيلياً لمدة عشرين دقيقة ، لمناقشة برلمانية بين لويد جورج و ف . ي . سميث وجون ردموند وادوارد

كارســـون (حول المســألة الايرلندية) . وبعد ذلك شارك الحضور في تمثيل فاجعة من ثلاثة فصول كانوا يؤلفونها اثناء التمثيل ، بينما قدم ستورز خلفية من المؤثرات الموسيقية ، وسايكس يؤدي جميع المؤثرات الصوتية .

لقـد كانت زيارة سايكس هذه لمصر لا تنسى ، وتخللتها زيارة لعدن حيث كانت القبائل اليمنية الموالية لتركيا بقيادة الامام يحيى حميد الدين الزعيم الديني والمـدني لليمن تحقق نجـاحـا كبـيرا في اثـارة المشاعر الدينية ، مما اضطر بريطانيا الى ارسال دعم لقواتها هناك . وقد تحدث سايكس مع اسرى الحرب من العرب هناك وشعر بالغضب لأنهم اعتقلوا بأوامر من حكومة الهند ، في الوقت الذي كان يمكن الاستفادة منهم في القاهرة .

وتوجه سايكس الى الهند حيث دأب هناك على جرح مشاعر نائب الملك وتكديره . وكان اللورد هاردينغ ، نائب الملك ، يكبره بعشرين عاما ، كما سبق له أن عمل وكيلا لوزارة الخارجية قبل توليه منصبه الحالي ، ولذلك كان معـتـــادا على الصراعـــات الداخليـــة في الأوســـاط السيـــاسيـــة والديبلومـــاسية. وحافظ هاردينغ على هدوئه في الوقت الذي انهمك فيه سايكس في دراسة تقرير روبنسون ووضع الخطوط الرئيسية لمخططات القاهرة ، التي كان يعلم بخصوصها اكثر مما كان زائره يتصور .

وقد كتب نائب الملك في الهند رسالة الى فالنتاين كيرول يقول : « ان سايكس يأخذ نفسه بجدية اكثر من اللازم ، وهو يعلم الكثير ولكنه يبدو منبهـــراً ـ دون مبـــرر ـ بأهميـــة عرب سوريـــة » . كمـــا عبـــر لاوستن تشامبرلين عن عدم موافقته على اقتراح تركيا الآسيوية كما ورد في تقرير روبنسون: «لم يبد سايكس قادراً على ادراك ان هناك اجزاء من تركيا (الامبراطورية العثمانية) لا تصلح للحكم الدستوري ». اما سايكس فقد شعر بالخيبة من موقف الهند ، وبالغضب ازاء عجز نائب الملك عن تبين مزايا الخطة التي كان قد اتم اعدادها في ذلك الوقت .

ومنذ اللحظة التي اعلنت فيها تركيا دخولها الحرب واجهت حكومة الهند مشكلات مع السياسيين في لندن ، بدا الوسطاء السياسيون في القـــاهرة عاجزين عن فهمها . لقد شكل مسلمو الهند ، اكبر الشعوب الاسلامية عددا في العالم ـ وكانوا في معظمهم يتبعون المذهب السني

الذي يلتـزم بحرفية القرآن والحديث ويوافقون على الخلافة العثمانية التي يدعون لها في صلواتهم ـ تجمعاً موالياً لتركيا . ولم يكن لديهم اي رغبـة في محاربة «جنود اللنبي»، أو في التحالف مع المسلمين الشيعة في ايران والعراق ، الذين كان شعورهم تجاههم اقل ودا من شعورهم حتى تجاه الاوروبيين .

وكانت فكرة ان بعض المتحمسين في مصر يمكن ان يقودوا قوة الى الحجاز ، للتعجيل بصدام يمكن ان يضر بالمقدسات الاسلامية ، تشكل كابوساً متكرراً بالنسبة لنائب الملك وحكومته . وقد حذر منذ البداية من مخاطر مسألة شريف مكة ، ووصف خطط مجموعة الشريف حسين في القاهرة ـ والتي عرضها عليه سايكس ـ بأنها « خيالية تماما وخطيرة » ، وذلك في رسالة بعث بها الى اوستن تشامبرلين في ٦ آب (اغسطس) ١٩١٥ .

وذهب سايكس الى العراق في ايلول (سبتمبر) ١٩١٥ في الوقت المناسب ، لكي يرى استيلاء الجيش بقيادة الجنرال تاونسند على الكوت . وقد التقى هناك بجندي تركي عجوز أُسر كان عاجزاً عن استيعاب فكرة انه يحارب في صف الالمان ضد الانكليز . وقال الرجل بحزن : « الانكليز يحاربون العثمانيين .. ! » وأضاف مخاطبا سايكس : « لقد اعتاد الالمان تعريضنا للقتل دفاعا عن الخط الحديدي الذي سرقوه منا . » وكان يمكن ان يصبح هذا الرجل مادة دعائية جديدة في يد سايكس لو اخذه معه . ولكنه كان قد حزم أمره . اذ اصبح في ذلك الوقت من أنصار الشريف المتحمسين ، ولم يكن هناك ما يدفعه للتعامل مع المسألة العربية بحذر . وقد ذكر آرنولد ويلسون ، نائب كوكس وواحد من أفضل الاداريين في الشرق ، عقب لقائه مع سايكس في العراق ، ان سايكس « جاء وقد اتخذ قراره بالفعل ، واقتصر على البحث عن الوقائع التي تؤيد اتجاهاته المسبقة » .

وعلى اي حال كانت السياسة الاستعمارية في ذلك الوقت تمليها القرارات التي تتخذ في اجتماعات مجلس الحرب قبل ان يتحول اسمه الى « لجنة الدردنيل » في ١٩ آذار (مارس) ١٩١٥ . وفي مناقشة حول تقسيم الامبراطورية العثمانية ، طلب غراي توضيحا لعبارة « دولة اسلامية مستقلة » تشمل الجزيرة العربية وسورية وما بين النهرين .

فأجـابــه لورد كراو وزير خارجية الهند ، بأن هناك رأيين داخل وزارة الهند : « القطاع العسكري يفضل وجود دولة تركية قوية في آسيا لموازنة الطمـوحات الروسية والاوروبية الاخرى ، بينما السياسيون يفضلون وجود دولة عربية مستقلة ».

وقد وافق كيتشنر على رأي الادارة السياسية المتمثل في نقل الخلافة من القســطنطينية الى مكة تحت السلطة البريطانية . لأن الحفاظ على الامبراطورية التركية سوف يؤدي لوقوعها تحت نفوذ القيصر ، وبذلك يمكن لروسيا ان تكون لها ادعاءات بالنسبة لمسلمي الهند . وقال هالدين انه من الخطأ ان تنتهي الحرب بسحق المانيا وتركيا . بينما قال آسكويث انه يشعر بأن « ترك الآخرين يتصارعون على بقايا تركيا دون أن نأخذ شيئاً لأنفسنا سيكون بمثابة اهمال للواجب » . وبعد انتهاء الاجتماع اتخذ قرار ينص على أنه « بعد اقتحام المضايق وسقوط القسطنطينية في ايدي الحلفاء ، ستكون أولى رغباتنا هي انشاء كيان اسلامي يشتمل على الأراضي العربية ، وسوف يطرح عندئذ سؤال ماذا يكون معها » .

ونادرا ما كان هناك قرار مثل هذا يترك ذلك العدد الكبير من الاسئلة بدون اجـابــة . وخلال العديد من المناقشات التي جرت في هوايتهول والقاهرة طوال سنوات الحرب ، لم يقدم أحد تعريفا للأراضي العربية ولا تخطيطا لحدود تلك الاراضي التي كان يجري تقسيمها ومنحها الاستقلال والصفة القومية .

وغـادر سايكس العـراق في نهـاية تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٥ واتخذ طريق العودة على امتداد الخليج وبحر العرب ثم البحر الاحمر الى القــاهرة . وفي طريق عودته كتب مذكرة من ٢٢ صفحة لوزارة الحرب أشــار فيهــا الى الحاجة الى حملة دعائية لمواجهة نجاح عملاء الألمان والاتــراك في الهند ، حيث كانت الادارة البريطانية تشعر بالخوف من المسلمين ومن استيلاء الاتراك الحتمي على غاليبولي . واقترح سايكس في مذكرته تلك : « نشر اشاعات عن طريق السكان الاصليين ، وكذلك بث شعــارات ورســوم واغان مؤيدة لنا ». كما انه قدم ايضا فكرة انشاء « مكتب سيــاسي جديــد في القاهرة » ، من اجل « شل جميع نشاطات العــدو في ايــران وافغانستان والهند بشكل نهائي وحرمانه من مصدر للفرقة والتهديد يستخدمه ليس فقط ضدنا وانما ايضا ضد روسيا ».

وبين اوائل المتطوعين للخدمة في فرنسا خلال آب (اغسطس) ١٩١٤ ، كان الكولونيل ستيوارت نيوكومب . وقد منح وساما رفيعا تقديرا لشجاعته على الجبهة الغربية . وفي نهاية ١٩١٤ أصدرت هيئة الأركان العامة اليه أمراً بالعودة الى لندن في مهمة خاصة . وكان لورانس ولويد جورج و وولي يتميزون غيظاً تحت وطأة الانتظار في لندن منذ تفجر مظاهر العداء مع المانيا ، وكانوا متلهفين على سماع الأنباء من هوغارث ، الذي كان يعمل في القاهرة مع القيادة البحرية حاملا رتبة فخرية هي رتبة رائد بحري . وفي بداية كانون الاول (ديسمبر) ، صدرت اليهم الاوامر بالتوجه الى القاهرة والعمل تحت قيادة نيوكومب .

ولدى وصولهم ، كان عليهم تقديم انفسهم لمدير الاستخبارات العسكرية المقدم كلايتون الملقب (برتي) . وقد ابحروا من مارسيليا في ٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٤ . ووصلوا الى « فندق سافوي » بالقاهرة حيث المقر العام للقيادة . وجاء وصولهم في وقت مناسب لقضاء عيد الميلاد مع رونالد ستورز واوبري هيربرت وفيليب غريفز ، بعد ان كشفوا عن هويتهم للسردار ولوينغيت ولمدير المخابرات العسكرية كلايتون .

وكانت مجموعة غامضة ، تلك التي التفّت حول وينغيت وكلايتون في القاهرة ، يتدافع افرادها هنا وهناك داخل مكاتب الاركان العامة في « فندق سافوي » بجوار مقر اقامتهم في « فندق غراند كونتننتال » ، وهو الفندق الذي شبّهه هيربرت بمحطة قطار شرقية . وقد كتب لورانس يقول :

□ « لم يكن عددنا كبيرا ، وقد التف معظمنا حول كلايتون رئيس الاستخبارات العسكرية والمدنية في مصر . وكان كلايتون القائد الأمثل لمثل هذه المجموعة من الرجال المتهورين والمتوقدين حماسة . فقد كان هادئاً متميزاً واضح الرؤية ، يتمتع بجرأة فطرية في تحمل المسؤولية . وقد أثار إعجاب من كان حوله برزانته وثقته وتفاؤله المعتدل . وكان الرجل الأول بيننا جميعا هو رونالد ستورز السكرتير الشرقي للمقيميّة ، وألمع رجل انكليزي في الشرق الادنى ، والذي كان يتمتع بكفاءة ممتازة ، وان كان يبدد طاقته في حب الموسيقى والنحت والرسم . وقد انضم جورج

لويد الى مجموعتنا ، ولم يكن بوسعنا ان ننجز ما انجزناه بالسرعة التي تم بها دون مشاركته . فقد كان رجلا متوقدا حادا لا يكل ولا يمل . »

□ « مارك سايكس يمثل خليطا من التحامل والقدرة الفطرية على الحدس والاحكام نصف العلمية . وهو رجل تتركز مواهبه في روح السخرية ، فهو رسام كاريكاتير اكثر منه فنانا حتى وهو يتولى مسؤوليات رجل دولة ».

□ « هوغارث قسيس الاعتراف ومستشارنا . رجل يستخلص لنا عبر التاريخ ودروسه ».

□ « كورنواليس رجل فظّ اذا نظرت اليه ، لكن يبدو انه صيغ من احد المعادن الخرافية تحت الف درجة حرارة ».

□ « نيوكومب » ، « باركر » ، « هيربرت » جميعا ينتمون الى عقيدة واحدة . هؤلاء هم افراد المجموعة ، جوقة تضم رجالا قساة » .

لقد اتخذ هؤلاء الاشخاص لأنفسهم اسما حركيا هو « المتطفلون » ، باعتبار انهم اضطلعوا بمهمام محظورة كانت فريدة من نوعها في تاريخ الحرب . وقد كانوا جميعا ضباطا في القيادة العامة بالقاهرة ، خاضعين للضبط والربط الذي تلتزم به قوة مسلحة في زمن الحرب ، ولأوامر الضابط الكبير المكلف بالقيادة ، الجنرال ماكسويل . ولكنهم رسموا خطتهم الخاصة ، واختاروا رؤساءهم ، وحددوا مراميهم واهدافهم وظلوا يضغطون ويتآمرون حتى سقط مسؤلو الحكومة البريطانية وقادة الجيش في الشرك الذي بدأ يعده كيتشنر في القاهرة ، والذي عزم هؤلاء الرجال على استكماله فيما بعد .

وكان على لورانس ، الشاب النشيط في فرقة القاهرة ، ان ينتظر عاما او اكثر قبل ان تحين فرصته ، وقبل ان تتحول هذه الفرصة من مغامرة سياسية الى محاولة عسكرية . وقد سنحت له هذه الفرصة فيما بعد عندما تحرك مع جيش عربي ليحفر لنفسه مكانا في التاريخ . وفي هذه الفترة كان يمثل الخلفية الفكرية ـ التاريخية ويحمل لقب «عقائدي دون عقيدة». ومن المثير للاهتمام ان نستعرض وجهة نظر عدو في لورانس الذي وصفه بأنه ذكي وحازم . وهي وجهة نظر تشكلت عندما رد الالمان تحية الاستخبارات التابعة لهوغارث ، وارسلوا بالانطباعات التي حصلوا عليها الى مكتب المشرق التابع لوزارة الخارجية في ويلهلم ستراس في

برلين ، قائلين : « انه ليس رجل افعال . انه ليس بجندي وليس قياديا بطبيعته ، وان كان يتمتع بالقدرة على العمل اذا احتاج الامر صياغة خطط معقدة . وهو رجل حالم يأسره الخيال وباحث كتوم » . هكذا كان وصفه في ملفات الالمان . وقد اختار الضابط الانكليزي نيوكومب لورانس رفيقا له . وفي كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٤ وصل الى القاهرة حيث اشترك في رسم الخرائط ونشاطات استخبارات عسكرية اخرى (على سبيل المثال لمعرفة حجم القوات التركية وتضليلها) .

ولم تكن مهام « المتطفلون » ذات نمو تقليدي . فقد رسموا هدفا سياسيا ، واجروا اتصالاتهم الخاصة وقاموا برحلاتهم الصحراوية لتحقيق هذا الهدف . وكان معظم عملائهم والمتآمرين معهم في الاراضي التي يسيطر عليها الاتراك ، معرضين لأي عمل طائش . ولم يشهد تاريخ الحروب قبل ذلك او منذ ذلك الحين فصلا كهذا تختلط فيه المشاهد المأساوية بالمشاهد الهزلية . واحيانا كثيرة كانت هناك مشاهد هزلية جدا . لكن هؤلاء الاشخاص لم يكونوا جنودا عاديين . في الاساس ، كانوا مدنيين يرتدون الزي العسكري . وكانت بزّاتهم غير منضبطة عليهم وكان مظهرهم كالرعاع . وكان العسكريان المحترفان الوحيدان بين الذين شاركوا في هذه العملية هما باركر ونيوكومب .

وبالنسبة لـ « المتطفلين » بوجه عام ، فقد كان رئيس العمليات الاستخبارية المضادة الموجهة الى هيئة الاركان العامة الألمانية في فيرماشت الكولونيل نيكولاي ، هو الذي وضع اصبعه ـ في معرض انتقاده للأساليب التي تتبعها بلاده ـ على حماقة اولئك المهرجين في القاهرة ، التي ادت الى انشقاقات سياسية وعسكرية على المستويات العليا خلال الحرب ، والى « تقديم وعود غير مشروعة والى اقامة دولة قومية » ، وحول الاستخبارات الالمانية الخارجية كتب يقول : « انها كانت معرقلة بحكم العادة . لكنها نفّذت لعبة التجسس بمثل النشاط الذي اتسم به عمل المكتب العربي التابع لبريطانيا » .

ولم تكن رواية لورانس للعمليات ـ التي كان هو وستورز وهوغارث ولويد جورج وهيربرت ـ محركيها الأساسيين بتحريض قوي من كيتشنر وسايكس في لندن ، دقيقة تماما . فقد كان لورانس يتمتع بموهبة صياغة الامور المتشابكة بما قل ودل .

وهكذا كتب لورانس يقول : « بدأنا من مكتب الاستخبارات التابع في القاهرة ، ممارسة التأثير على جميع القيادات البعيدة منها والقريبة . وكان سير هنري ماكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر هدفنا الاول بالطبع . ولكنه بفضل بعد نظره وحنكته وخبرته فهم اغراضنا على الفور وقيّمها بدقة . في حين ان آخرين مثل ويميس ونيل مالكولم ووينغيت ايدونا على أمل ان تتحول الحرب الى حرب بناءة . وقد عمق تأييدهم هذا الانطباع المحابي الذي كان في ذهن لورد كيتشنر ، والذي استمده قبل ذلك بسنوات عندما استغاث به الشريف عبد الله بن الحسين في مصر . وهكذا وضع لنا ماكماهون في نهاية الامر حجر الاساس الذي تمثل في التفاهم مع الشريف حسين في مكة » .

ولمدة عام تقريبا ، انشغل افراد المجموعة في القاهرة والاسكندرية برسم خريطة صغيرة وفي مساعدة هوغارث في وضع مسوّدة كتاب عن قبائل الجزيرة العربية ، وهو ما اعتمد اساسا على معلومات زوّدهم بها الكولونيل باركر وجينينغز بريملي ..

* * *

وفيما كان مارك سايكس يستعد لمغادرة مصر الى لندن في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥ ، تلقى مؤيدو الشريف حسين في القاهرة دعما كبيرا بوصول غيرترود بل التي كان كابتن هول قد استدعاها الى مكتبه في لندن في بداية الشهر ، واخطرها انه تلقى برقية من القاهرة يطلبون فيها حضورها . وفي آخر أيام الشهر استقبلها لورانس و وولي في القاهرة ، وسرعان ما بدأت العمل الجاد .

وكتبت غيرترود بل في مذكرتها تقول :

« في هذه الفترة أعمل في مساعدة مستر هوغارث في اعداد ملفات المخابرات وتضمينها معلومات عن القبائل والمشايخ . وهي متعة كبيرة ، ورئيسنا هو الكولونيل كلايتون وانا معجبة به بشكل كبير . وقد مر مارك سايكس بالقاهرة خلال هذا الاسبوع والتقيت به كثيرا ».

واقامت غيرترود بل مع بقية جماعة « المتطفلون » في فندق « كونتيننتال » . وكان كابتن هول رئيس السكك الحديدية في مصر يعمل على تسهيل مهامها ، كما كان وولي على اتصال مستمر من محل اقامته

في بور سعيد . وكانت تلتقي ايضا بالكولونيل رايت والماجور بيرسون ، وبفيليب غرايفـز ، الذي تعـرفت به في القسطنطينية ، حين كان يعمل بجريدة « التايمز » اللندنية .

وفيمـا بدأت تستقـرّ في القـاهرة ، عاد سايكس الى لندن دون ان تتنـاقص قوتـه ومعـه « سيناريو طموح » . لكن الانباء السيئة كانت منتشرة . وتحدث الرئيس الجديد لأركان الحرب فيلدمارشال روبرتسون باهتمام اكثر من المعتاد عن « العروض الجانبية » التي كانت تحد من فاعليـة الاستـراتيجيـة العسكـرية وتسبب كثيرا من الخلافات خلال اجتماعات لجنة الحرب الحديثة التكوين . وقد شعر « الشرقيون » في اللجنة بالارتياح لعودة سايكس . وفي ١٧ كانون الاول (ديسمبر) حضر سايكس اجتماعا للجنة لتقديم شهادته حول المسألة العربية . وقد جادل بقـوة من أجـل تحرك مصري . فالشريف حسين واتباعه كانوا موالين لبريطانيا غير انهم كانوا يخافون من الفرنسيين . واذا ما تكاتفت الجهود الديبلوماسية في لندن وباريس ، مع تحرك لصالح العرب من قبل الضباط في المواقع المعنية ، فان كل هذا يمكن تغييره . وبعد ذلك صرح سايكس بأنه ما لم يتم تبني هذه السياسة فان شريف مكة سوف يُقتل .

فسأله بلفور : سوف ماذا ؟

فقال سايكس : سوف يُقتل .

وبعد أن أضفى سايكس بعبارته هذه مناخا دراميا على الجلسة ، واصل رسم تصوره لتعيين مرشح عثماني في مكة يتزعم حملة « لابادة مسيحيي سورية مثل إبادة الأرمن » ، ويتزعم « جهادا » حقيقيا يهدد وجود بريطانيا في العراق وايران وافغانستان والهند والسودان .

وقد وافق المجتمعون على ان يتصل لورد كرو ـ الذي كان ينوب مؤقتاً عن سير ادوارد غراي في الخارجية ـ بالسفير في باريس اللورد برتي حول نصيحة سايكس بالقيام بزيارة رسمية لقياس رد فعل الفرنسيين . غير ان برتي اعتبر الفكرة سيئة للغاية وقضى عليها . ولم يتخل سايكس عن فكـرة تفاهم فرنسي ـ بريطاني ، ولكنه ركز في تلك المرحلة على خططه العربية التي بدأت بمجرد وصوله الى لندن في كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٥ .

* * *

وفي كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٥ بعث وزير خارجية الهند البرقية التالية لنائب الملك :

« نقترح انشاء مكتب في القاهرة بهدف مقاومة الدعاية الالمانية والتركية ، يتلقى توجيهاته العامة من مصلحة المخابرات البريطانية في لندن ويكون تحت رئاسة مارك سايكس يساعده فيليب غرايفز كسكرتير اول وهينيسي كضابط ارتباط . وتكون مهمته توصيل المعلومات الى الادارات والاشخاص المعينين في لندن والهند والعراق والبحر المتوسط ، واعداد مواد دعائية للصحافة في الهند وبريطانيا وفرنسا ».

وكان اوستن تشامبرلين يفضل « مكتبا اسلاميا » ، معددا أمثلة حديثة لنجاح الدعاية الألمانية في الهند وغيرها . وفي نفس اليوم وضع سايكس الخطوط الرئيسية لمهام المكتب بأنها : « تنسيق النشاط السياسي البريطاني في الشرق الأدنى وضمان معرفة وزارة الهند وقيادة البحرية ووزارة الحرب وحكومة الهند ، بالسياسات التركية والالمانية » . وسيكون هو رئيس المنظمة ، ويديرها الليفتنانت كولونيل باركر . وسيكون هناك ضابط اتصال مع ادارة نائب الملك ، اقترح سايكس ان يكون الماجور هينيسي الذي سبق ان خدم في الهند . وفي ٢٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٥ اجاب هاردينغ : « اعارض تماما اي نوع من المكاتب يقوم بأي نوع من العمل الدعائي في الهند . ورغم ان المكتب سيكون تحت قيادة مدير العمليات الحربية ، فان هناك شكا في ان يكون الأشخاص المرشحون للعمل (غرايفز كسكرتير أول وهينيسي كضابط اتصال) لديهم المعرفة العسكرية اللازمة ».

وتراجع تشامبرلين ـ في وزارة الهند ـ وقال : « مفهوم ان الخطة هي مجرد خطوط عامة وان التنظيم التفصيلي قد حصل على موافقة مجلس الجيش وسير ادوارد غراي . وسيكون تحت اشراف مصلحة الاستخبارات كما ان أعمال الاستخبارات ستتم بالتنسيق مع مصلحة العمليات الحربية ».

وسجل هيرتزل وكيل وزارة الهند في مذكراته اليومية السياسية السرية : « ان حكومة الهند لا تثق في هيئة الموظفين ، ولم يكن ترددهم مفاجأة لي ، ونحن لا نعلم حتى ما اذا كانت خطة سير مارك سايكس قد اقرت من قبل وزارة الحرب او وزارة الخارجية . وانا اخشى ان مسودة

ردنا على نائب الملك لن تهدىء الشكوك ».

وفي ٩ كانـون الثاني (يناير) ١٩١٦ ، دعا اسكويث الى اجتماع لمختلف الادارات في وايتهـول ، حضره لانسيلوت اوليفـانت من وزارة الخارجية ، وهرتزل من وزارة الهند ، وبريغادير جنرال ماكدونو ـ المدير الجـديـد للمخـابرات العسكرية ـ الذي كان في فرنسا مع المخابرات الخاصة حين جرت الأحداث التي أدت الى عقد هذا الاجتماع ـ وفريدي موريس من مصلحـة العمليـات الحـربية ، وسايكس وفيتزجرالد عن كيتشنـر ، والكـولونيل فرنش رئيس مصلحة الاستخبارات المضادة ، ليفتنانت كولونيل هاكنر سكرتير لجنة الدفاع الامبراطورية ، ليفتنانت كولونيل دالي جونز مساعد هاكنر . وجاء في توجيهات رئيس الوزراء ان « اللجنة ستجتمع لبحث مسألة انشاء مكتب اسلامي في القاهرة » .

وقد صدرت انسب الملاحظات حول الموضوع عن ماكدونو الذي كان جديدا على المسألة . فقد اعرب عن اعتقاده بأن اللجنة تقوم « بسلخ جلد الدب قبل صيده » . وقد لخص محضر لوزارة شؤون الهند بتاريخ ١٤ كانـون الثاني (يناير) ١٩١٦ ما جرى في الاجتماع بأن : « النتيجة الرئيسية للاجتماع كانت اقرار اقتراحات سير مارك سايكس مع تعديلها بحيث تصبح جزءا من ادارة الاستخبارات بالقاهرة ، بدلا من ان تكون منظمة منفصلة . وجاء ذلك بناء على اصرار اللورد كيتشنر وعلى تحبيذ وزارة الخارجية ، كما اننا ايضا نرى انه افضل ». كذلك رفضت اللجنة تسمية « المكتب الاسلامي » وقررت اطلاق اسم « المكتب العربي » على الكيان المقترح .

وفي ٤ شباط (فبراير) ١٩١٦ قبل سير ادوارد غراي المقترحات مع اشتراط ان تكون وزارة الخارجية هي الاداة الرئيسية في نشر المعلومات . وفي ١٥ شباط (فبراير) اقر نائب الملك الاقتراحات ـ على غير رغبة ـ وعـلى اساس ان « مسؤولينا السياسيين لن يستدعوا للعمل بناء على تعليمات المكتب واننا سنتلقى نسخا من الأوراق الهامة الصادرة والواردة ».

وهكذا ظهر « المكتب العربي » الى الوجود ، مع تعيين هوغارث ـ لا باركـر ـ رئيسـا تنفيـذيا له تحت رئاسة كلايتون . ذلك ان ابن اخت كيتشنر كانت لديه مهام أكثر اهمية في الحجاز . وكانت الحكومة الهندية

ـ مع تصاعد مشاكلها في العراق ـ على وشك معرفة ان اعضاء « المكتب العربي » لن يلتزموا بالقواعد التي اتفق عليها خلال اجتماع الادارات او الاتفاقات اللاحقة وأن شخصيات جديدة قد نقلت للخارج .

وفي اليوم الذي وصلت فيه موافقة نائب الملك في ١٦ شباط (فبراير) ١٩١٦ ، بدأ هوغارث اصدار نشرة اخبارية اسبوعية اسماها « التقرير العربي » يتم توزيعها تحت اشراف قيادة البحرية . وكان نائبه في التحرير هو الليفتنانت كوزنر هاردي من الاسطول . وبحلول ١٢ آذار (مارس) كان بامكان تلك النشرة ان تزود قراءها من النخبة بأحدث الاخبار حول قضية الشريف حسين . وجاء فيها ان رسالة من الشريف بتاريخ ١٨ شباط (فبراير) ١٩١٦ اعلنت عن خطوة هامة في تكوين حركة المقاومة العربية ضد الاتراك ، وخاصة انها كتبت قبل سقوط ارضروم عاصمة ارمينيا في ايدي الروس .

وذكر الشريف حسين في رسالته ان المفاوضات قد انتهت وانه مستعد لبدء التحرك . وانه يود ان تكون تحركاته كالتالي : ان يحاول ابنه فيصل الموجود في سورية اقناع العرب بمقاومة الأتراك او مهاجمة الجيش التركي حين يقترب من قناة السويس . كما أنه ارسل ولده الاكبر علي الى المدينة على رأس جيش عربي لاحتلال السكة الحديد ومساعدة أخيه في سورية . وأعلن الشريف انه يحتاج ايضاً الى ٥٠,٠٠٠ جنيه لتغطية التكاليف ، وانه يحتاج الى بنادق ودقيق وشعير وقهوة وسكر . كما وصل طلب من عبد الله بمبلغ ٣٠٠٠ جنيه ، وهو الابن الثاني والقوة المساندة للتاج . وقد وصف هيرتزل رسالة الشريف بشأن الحدود بأنها « قمة في الغموض » .

وقد عانى « المتطفلون » من نكسة محدودة في بداية عام ١٩١٦ ، حين تم دمج قيادة البحر المتوسط بقيادة ماكسويل مع القوة المصرية ـ في اعقاب الانسحاب من الدردنيل ـ ليشكلا معا « قوات الحملة المصرية » تحت قيادة جديدة برئاسة الجنرال سير ارشيبالد موري ، الذي عين مكانه كرئيس لأركان روبرتسون . وكان يعتبر اداة كيتشنر في وزارة الحرب ، وجاء الى القاهرة باعتباره رجله . ولكنه كان سلبياً في مواقفه من « الشؤون الشرقية » . وقد ورث الرجل شبكة معقدة تحول فيها « المكتب العربي » ـ المفروض ان يكون ذراعاً للعاملين تحت إمرته ـ الى جهاز

لصنع القرار مسؤول لا امامه باعتباره القائد العسكري ، وانما لتشكيله من الهيئات والشخصيات الاقل سلطة مثل ، الادميرال ويميس من قيادة البحرية والمندوب السامي السير هنري مكماهون ، وحكومة السودان ، وسردار الجيش المصري سير ريجنالد وينغت والبريغادير جنرال برتي كلايتون .

وسرعـان ما شعـر موري ان المكتب اصبـح يشكل عبئاً لا يحتمل بالنسبة لقائد عسكري وقت الحرب ، ففصل كلايتون وعين مكانه الماجور هولديتش رئيسا لاستخباراته ، ثم اخذ اكبر اثنين من العاملين في المكتب وهما نيوكومب وباركر للعمل معه ، وسمح لباركر بالعمل كضابط اتصال مع منظمة كلايتون ومع وينغت في بور سودان . وظل مقر المكتب « بفندق سافوي » بالقاهرة بينما نقل العاملون في الاستخبارات الى المقر الجديد بالاسماعيلية .

وحـين وافق مجلس الوزراء على الوعـود المقدمة للشريف حسين في شباط (فبراير) ١٩١٦ بدأت ملامح « المكتب العربي » تكتمل . وذهب سايكس مع نصـيره الفـرنسي بيكو الى بتروغراد لبيع صفقتهم لوزير الخارجية الروسية هناك سازونوف . في حين توجه الاهتمام في القاهرة ولندن الى كارثة جديدة .

* * *

وبحلول ايلول (سبتمبـر) ١٩١٦ ، كان الوضـع البـريـطاني في الحجاز قد اصبح بائساً : كانت مبالغ ضخمة من المال تُنفق ، اذ ان الشريف حسين زاد من مطالبته بالمال بحيث وصلت الى ١٢٥,٠٠٠ جنيه شهرياً ، بالاضافة الى مطالبته بالطعام والاسلحة وشن هجوم مشترك في سورية . وكان ابناؤه يتقدمون بمطالب منفصلة من أجل الحصول على المـال ، كمـا ان الأتراك كانوا يسيطرون تماما على المكان الذي كانوا يفضلونه ، وهو المدينة التي كانت على رأس خط سكة حديد الحجاز .

كانت لجنة الحرب قد اجتمعت في لندن في ٦ تموز (يوليو) ١٩١٦ . وكان سايكس ، الذي كان قد عاد مؤخراً من روسيا واصبح متشبعاً بقوة الصهيـونيـة هنـاك ، قد استدعي للتحدث في الاجتماع عن القضية العربية . وبعد اشارات مبهمة « عن قوة وحماس وذكاء العرب » وعن

الخطأ الجسيم في معاملة العرب على انهم « عبء الرجل الابيض » ، وضع توصيات بعيدة الاحتمال ، قُبل الكثير منها . وتحدث عن الحاجة لاحتلال العريش والعقبة لمد خط سكة حديد سيناء العسكري ، من قطّية الى العريش بأقصى سرعة ممكنة وُذلك للسيطرة على ساحل البحر الأحمر ، ولطلب المساعدة من الامام يحيى امام اليمن .

ولم يكن ماكماهون في مصر في وضع يمكنه فيه حل المشاكل التي تواجهه ، كما ان كوكس في العراق ، بالرغم من ان عمله كان نموذجيا ، الا انه كان مشلول الحركة بسبب السيطرة من الهند . وطلب بأن يعيّن المفوض السامي « لشرق الجزيرة العربية » ، ويكون مسؤولاً امام وزارة الخارجية . وقال : « يجب أن نظهر انفسنا على اننا موالون للعرب ، واننا ما دمنا على أي أرض عربية فيجب أن نساند اللغة العربية والجنس العربي ونساعد العرب ضد اي عدوان خارجي او اي استغلال اجنبي » .

وتبنت لجنة الحرب معظم مقترحات سايكس . ولكنها قررت ان طلب الشريف حسين مبلغ ١٢٥,٠٠٠ جنيه هو طلب غير معقول . ولكن على اية حال ، في غضون ثلاثة اسابيع أُبلغ ماكماهون ان يدفع المبلغ بالكامل ، لفترة مبدئية هي اربعة شهور . وكان من المفروض ان يستمر ذلك طوال مدة الحرب ، بل ويزداد المبلغ بمرور الوقت .

اجتمعت اللجنة مرة ثانية في الاول من ايلول (سبتمبر) ١٩١٦ . وفي ذلك الوقت وصلت تقارير مزعجة من باركر وويلسون . واستدعي سايكس مرة ثانية للتحدث في اجتماع في داوننغ ستريت . وكان لورد كراو ، اخلص خلصاء اسكويث ، هو الذي رأس الاجتماع . ولم يحضره رئيس الوزراء او وزير الخارجية او وزير الهند ، وهم اهم ثلاثة اشخاص في مثل هذا الاجتماع . كان هناك كوم من البرقيات على الطاولة تتضمن طلبات الشريف من اجل المال والعون المسلح ، ورفضه وجود قوات بريطانية او اي مسيحيين في الحجاز . وقال كرزون « لا يجب ان نسمح بأن يُسحق الشريف » . وقال لويد جورج « يجب ان لا نكون سلبيين » ، وابلغ مري وزارة الحرب بأنه من الافضل ارسال فرقة من الجنود البريطانيين الى ينبع سواء احب الشريف ذلك ام لم يحبه . واعتقد سايكس انه يجب استخدام الجنود السودانيين وان مدافع

البحرية ستكون في غاية الفعالية . وتقرر ترك القرارات الكبرى الخاصة بدعم الثورة لمؤتمر كان مري قد رتب له مع ماكماهون في الاسماعيلية ، عندما يستطيع ويلسون ارسال تقارير بآخر الانباء من جدة ويتم ابلاغه بأي مدى يجب تلبية مطالب الشريف .

قررت وزارة الحرب ارسال رجلها الذي تعتمد عليه لمعرفة ما يجري على جبهة الشريف حسين في الحجاز . واستدعي نورمان براي من الجبهة الغربية وأبلغ ان يتسلم منصب ضابط الاستخبارات في جدة . وقام مارك سايكس باطلاعه على ما يجب عمله اثناء لقاء معه في وزارة الحرب، وبدأ براي يدلي بآرائه لسايكس حول العرب والثورة العربية ، مما جعل سايكس يضع امامه ورقة بيضاء ويقول له « هيا ... اكتب » .

وقال براي : « لا استطيع كتابة كلمة واحدة وانت واقف امامي ». فضحك سايكس وغادر الغرفة ، وبدأ براي كتابة تقريره الموجز معبرا عن رأيه في انه كان قد اوضح لرئيس الاركان في دلهي الجنرال سير بيرسي ليك في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٤ عن ان اقوى سلاح يمكن للحلفاء الحصول عليه في شبه الجزيرة العربية هو عبد العزيز ابن سعود . ولكن حيث ان بريطانيا ازدرت الزعيم العربي الوحيد الذي يمكنه جذب القبائل الى صفها ، فقد اعتقد براي انه من الافضل مساعدة شريف مكة واستغلال عملية الحجاز الى اقصى حد ممكن . واقترح ارسال بعض الضباط الهنود الى الحج في مكة في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٦ وذلك حتى يحصلوا على المعلومات بأنفسهم وحتى يقضوا على دابر الشائعات التركية .

سُر سايكس بالفكرة بدرجة كبيرة ، وكذلك هيرتزل والوزير العسكري في وزارة الهند الجنرال سير ادموند بارو . وفي غضون ايام كان سايكس النشيط قد استدعى اربعة ضباط هنود من فرنسا . وفي بداية شهر آب (اغسطس) ، كان الميجور نورمان براي واثنان من مساعديه الهنود في البحر الابيض المتوسط ترافقهم المدمرات اليابانية ، وهم في طريقهم الى القاهرة حيث قابلوا سير هنري ماكماهون الذي كان براي يعرفه من قبل منذ ايام ما قبل الحرب في « المكتب العربي » .

وفي ٢٤ آب (اغسطس) استقلوا السفينة « هاردينغ » من السويس . وكان على سطح السفينة مع براي والهنود جول نواس ومير

علم وجعفر باشا العسكري والقائد الأعلى للقوات التركية في طرابلس ، ونوري السعيد الذي كان قد انحاز الى قوات الحلفاء ، والكابتن روس والكولونيل جيكوب . وكانت هذه المجموعة تتحدث فيما بينها اللغات الانكليزية والفرنسية والعربية والاوردية والهندية .

هبط براي من القطار في محطة فيكتوريا بلندن في الساعة التاسعة مساء يوم ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) وتوجه مباشرة الى كشك التليفون ليخبر سايكس انه وصل . وبعد دقائق قليلة كان مستقلا سيارة اجرة في طريقه الى بيت سايكس في حي ويستمينستر حيث ظلا يتحدثان حتى الساعات المبكرة من الصباح . وعند مغادرته قيل له « يجب ان تكون في ١٠ داوننغ ستريت في الساعة الحادية عشرة صباحاً ».

وكانت وزارة الحرب منعقدة عندما وصل براي . وترأس اسكويث احد الاجتماعات الاخيرة التي عقدها في فترة رئاسته الوزارة والتي كانت حافلة بالأحداث . دفع سايكس باب الحجرة وكأنه يريد القبض على المجتمعين فيها ، وتلك هي عادته ، تاركا الضابط الشاب القادم من الحجاز بالخارج . كان سايكس منفعلا وهو يفكر في كيفية مخاطبة المجتمعين . ويبدو ان الحظ كان بجانبه اذ ان رئيس الوزراء ابلغه ان مناقشة الامور العربية أُجلت حتى الثالثة مساء عندما تبحث لجنة مختارة في الامر .

ولكن ذلك لم يكن ليهدىء سايكس ، وبدأ يروح جيئة وذهابا في الغرفة الخارجية يدفع الكراسي بقدمه ويضرب بقبضته على الصناديق المليئة بالمراسلات والاوراق بقوة كبيرة ، لدرجة انها سقطت على الارض محدثة صوتا قويا ، لدرجة جحظت عينا رسول رئيس الوزراء من الدهشة عندما رأى ذلك . ولكن سايكس صاح : « لا يمكن اضاعة ساعة من الوقت ، او حتى دقيقة ».

وكان براي قد اخبره في الليلة الماضية ، مكررا كلمات ويلسون له قبل مغادرته ، ان هزيمة العرب في رابغ سوف تعني نهاية الحرب في الحجاز وانقراض الاسرة الهاشمية الشريفة . وتحدث براي لسايكس ايضا عن صعوبات التعامل مع الشريف وعائلته ، وهي الصعوبات التي حاول ستورز ان يقلل منها عند عودته الى القاهرة . وقال براي « ان الشريف حسين يكرر دائما ان الحجاز منطقة مقدسة وان الجنود البريطانيين لا

يجب ان يحاربوا على ارضه ، وانه لا يرى داعيا للعجلة في التعامل في معالجة التهديد التركي على مشارف منطقته ». ولم يستطع براي الانتظار اكثر من ذلك خارج مكتب رئيس الوزراء ، ودفع الباب بقدمه واختفى في الداخل . وبعد دقائق خرج وهو يصيح « لقد نجحنا فيما نريد . سوف يمكننا ارسال الرجال والسفن الى رابغ » .

في ذلك المساء تناول براي طعام العشاء مع اوستن شمبرلين ، الذي كان يريد ان يعرف كل شيء عن الحركة العربية وتقدمها . وفي طريقه الى مجلس العموم مع سايكس قابل سير ويليام روبرتسون رئيس الاركان الذي قال له : « سمعت انك احد الذين يعتقدون انه لا فائدة من العرب على الاطلاق». واجابه براي : « لا يا سيدي اعتقد انهم رجال حرب عصابات ممتازون » . ولم يعقب روبرتسون على ذلك وذهب الى النادي . وقال سايكس لبراي : « انك احمق . كان يجب ان تقول ان العرب ملائكة صغار بأجنحة ». ورد عليه براي : « هل تتوقع مني ان اكذب على رئيس الاركان العامة ؟ »

قبل ان يفترقا اعطى سايكس لبراي نسخة من البرقية التي بعثت بها وزارة الحرب الى القاهرة . كانت تقول : « فصيلة من الجنود البريطانيين ، وسفن وكل عون ممكن سواء عسكري او سياسي لرابغ ». ذهب براي الى وزارة الخارجية ليقدم فروض الولاء والطاعة لهاردينغ ويريه البرقية ، ولكمن هاردينغ رفض مقابلته ، مما اضطره الى تسليم البرقية لأحد افراد السكرتارية . وكان هاردينغ قد سمع ما فيه الكفاية عن الثورة العربية .

* * *

كان سايكس قد حوّل اهتمامه الى موضع الصهيونية ، ليس سعيا وراء معرفة صواب الفكرة من خطئها ، ولكن بسبب فائدتها لقضية الحلفاء . وفي اوائل عام ١٩١٦ وجد تعزيزا لاعتقاده عندما تأكد انها ذات فائدة عظيمة وذهب الى روسيا مع بيكو من اجل تنفيذ الاتفاق بين الحلفاء ، وهو اتفاق بيترهوف الذي كان هو والرجل الفرنسي وضعاه ، والذي كان يتطلبه اعلان لندن لعام ١٩١٤ والذي ينص على ان قوات الحلفاء يجب ان يشاور بعضها البعض قبل وضع شروط للسلام .

واجتمع سايكس وبيكو مع سازانوف وزير الخارجية والسفير سير جورج بيوكانن في آذار (مارس) ١٩١٦ وتم كل شيء على ما يرام . وما دامت روسيا ستحصل على القسطنطينية التي طالما حلمت بها ، كان باستطاعة بريطانيا وفرنسا أن تأخذا ما تريدان . كان الروس قد احتلوا طرابزون وأرضروم بينما كان سايكس في بتروغراد . كان الألمان والاتراك قد بدأوا يتراجعون في ايران وجورجيا . وكان لدى سايكس الوقت الكافي ليتطلع حوله ويلاحظ نفوذ الصهيونية في روسيا . وعبّر كتابه عن أفكاره في استغلال مصادرها الضخمة المنتشرة على نطاق واسع لخدمة قضية الحلفاء ، واقترح ان شركة مسجلة في فلسطين قد تُرضي طموح الصهاينة . ولكن سير آرثر نيكولسون وكيل وزارة الخارجية الدائم وعرابها بعث ببرقية اليه يقول فيها « احتفظ بهذه الافكار لنفسك » .

ولكن سايكس كان يهوى المؤسسات السياسية وكان زئبقيا لامع التفكير وكان يتبع احساسه بالوطنية في عمل اي شيء صالح او سيء . وكان ينجذب تلقائياً الى الرجال المخلصين والحادّي الذكاء مثله . لقد وجد هذه الصفات تنطبق على اثنين قابلهما في وزارة الحرب في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٦ ، هما فريد كيتش والزائر الذي قدم من فلسطين هارون هارونسون .

قبل عدة شهور كان سايكس قد قابل الحاخام موسى غاسر صديق هربرت صموئيل . كان الحاخام هو الذي فتح عينيه على « معنى الصهيونية » . ولكن مشاعره الموالية للصهيونية ، مثل مشاعره السابقة الموالية للعرب ، كانت انتهازية بدرجة كبيرة . كانت فكرة الصهيونية هي انها « المفتاح لقبول اتفاقيات الحلفاء لعام ١٩١٦ » ، وهي الاتفاقيات التي كان بيكو قد صاغها هو والروس ، والتي لم تكن لها علاقة بالفكرة العربية او اليهودية ، اذ انه لم تجر استشارة اي من الطرفين .

ولكن سايكس كان متحمساً في معتقداته . وكتب احد مؤرخيه يقول : « كان سايكس كلما رأى هارونسون اكثر ، كلما احب وطنيته الصريحة وكلما احب ثقته في الاستعمار اليهودي . واذا كان الحاخام غاسر قد زود سايكس قبل بضعة شهور ببعض الافكار عن الصهيونية في اوروبا ، فان هارونسون هو الذي اقنعه بها في فلسطين » .

وكان سايكس قد اصبح مشايعا للصهيونية بكل مشاعره . ويبدو ان لورانس لم يدرك تماما طبيعة التحول الذي طرأ عليه حين كتب : « لقد عاد من مهمة سياسية في سورية بعد ان ادرك بأسى الشكل الحقيقي لأحلامه ، ليقول بكل فروسية : لقد كان ذلك خطأ ، وهذه هي الحقيقة » . ولم يدرك اصدقاؤه القدماء حماسه الجديد للصهيونية وظنوا انه مخطىء ولا بد ان يدرك خطأه . وسرعان ما مات في مؤتمر باريس للسلام في شباط (فبراير) ١٩١٩ اثر اصابته بالتهاب رئوي حاد قضى عليه . وكانت هذه قمة المأساة بالنسبة للقضية العربية .

وكان سايكس قد وجد في هارونسون اقرب الاشخاص لآرائه ومواقفه في تلك الايام . وكان قد رأى ان الصهيونية هي الفرصة الحقيقية لحل مشكلة أرض الميعاد . أما بالنسبة لسورية الكبرى فانه كان بالفعل قد وعد باعطائها لفرنسا . ومن سخرية القدر أن هارونسون هو الآخر قد مات خلال الأيام الأولى من مؤتمر السلام . وبذلك فقد اليهود التقدميون أقوى متحدث باسمهم واكثرهم بلاغة .

الفصل الثامن

الكذبة الأخيرة

٨ وداعاً للثورة والاستقلال

كانت مصر مركزاً للمتآمرين والصفوة في ذلك الوقت . وقد وصف ضابط الاستخبارات الشاب جون دي فير لودر الموقف هناك قائلاً : « الحياة هنا تشبه فصلا من احدى الروايات .. والجو مليء بالهمسات الخافتة ، والسلّم المفضي الى المكتب مليء بالشخصيات التي تشبه الشخصيات المسرحية ، فهناك مصريون بدناء يرتدون الطرابيش ، ويونانيون يتصرفون بذلة ، ولاجئون سوريون ، ومواطنون من الدول المعادية يبدو على وجوههم الرعب الشديد . ويتم تهريب البنادق والمسدسات والذخيرة في صناديق الاغذية . وفي مكتبنا هناك حبر سري وادراج سرية وكتب للشيفرة . وتصل الينا الرسائل مع مندوبين خصوصيين ، ومغلفة داخل ثلاثة مظاريف مختلفة ، كلها مختومة بالشمع . وأفراد المكتب الصغار يعرّفون بالارقام فقط ، بينما يعرف كبار العاملين بالحروف الابجدية».

وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٥ وعندما كان سايكس في طريق عودته الى القاهرة، فر ضابط عربي من الجيش العثماني يدعى شريف محمد الفاروقي ، الى الخطوط البريطانية في غاليبولي . وقد التقى به الكابتن سميث والليفتنانت بيري ـ غوردون والذي كان يعمل ضابط استخبارات بحرية في الموقع . وقال الضابط العربي انه يمثل مجموعة سرية تضم عددا من « الضباط العرب » الراغبين في تأييد قضية الحلفاء بشروط معينة . ولكن اذا لم تلبّ هذه الشروط فانهم سيؤيدون الالمان الذين قدّموا بالفعل وعوداً معينة . وعلى الفور عيّن كلايتون شريف محمد الفاروقي كضابط اتصال بين المندوب السامي وشريف مكة واطلق عليه اسماً رمزياً هو الحرف ‘G’ .

وقد أُرسِلَ الفاروقي الى القاهرة وابلغ الاستخبارات هناك بأنه ولد في الموصل عام ١٨٩١ . وعندما اندلعت الحرب كان مساعدا « في الموقع » لفخري باشا قائد الجيش الثاني عشر . ولما تولى جمال القيادة في سورية نقل الفاروقي الى حلب . وزعم انه كان عنصراً فعالاً في جميع صفوف الجناحين العسكري والمدني لثوار دمشق وجمعيتي « العهد » و«العربية الفتاة» . وأبلغ الفاروقي بأن المقر الرئيسي « للفتاة » يوجد في لندن ، حيث يعمل فيه اعضاء عرب وانكليز على حد سواء . وقد أيّد شريف مكة وقال ان رئيسه الاعلى في الحركة الوطنية هو ياسين باشا الهاشمي الذي يعلم اسرارا اكثر عن الحركة . وكان ياسين الهاشمي القائد العسكري العثماني في حلب ، والذي اضطرّ للبقاء مواليا للسلطة العثمانية طوال فترة الحرب ، وان كان قد اصبح قائدا للحركة الوطنية بعد ذلك . وقد علم جمال وفخري بنشاطاتهم من الجواسيس . وقد التقى جمال نفسه بالفاروقي وحاول الحصول منه على معلومات تفصيلية . وقال ان تسعين في المائة من الضباط العرب في الجيش اعضاء في جماعات سرية .

ولدى وصول سايكس عائدا الى القاهرة في طريقه الى لندن ، وردت انباء حول المزيد من المذابح وحدوث نكسات خطيرة في غاليبولي . وعلم انه يوم ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ـ عندما كان يستعد لمغادرة البصرة ـ طلبت « لجنة الدردنيل » من تشامبرلين وزير الدولة الجديد لشؤون الهند، إعداد مسودة برقية الى نائب الملك ـ وذلك بالتشاور مع سير ادوارد غراي وبلفور ـ لشرح الموقف بالنسبة لاحتلال بغداد والأثر المحتمل لذلك على العرب . وقد تقرر ان يقوم الجيش الذي ارسل الى الخليج ـ لتولي حماية منطقة البصرة وحماية المنشآت النفطية في عبادان والاحواز ـ ان يكلف بحملة للاستيلاء على بغداد . وبالتالي انجاز حملة دعائية يمكن ان تعوض النكسات الأخيرة او حتى اكثر من مجرد التعويض .

وعندما كان في القاهرة ، قابل سايكس الفاروقي ، الذي ارسل في الوقت نفسه كمبعوث آخر للشريف . وناقش سايكس مع زملائه البريطانيين خططه الخاصة بانشاء مكتب سياسي وباتفاقية تبرم مع فرنسا وروسيا وايطاليا . وقد تحمسوا لذلك كثيرا . كذلك تحدث مع الفاروقي عن الشريف حسين وأبرق الى مصلحة الاستخبارات في لندن

يبلغه فيها بأن الشريف يفضل « جزيرة عربية أكبر حجما » . وكان سايكس يرى ان سورية تمثل منطقة مصالح لفرنسا . في حين ان بلاد العراق تمثل منطقة مصالح بريطانيا . وستحتفظ فرنسا بالسيطرة على الشريط الساحلي الملاصق لمنطقة مصالحها .. وقد اتخذ قرار بخصوص تحويل السيطرة على الاراضي العربية في اطار الامبراطورية العثمانية .

* * *

كانت السجون في تركيا مكتظة بالوطنيين في الاعوام التي تلت انقلاب جماعة « تركيا الفتاة » . ومن بين السجناء كان هناك ضابط عربي في الجيش العثماني اكتسب شهرة خلال الحرب التركية ـ الايطالية ، وقام بدور فعّال في تطهير القسطنطينية من عناصر الثورة المضادة خلال محاولة فاشلة قام بها انصار الحرس القديم لاستعادة السيطرة على مقاليد الأمور عام ١٩١١ . وكان اسم هذا الضابط عزيز علي المصري ، وهو أحد مؤسسي جماعة « العهد » . لكن جريمته الكبرى كانت التشكيك في الزعامة العسكرية المتمثلة في انور حول جدوى حملة طرابلس الغرب . وكانت التهمة التي وجهت اليه هي « اختلاس اموال عامة » . وقدر المبلغ الذي اتهم باختلاسه بثلاثين الف جنيه . وقد اعتبرته المحكمة مذنبا وحكم عليه بالاعدام . لكن بريطانيا تدخلت لانقاذ حياته . فقد اوفد اللورد كيتشنر نائب رئيس جامعة القاهرة لطلب العفو عنه ، كما وجهت السفارة البريطانية ملاحظات شديدة اللهجة حول الموضوع . الا انه ربما كانت جهود الصحفي الفرنسي جورج ريمو هي التي نجحت في اطلاق سراحه . وكان ريمو قد التقى بجمال بك في احدى الحفلات وقال له :

« ربما كان عزيز المصري ثوريا عربيا لكنه بالقطع ليس لصا ».

فكتب جمال بك رسالة الى انور . ثم ارسل عزيز المصري الى القاهرة منفيا من الامبراطورية التي خدمها باخلاص تاركا وراءه سيفه رمزا لتعهده بعدم القتال ضدها مستقبلا .

وفي فترة لاحقة قال عنه جمال : « علمت ان عزيز بك رغم انه اعطاني وعد شرف في ذلك الوقت ـ قد وضع نفسه في خدمة الشريف حسين اثناء الحرب العالمية حين لجأ هذا الأخير ـ وهو وحش جاحد ـ الى رفع السلاح

في وجه خليفة المسلمين ، وتعمد دفع العالم الاسلامي الى حالته التعيسة الحالية . وانني اليوم غير قادر على مسامحته على ما فعل » .

وكانت السلطات المصرية قد حاولت في ٢٦ آذار (مارس) عام ١٩١٦ منع اثنين من الزعماء الوطنيين البارزين الذين كانوا قد خدموا في الجيش العثماني وهما عزيز المصري ومحمد الفاروقي من الإنضمام الى الزعيمين العربيين الدكتور عبد الرحمن شهبندر ورشيد رضا ، وذلك لتكوين بعثة عربية في البصرة . وفي الحقيقة ان الدكتور شهبندر كان في البصرة في ذلك الوقت مع نوري السعيد احد الذين فروا من خدمة جيش تركيا العثمانية . وكان الجنرال ليك ، الذي كان قد وصل لتوه لتسلم قيادة القوات البريطانية من الجنرال نيكسون في بلاد الرافدين ، على وشك طردهما من العراق . ويقول المؤرخون العرب ان عزيز المصري اعترض على ذلك في هذه اللحظة المتأزمة .

لقد كان عزيز المصري يريد تأكيداً كاملاً باستقلال الدول العربية ، وكانت بريطانيا تستطيع فقط اعطاء « تأكيدات عامة » ، وفي الحقيقة ان كيتشنر عارض رحلة المصري والفاروقي الى البصرة للقاء شهبندر ورشيد رضا . وابلغت وزارة الحرب البريطانية الحكومة المصرية انها « لا توافق على عزيز المصري ». وبقي الوفد العربي المقترح في القاهرة . وكان من المفروض ان يصحبه الجنرال ماكماهون ، الذي عينته وزارة الحرب قائدا عاما في البصرة . وسافر الجنرال بمفرده . وكان هناك اقتراح بأن يستدعى السيد طالب النقيب من الهند ليتحدث بالنيابة عن القوة الموجودة في القاهرة في المفاوضات مع الاتراك وفي المحادثات مع شريف مكة والقوميين العرب ، ولكن ذلك كان سيخلق رد فعل عدائي من سير بيرسي كوكس والجنرالات والموجودين في ميدان المعركة . وهكذا ترك للبريطانيين امر اقناع الشريف حسين .

* * *

كانت الاراضي العربية هي مصدر المشاكل الأكثر تعقيدا التي واجهها مؤتمر السلام في باريس وكانت اللوحة التي خلفتها الأحداث التي جرت في باريس وفرساي للأجيال التالية ، هي صورة الملك فيصل رشيقا مكتسيا بالحرير كأنه أحد نجوم السينما الاميركية في دور « شيخ

عربي » ، محاطا بحاشيته من العرب ، بينما مستشاره السياسي لورانس مكتسيا هو الآخر بالحرير - يبذل جهدا محموماً ليحصل لرفيقه خلال الحرب على الغنائم التي وعدت بها بريطانيا وسط لهيب القتال .

وقد ثار الجدل في ذلك الحين - مثلما ظل يثور منذ ذلك الوقت حتى الآن - حول معنى وطبيعة الوعود البريطانية على وجه الدقة . وهي مناقشة عبثية ، فالحدود الاقليمية لتعهدات قلما هي واضحة ، والشك لا يثور حول الجانب الجغرافي للقضية أو ما اذا كنا نتحدث عن ولايات أو سناجق أو بشالق ، وهو ما ظل اطراف تلك المجادلات يصرون عليه ، وانما الجدل هو حول شرعية وسلامة الوعود التي قدمت للشريف حسين وأبنائه .

وحين سلم فاروقي نفسه في الدردنيل عام ١٩١٥ صرح بأن جماعة « العهد » وفرعها المدني « الفتاة » كانت تعتزم تنصيب الشريف خليفة وسلطانا على الامبراطورية العربية الجديدة . غير ان لورانس الذي ناقش الشريف في هذه المسألة عام ١٩١٧ قد تكون لديه انطباع بأن الشريف كان « كارها لفكرة قبول هذا المنصب شخصياً » .

وبصرف النظر عن نوايا القوميين العرب أو الشريف حسين نفسه ، فان الحكومة البريطانية لم تكن تنوي الاعتراف بدعاوى الهاشميين . وحتى لو كانت لديها هذه النية فقد كانت أمامها عقبة كأداء تمثلت في شخص ابن سعود . وجاء في مذكرة لوزارة الخارجية : « ان التزاماتنا تجاه الشريف حسين ليست متضمنة في أي اتفاقية أو معاهدة موقعة أو حتى معترف بها من قبل الطرفين ، لقد تعقد الموقف بسبب اعتياد الشريف تجاهل - أو رفضه ملاحظة - الشروط التي نضعها ، ومواصلة التصرف وفقا لرغباته الشخصية » .

وفيما كانت الحرب تقترب من نهايتها بدأ البريطانيون يدركون أنهم ربما اخطأوا التقدير وساندوا الشخص غير الملائم في الأراضي العربية . وبعد ذلك بثلاثين عاما صدرت عن كينهان كورنواليس وهو آخر من بقي من رجال « المكتب العربي » كلمات كانت أشبه بصدى لكلمات شكسبير عام ١٩١١ : « ان ابن سعود يقف في مقدمة جميع الحكام الآخرين ، سواء من حيث حكمته أو صفاته كرجل سياسة » .

وبحلول ذلك الوقت كان عبد العزيز بن سعود قد أكد سلطته على

مملكتـه ، وورثت امريكا الموقع الذي كان يمكن ان يكون لبريطانيا لو كانت آراء عدد من نواب الملك وموظفيهم قد اخذ بها .

وفي تشرين الثـاني (نوفمبر) ١٩١٦ وجهت بريطانيا الدعوة لابن سعود للتوجه الى الكويت لتلقي وسام لقب فارس . ومن هناك توجه مع الشيـخ خزعل شيخ المحمرة الى البصرة . وفي كلتا الزيارتين أثار ابن سعـود مشاعر الاعجاب والتقدير العميقة لدى مضيفيه البريطانيين . وكتبت عنه غيرترود بل انه « أشبه بلوحة شرقية » ، بينما كتب د . ستانلي ميلري من البعثة الاميركية ـ الذي كان قد التقى بعبد العزيز لأول مرة قبلها بثلاث سنوات ـ يقول : « من بين جميع العرب الحاضرين كان هو الأكثر حضورا ولفتا للنظر ، واقتصر أثر السنوات الثلاث التي مرت على زيادة جاذبية شخصيته ، وحين تسلم وشاحه وارتداه كان يبدو موضوعا رائعا للوحة فنية » .

وكان هذا الزعيم العربي قد أكد حينذاك استمرار ولائه لبريطانيا على رغم علمــه بأن هنــاك مفـاوضات جارية مع الشريف حسين ، غير ان ادعاءات الشريف حسين قد اسخطته . وكتب الشاهد الامريكي يقول : « لم يكن هنــاك ابـدا اي أثر للاوهام في مظهره الملكي ، الذي ذكرني بوصف مارك توين للملك آرثر » .

وقال كوكس لأمير نجد « أنا أعلم أن حنكتك السياسية سوف تجعلك توافقني على أن اثـارة هذه المسألة بينك وبين الشريف في هذه المرحلة مسألة لا تساوي أن تنفق فيها وقتك واهتمامك ، ولك أن تطمئن الى أن الالقـاب (ملك البلاد العربية) التي يستخدمها أو لا يستخدمها لن يكون لها أي مدلول بالنسبة لك » . وقد وصف دكتور هاريسون ـ عضو البعثـة الأمـريكيـة في البحرين ـ الأمير بأنه « مضيف لبق وجنتلمان بطبيعته » . كما أشاد بعطفه على الراحل الكابتن شكسبير .

وفي ١٧ تموز (يوليو) زار ستورز بغداد حيث قرر ان يحقق حلم حياته بالقيام برحلة عبر الصحراء ليلتقي بالزعيم السعودي الذي سمع عنه الكثير سواء بالخير أو بالشر .

وكان رجال كلايتون في القاهرة قد قرروا ضرورة تشجيع ابن سعود على مهاجمة ابن رشيد ، وارسل ستورز مسلحا بالوعود بتقديم الذهب لاقناع الامير .

وبدأ ستورز رحلته في تموز (يوليو) ١٩١٧ بعد ان تلقى دروسا في اللغة العربية باللهجة النجدية من غيرترود بل واستمع الى حكايات ليتشمان ومغامراته . فاستقل يخت شكسبير المسمى « لويس بللي » في نهر دجلة متجها الى الكويت ، وعند مروره بالبصرة كتب انه وجد أ . ت . ويلسون « كفؤا الى حد غير انساني » . وفي الكويت استقبله المعتمد السياسي هاميلتون والشيخ خزعل الذي كان قد تزوج مؤخراً من ارملة الشيخ مبارك الشركسية . ومن هناك خرجت قافلته بقيادة عبد العزيز ابن سعود الذي كان يقود قوافل شكسبير والذي اعجبه مظهر ستورز بملابسه الخاصة بالرحلات وبالغرامافون والاسطوانات التي اصطحبها معه . وكان عبد العزيز ابن سعود يمضغ عودا من النبات طوال الوقت ويجيب على أي تساؤل بكلمة « سلامتك » ، التي يعني بها لا ادري .

وغادرت القافلة الكويت يوم ٩ تموز (يوليو) في اتجاه الجهراء ، ووصلوا في اليوم التالي الى آبار عيون الصباحية . وقال : « لقد طمحت دائما الى المساعدة في ضم وسط الجزيرة الى الحركة ضد الأتراك ، بدءا بقاموس للعبارات النجدية الصعبة لوصف الطريق السلطاني » . وفي اليوم التالي التقوا بجماعة مغيرة تبين أنها تضم اصدقاء لعبد العزيز الذي يقود القافلة ، غير أن ستورز كان قد اكتفى وعاد الركب ادراجه الى الكويت يوم ١١ تموز (يوليو) بعد يومين في الصحراء . وكان السبب المعلق للعودة هو « ضربة شمس خفيفة .. » وكان رأي ستورز في الشيخ سالم حاكم الكويت انه « بخيل ومتعصب » .

وقد خرجت التفاصيل الحقيقية للقاء ستورز مع ابن سعود الى العلن في بيت سايكس في يوركشير عند بداية ١٩١٧ وبينما كان ستورز في اجازة ببلده حيث جرت مناقشة لالتزامات ابن سعود بمقتضى اتفاقية مع بريطانيا ، ولعلاقته بابن الرشيد ، وموقف سعود بن سبهان والتجارة بين الكويت وحائل وسورية ، وعلاقة ابن سعود مع الشريف ، وغير ذلك من المسائل .

وكتب كوكس في رسالة سرية للغاية الى مركز الاستخبارات في القاهرة يقول : « ان المبادرة فيما يتعلق بالهجوم على حائل جاءت من القاهرة ومن الملك » . وفي الوقت نفسه طلب من ابن سعود السعي لعقد معاهدة مع ابن الرشيد تخرج الأخير من المعسكر التركي . وفي خلال عام كان

بامكان كوكس أن يخبر اجتماعا لجماعة من كبار المسؤولين والعسكريين في القاهرة انه « اذا استطاع ابن سعود أن يجد طريقه للاستيلاء على حائل يجب الا نضع في طريقه أي عقبة ، غير أنه يمكن الحفاظ على توازن القوى الحالي بشكل أفضل في حالة بقاء ابن الرشيد حاكما لحائل » . واعرب المجتمعون في نفس الوقت عن اقتناعهم باستبعاد احتمال موافقة ابن سعود على ان يصبح شريف مكة حاكما أعلى فوقه .

وفي عام ١٩١٧ كان الأتراك يحاولون الحصول على مساعدة نجل ابن الرشيد الشاب في حماية الخط الحديدي من غارات الانكليز ، كما أن ابن الرشيد نفسه وقع تحت تأثير رشيد بن ليلى عميل دعوة الوحدة الاسلامية العثمانية الذي كان قد استقر في حائل . وبينما كان الرجال الجياع من قبيلة ابن الرشيد ينظرون بحسد الى بغداد حيث كانت بريطانيا تملك السيطرة ، تمكن سليمان بن داغل والد زوجة ابن سعود الذي كان معتقلا في منزله ـ من الهرب والوصول الى مقر قيادة كوكس حيث قدم لغيرترود بل شرحا تفصيليا للموقف السياسي في حائل . وقال كوكس في برقية ثانية الى القاهرة : « ان هدفنا هو ازالة ابن الرشيد سواء بكسبه أو بسحقه ، ولا يهم كثيرا أي الاسلوبين سيتم اتباعه » .

وقال ابن داغل ان شمر وسكان المدينة يريدون الانضمام الى جانب البريطانيين ولكن ابن رشيد امير حائل واقع تحت تأثير العميل ابن ليلى.

وأيا كانت نوايا بريطانيا بالنسبة لحائل أو لشريف مكة في هذه المسألة ، فان ابن سعود لم يكن الشخص الذي يمكن فرض تصرفاته عليه .

ولم يتمكن ستورز الذي كان يتبنى قضية الشريف من الوصول الى غايته ، وكان على القضايا التي تشغل القاهرة ولندن الانتظار حتى يمكن العثور على مبعوث اكثر صلابة . وفي نفس الوقت طرح ابن سعود على غريمه في حائل شروطا للتسوية . وفيما كان ستورز في طريق عودته للكويت ، تلقى ابن سعود الرد على رسالته والذي احتوى على جملة واحدة من ابن رشيد تقول : « شروطك غير مقبولة » . وقرر كوكس انه كان من الأفضل عدم تشجيع ابن سعود . وقال : « يمكننا الاعتماد على انه سوف يبذل ما في وسعه ـ بدافع الولاء لنا ـ من أجل ازعاج انصاره واخضاعهم ، غير انني اعتقد اننا يجب ان لا نتوقع ما هو أكثر من

ذلك ».

وبينما كان ستورز في طريق عودته الى القاهرة ، كان الكولونيل ويلسون في جدة يتحدث مرة اخرى مع الشريف حول ابن سعود وحول الادريسي في عسير . وأخبره الشريف انه لا الادريسي ولا ابن سعود جديران بالثقة ، ولكن الاخير ودود أكثر . ووصف ابن الرشيد بأنه « صبي أحمق » ، والعائلة الحاكمة بالكويت بأنهم « اقرب للزنوج » ، والشيخ خزعل شيخ المحمرة بأنه « فارسي » . ولذلك فان « ايا منهم لا يمكن ان يكون جزءا من الدولة الاتحادية العربية » .

وبنهاية ١٩١٧ تشكلت بعثة اخرى من كل من : هـ . سانت جون فيلبي احد سياسيي كوكس الشبان ، والكولونيل كونليف أوين ممثلا للقائد العسكري الجديد في العراق ، والجنرال مارشال والكولونيل هاميلتون من الكويت . وارسلت هذه البعثة الى ابن سعود . وفي تقرير رفعه فيلبي لكوكس بتاريخ كانون الاول (ديسمبر) اشار الى ان ابن سعود تأكله الغيرة من الشريف وخاصة مع استخدام الاخير في مراسلاته للقب « ملك البلاد العربية » . وتوجه فيلبي مع بداية العام الجديد الى جدة لمقابلة الشريف .

وكان هوغارث قد ارسل بدوره من القاهرة الى جدة لحضور الاجتماع مع الشريف بدلا من ستورز الذي اصبح ليفتنانت كولونيل مؤقت ، وعينه اللنبي حاكما عسكريا للقدس ، وذلك بعد ان رفض شريف مكة اقتراحه بالسفر الى الرياض . وكتب هوغارث لأحد اصدقائه يقول « شيئاً فشيئاً بدأت الخيوط تتجمع في يدي ولا أعلم حتى الآن الى أي يد انقلها » .

وكتب كوكس في تقريره ـ الذي نقل فيه ملاحظات فيلبي بعد لقائه بابن سعود ـ فقال : « لدى عبد العزيز ابن سعود شعور قوي بالغيرة والتصميم على ألا يحكمه الشريف حسين . ومن جانب الشريف توجد رغبة شديدة في تحقيق موقع أعلى من ابن سعود وفي ان يعترف ابن سعود بذلك له . وانني اتفهم تماما وجهة نظر السير مارك سايكس ، انه من المناسب دفع ابن سعود لتقديم اعتراف محدد بالسلطة الاعلى للشريف ، ولكني من ناحية اخرى اتعاطف مع ابن سعود في امتناعه عن أي شيء من هذا القبيل » .

وقد وصل فيلبي الى الطائف ـ قادما من الرياض ـ يوم ٢٨ كانون الاول (ديسمبـر) ١٩١٨ ، ثم ذهب الى جدة وما يزال يتردد في أذنه صدى اسم مدينـة صغـيرة تدعى خرمـة وتقـع على الحدود بين نجد والحجاز . فقد تسلم ابن سعود عريضة من سكانها تطلب حمايته بينما رفض الشريف منـاقشـة القضيـة بحجـة ان البلدة تابعة له . وكانت التعليمـات التي تلقـاها فيلبي من كوكس تقول باقتراح قيام الشريف حسين بارسال مبعوث الى الرياض لمناقشة المسألة ، ولكن عجوز مكة لم يتزحزح ، قائلا ان شعبه يتهمه بأنه « باع وطنه للانكليز » ، ومؤكدا ان الناس في نهاية الامر سوف يتقبلون رأيه في ان ابن سعود شخص بلا قيمة . وجاء في رد فيلبي « لقد ارسلتني الحكومة البريطانية الى نجد لكي أرى بنفسي ما يحدث ولسوء الحظ فان ذلك اوصلني في النهاية لتكوين رأي يختلف اختلافا كبيرا عن رأي جلالتكم » . ووفقا لما ذكره فيلبي فان هوغارث تفادى مواجهته . وواصلت بريطانيا مساندتها لكلا الزعيمين مع اعطاء افضلية للشريف . وظلت الاموال التي تدفع لابن سعود يجري الحديث عنها في لندن باعتبارها ابتزاز .

استمر النزاع حول الخرمة لمدة عامين والى ان اشعلت شرارة الحرب النهـائيـة للسيـطرة على الجزيرة العربية . فقد دخلت قوة جديدة الى الميدان وكان على ابن سعود ان يستخدمها لتحقيق اغراضه في الاراضي التي حكمهـا اسـلافـه من الوهابيين وليكتشف في النهاية انه وقع في احضان ثعبان سام .

وكـانت جماعة « الاخوان » التي اشار موسيل الى انها بدأت عام ١٩٠٨ حين شكلوا مستوطنة زراعية في العرطاوية ، والتي قال شكسبير انهـا بدأت عام ١٩١٤ ـ كانت قد أصبحت قوة صحـراوية متحمسة ومتعصبة تحركها طبيعة متطهرة ومتشددة من الايمان الديني . وكان قائدها هو فيصل الدويش او « فيصل البدين » كما كان شكسبير يدعوه ايام كانوا يخرجون سويا للصيد . وكان الآن قد فقد كثيرا من بدانته تلك .

وبحلول تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ وحين دخلت الحرب أيامها الأخيرة ذكرت وزارة الهند في لندن أن القتال قد تجدد في الخرمة وان « الملك حسين ـ وليس ابن سعود ـ يبدو هو المسؤول عن تجددها » .

وكان ارنولد ويلسون قد أرسل لوزارة الهند نص برقية كان فيلبي قد سلمها له عند عودته من بعثته لدى ابن سعود والشريف وكانت البرقية بتوقيع فخري باشا قائد قوة الحجاز وجاء فيها :

« لقد تلقينا الانباء السعيدة عن هزيمة قوات المتمرد حسين على يد « الاخوان » من سكان وادي الخرمة ، وانكم قد وصلتم الى بريدة لفتح الطريق الى مكة ، ولأداء فريضة الحج ، وانني لأهنئكم من اعماق قلبي واحيطكم علماً بأننا على استعداد ـ اذا كانت لديكم الرغبة ـ لتزويدكم بالمساعدة من حيث السلاح والذخيرة والاموال » .

وقد تصورت وزارتا الخارجية والحرب ان هذه البرقية مؤامرة جديدة من قبل حكومة الهند لنسف الاتفاق مع الشريف . وقد سألت المخابرات العسكرية عمن اعطى البرقية لفيلبي ، فردّ ويلسون بانه « ابن سعود ... بالطبع » .

وكتب شاكبره وكيل وزارة شؤون الهند يقول : « أوضحت الأوامر الأخيرة التي تضمنتها برقية الوزير بتاريخ ١٣ ايلول (سبتمبر) ضرورة العمل على ابقاء ابن سعود هادئاً بقدر الامكان . بعبارة أخرى فان موقفنا بالنسبة للحملة على حائل قد تحول من الدعم المحدود الى تثبيط الهمة » .

وخلال ايام من الهدنة حذر فيلبي لندن من أن صبر ابن سعود على الشريف حسين لن يستمر طويلا . وفي ايلول (سبتمبر) ١٩١٨ حين كان فيصل بن حسين في لندن في طريقه لمؤتمر السلام، قام بزيارة لوزارة الهند حيث أعلن أن « الخرمة تنتمي الى الحجاز » . ورد عليه فيلبي بنفس القوة بأنها « تنتمي الى ابن سعود » . وكان أمير نجد قد كتب قبل ذلك بعدة أسابيع رسالة مصالحة لحسين بناء على الحاح بريطانيا . فأعادها الشريف حسين دون أن يقرأها ومعها خطاب مليء بالتحقير .

وفي الوقت نفسه اصر فيصل على انه يجب ان يحكم سورية من دمشق بينما عارضه الفرنسيون . وقرر السياسيون المجتمعون في فرساي ارسال بعثة دولية الى المنطقة تحت رئاسة الامريكي د . هـ . س . كينغ وتشارلز كرين مع السير هنري ماكماهون و د . هوغارث كممثلين لبريطانيا . غير ان فرنسا نسفت الفكرة كلها بمجرد الامتناع عن تعيين ممثلين لها في البعثة . وفيما بدأ المبعوثون البريطانيون

والامريكيون رحلتهم كتب فيصل لآللنبي يقول : « لقد عدت من أوروبا بعد ان قرر مؤتمر السلام ارسال لجنة دولية الى البلاد العربية وخاصة سورية . وقد قرر الشعب العربي المطالبة بحقوقه الوطنية من أجل الهدف الذي يقدسه » .

وبعث الجنرال اللنبي بنسخة من الرسالة الى السير هنري ويلسون ـ الذي خلف روبرتسون في رئاسة الاركان الامبراطورية في تموز (يوليو) ١٩١٨ . وكان اللنبي محرر سورية متعاطفا مع فيصل . وقال اللنبي لويلسون ان هذا الخطاب « يوضح مدى الآمال المعلقة على اللجنة المقترحة (...) انني لا أعتقد انكم ـ أو الفرنسيون ـ تدركون مدى خطورة ما تتعاملون معه ، وان الموقف في الحجاز يزيد من صعوبة المشكلة .. ان هذه الوهابية لها نفس الطبيعة المتعصبة التطهرية التي كانت لدى اتباع كرومويل ، وهي معدية للغاية ، كما انها جذابة بالنسبة للعرب الذين يتسمون بالوحشية والجهل (...) لقد ارسلت كلايتون الى بيروت لمقابلة البعثة الامريكية (...) ومن المهم ان لا يدعى اي شخص يعرف انهم لا يحظون باعتراف كامل » .

وبحلول ذلك الوقت كان فيصل يتفاوض مع اعدائه الفرنسيين ساعيا لتدخلهم ضد ابن سعود ، بينما كان يعرض عليه في نفس الوقت مساعدته لقتال أبيه الشريف حسين ويكتب اليه الرسائل مؤكدا صداقته الخالدة ومزينا اياها بآيات من القرآن .

وقبل خروج الامريكيين في طريقهم الى بيروت ودمشق اخطرهم ويليام ييل في باريس بأن السوريين « يرغبون في طلب الامريكيين اولا ، تليهم بريطانيا ، ولكنهم يرفضون فرنسا تماما » . وفي سورية التقت بهم غيرترود بل ووصفت عملهم بأنه « خداع اجرامي » . وكان مارك سايكس بالطبع أحد محاور المفاوضات في باريس ، غير أنه خرج منها بطريقة درامية حين أدى به الارهاق والقلق للاصابة بالتهاب رئوي حاد قضى عليه في شباط (فبراير) ١٩١٩ في باريس .

* * *

وبعد ايام قليلة من وفاة سايكس المفاجئة التي تركت ظلالها على أجواء مؤتمر باريس ، بدأ عدد من اصدقائه وزملائه القدامى ومن

اعدائه ايضا في الشرق في التوافد على مقر المؤتمر . وكانت غيرترود بل اول من وصل في آذار (مارس) ، وهي التي كانت الحصان الأسود لسايكس ومن أقرب المخلصين له . وبعدها بعدة ايام وصل رئيس الاركان الجنرال اللنبي الذي كان يتولى شؤون الاراضي المحررة منذ توقيع الهدنة مع تركيا في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ . وكانت هذه الاراضي تشتمل كل ما تم تحريره من اراضي الامبراطورية العثمانية باستثناء العراق ، اي انها تشمل اراضي فلسطين وساحل وصحراء سورية ولبنان والاردن .

وكان اللنبي قد ادلى بتعهد للعرب في نهاية الحرب في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ . ورغم دخول جنرال فرنسي الى القسطنطينية على حصان ابيض، الا ان المقاتلين غير النظاميين من رجال فيصل تمكنوا من احتلال دمشق . كما تولى مصطفى كمال قيادة مجموعة أضنة من جيش ليمان المهزوم المعروف باسم « يلدريم ». واضافة الى كل هؤلاء حضر ممثلون عن جميع المصالح الأخرى ذات الصلة بالتسويات الجارية .

كان هدف فرنسا وبريطانيا العظمى الاساسي من دخول الحرب التي اطلقتها في الشرق الاطماع الالمانية ، هو تحقيق التحرير الكامل والنهائي لتلك الشعوب التي عانت طويلا من استبداد الاتراك ، وتشكيل حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من مبادرة تلك الشعوب وارادتها الحرة .

وقد عادت الطيور الى مواطنها لبناء الاعشاش ، ولوّح فيصل بتصريح اللنبي في وجه كيرزون في لندن . وكان اللنبي قد بدأ في تلك المرحلة يختلط بالعرب واليهود ، وبضباط الاستخبارات من اعضاء « المكتب العربي » الذين تحولوا لمحرضين سياسيين ، وبالحاكم المدني وحاشيته المكونة من سكان العراق وايران ومصر وارمينيا ، وبكل الاشخاص ذوي الصلة بالتسويات في منطقة الشرق الاوسط والقادمين لمواجهة المنتصرين بالمطالب والمطالب المضادة .

وفي عام ١٩١٧ كتب هوغارث ـ الذي كان لا يزال الأب الروحي لجماعة القاهرة ـ يقول :

« ان الجنس العربي يطالب بمكانه بين الاجناس المحاربة في العالم . وهو يدعي انه ذو حضارة عظمى ، وربما أعظم حضارة لدى الشعوب التي آمنت بدين وعملت على نشره . لقد قيل مرة على سبيل السخرية ان

اليهودي هو الشخص الذي ينقذ الآخرين ويعجز عن تخليص نفسه ، والواقع انه لا هذا اليهودي ولا غيره من اليهود ، هو الذي تنطبق عليه هذه السخرية وانما اقاربهم الساميون من العرب هم الذين يمكن ان تذكر هذه المقولة عنهم » .

وأصر اللنبي ـ الذي كان على وشك خلافة وينغيت في مصر ـ على ان التصريح السوري يعني تماما ما جاء به . بينما اعتقد ارنولد ويلسون ـ الذي شعر بوجود مزاد سياسي هدام في سورية والعراق ـ بأنه « متلاعب » .

« انني منطلقة غدا مع بلفور الذي ـ في تصوري ـ لا يهتم حقيقة . وآمل في اللحاق بلويد جورج » . هكذا كتبت غرترود بل التي كانت تروج لقضية الشريف حسين مع لورانس . واعتقدت انه لو تمكنت لجنة فيصل في دمشق من الصمود لمدة ستة اسابيع فان فرنسا سوف تطرد من سورية . غير ان الجنرال غورو ـ خليفة بيكو ـ لم يمكن زحزحته . ورغم الهجمات المتكررة لرجال فيصل على طرابلس وبعلبك فانه تمكن من خلق وجود فرنسي راسخ . كذلك فان الجنرال ويغان الضابط السياسي لفرنسا في سورية لم تحركه التوسلات ولا التهديدات .

ولجأ فيصل الى كيرزون ، الذي كرر التأكيدات التي وردت في مراسلات الحسين ـ ماكماهون ، ولكنه اضاف : « اننا قد دخلنا في التزامات مع الفرنسيين ومع العرب وهذه الالتزامات ليست متعارضة وانما يكمل بعضها البعض » . وكان ما يصطدمون به هو بالتحديد المعاضة الفرنسية ، وان المنطقة موضع المناقشة ـ وفقا لاتفاق سايكس بيكو ـ ليست لها علاقة ببريطانيا أو أمريكا .

ومع تصاعد حدة الجدل حول سورية دخل عنصر جديد على الموقف هو الانتفاضة القومية لمصطفى كمال في تركيا . وحتى ابن سعود شعر بالقلق . وفي نيسان (ابريل) ١٩٢٠ بعث آرنولد ويلسون برسالة طمأنة لعبد العزيز قائلاً له ان السلطان التركي وحيد الدين الذي خلف محمد الخامس اثناء الهدنة يشعر الآن بأن لديه ما يكفي من القوة لمواجهة القوميين الكماليين . واقترح ان تتم ادانة الكماليين من خلال شيخ الاسلام . وبنهاية نيسان (ابريل) كان باستطاعة ويلسون اخطار ابن سعود بأن مؤتمر السلام قد منح فرنسا الوصاية على

سورية ، ومنح بريطانيا الوصاية على العراق وفلسطين . ولاستكمال الصورة في الشرق الأوسط أشار ايضاً الى ان شاه ايران قد استضيف في بغداد وهو في طريق عودته من مؤتمر السلام متجهاً الى طهران ، وان الاستعدادات المناسبة جارية لاستقباله . وبعد فترة قصيرة عاد كوكس من مهمته في طهران الى بغداد . تمت ازاحة السلطان احمد شاه على يد الكولونيل رضا خان الذي انشأ نظام اسرة بهلوي ، ورفض الاتفاقية الانكليزية الايرانية التي اعدها كوكس بعناية عام ١٩١٩ ، وقبلها حتى البولشفيك .

وفي نيسان (ابريل) ١٩٢٠ اصبح سعود بن رشيد آخر الضحايا في عائلته ذات الميول الدموية . وابلغ خبر موته للبحرين يوم ٢٣ ، وقد كتب الأمير الجديد عبد الله بن متعب ـ فور توليه ـ الى عبد العزيز ابن سعود يطلب منه التصديق على اتفاقية سابقة بين رؤساء الرياض وحائل . وكانت بريطانيا تخشى ان يطالب فيصل بن رشيد ـ الهارب لدى ابن سعود منذ ايام شكسبير ـ بحكم حائل . غير ان ابن سعود لم يكن محتاجا لتقديم تنازلات للاتفاق مع أي شخص في ذلك الوقت . فقد اجتاح الاخوان الصحراء دون مقاومة . وكانت اكبر مهمة للامير السعودي هي كبح جماحهم عن الغزوات التي يرغبون فيها بشدة . وكان ابن جلوي ممثله في الاحساء ، قد اضطر بالفعل الى وضع عدد من زعماء الاخوان في السجن والى جلد البعض الآخر علنا .

غير ان ابن سعود كان في تلك اللحظة قد امتطى ظهر النمر ولم يعد من السهل عليه ان ينزل من عليه . وكان الامير يتعامل مع بريطانيا عن طريق البحرين حيث يوجد هـ . ر . ب . ديكسون، وهو ايضا احد الشباب العاملين مع كوكس باعتباره ضابط اتصال مع الزعيم السعودي . وكان نائبه يدعى خان صاحب سيد صديقي حسن وهو هندي مسلم اقترحت وزارة الحرب ان يصطحب قافلة الحج الى مكة باعتبار ذلك غطاء مناسب لعملية تجسس في الاراضي السعودية حيث يتصل بمصادر سرية . وقد قال له ديكسون :

« كن حذرا للغاية في كل شيء واستشر الشيخ فرحان في جميع المسائل ، فهو شخص موثوق به . وابن سعود يحبه ويثق فيه . واجمع كل ما يمكنك من معلومات عن الاخوان وهل حركتهم في نمو وما اذا كان

نفوذ ابن سعود في تزايد أو تناقص . واخيراً بالنسبة للبولشفيك : يمكن القول ان هناك مؤشرات توحي برغبتهم في السلام . وقد أرسلوا بعثة الى انكلترا كما انهم قد قاموا مؤخراً باحتلال رشت في ايران ولكنهم لم يظهروا اي نية للتقدم اكثر من ذلك . بالنسبة لتركيا : ان القوميين الكماليين معادون للسلطان وللحلفاء وهم يسيطرون تماما على الاناضول . والحلفاء يمنعونهم على اي حال من التقدم تجاه القسطنطينية ، كما ان اليونانيين قد بدأوا تحركا ناجحا ضد جناحهم الايسر».

وكان ابن سعود يحتاج الى طبيب مقيم في الرياض في الوقت الذي قام فيه صديقي بالحج . وذكر ويلسون انه يجب ان يكون مسلما سنيا وقادرا على توفير التقارير المطلوبة للاستخبارات .

وكان اللنبي على اتصال مستمر مع وزارة الخارجية حول قضية الشريف ومطالبته بالخرمة . واحتج في برقية بعث بها من مقر عمله كمندوب سام في القاهرة، على ان وزارة الخارجية لا تولي الاهتمام الكافي لتصريح ابن سعود نفسه ، بأنه لا يرى اي فائدة في التفاوض مع الملك (حسين) لأن نجد تفضل الفناء على تسليم ذراع واحد من الخرمة أو بلدة تربه القريبة منها . كما أن الوزارة لم تخطره بملاحظة صدرت عن ديكسون في التقرير الرسمي الذي وصل اليه ومقتضاها أن « قلة الأصدقاء وكثرة الوعاظ قد حولت ابن سعود الى شخص مهووس دينيا » . وكان قد أخبر ـ قبل ذلك ـ رئيس الأركان العامة للامبراطورية ويلسون « أعتقد أنه لن يضر بهيبتنا اذا تركنا تخليص مكة والمدينة للفرنسيين » . وفي نيسان (ابريل) ١٩٢٠ ذكر لوزارة الخارجية ان ويلسون الآخر في بغداد :

« لا يبدو انه يرى ضررا في الانتشار السريع لحركة الاخوان واحتمال اكتساح ابن سعود للحجاز . وانا على ثقة من ان هذا ليس رأي الملك . نحن ملتزمون بتعهدات محددة للملك حسين الذي نصبناه في مواجهة معارضة الهنود وغيرهم من المسلمين ، ومن واجبنا ومصلحتنا ان نسانده».

وقد أصر اللنبي ـ الذي خرج من الحرب بسمعة حسنة بالنسبة للنضج والقدرة على القيادة ـ أصر حتى النهاية على اعتقاده بأن الشريف

كان على صواب وابن سعود مخطئا . وعلى أي حال فان بريطانيا مدينة بوعد شرف لعجوز مكة . وفي عام ١٩١٩ كتب الى وزارة الخارجية يشكو من هجوم رجال ابن سعود على تربه وارسلت الشكوى الى وزارة شؤون الهند وعلق عليها شكبره بقوله : « ان المسؤولين بالقاهرة قد أجمعوا على موقف منحاز في هذا الموضوع . ومن العبث وصف ادعاءات ابن سعود بأنها « حماقة » كما قال اللنبي » .

وبدا ان خطة اللنبي ترمي الى الجمع بين الغريمين في مؤتمر في لندن حيث يمكن تسوية جميع القضايا العالقة بما فيها الادعاءات الأخيرة للشريف حسين بشأن عسير . غير أنه قبل انتهاء الاستعدادات لدعوة الرجلين الى بريطانيا ، أخذ ابن سعود زمام المبادرة ، وحتى « المتطفلون » الذين رسموا مؤامرة الشريف والمعارضون لادعاء ابن سعود بأنه رئيس جميع القبائل في وسط الجزيرة ـ لم يملكوا أنفسهم من الاعجاب بالرجل الذي وقف في طريق خططهم . وفي آب (اغسطس) ١٩١٩ كتب أحد الاشخاص ـ ربما كان كورنواليس ـ في نشره « اراب بوليتين » متحدثا عن رسائل ابن سعود الى بوشهر وبغداد باعتبارها امثلة للاتصال ، اذا ما قورنت برسائل حسين غير المتجانسة .

وفي ٢٦ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ اخبر ابن سعود ديكسون بأنه قد اتفق مع ابن رشيد الجديد . وبعد شهر واحد أو أكثر قليلاً أعلن ابن رشيد الحرب على الرجل الذي عقد معه المعاهدة . وفي ٢٧ تموز (يوليو) قامت قوة من الاخوان بقيادة سعود ابن عبد العزيز بمهاجمة شمر عند العدوه على بعد ٢٠ ميلاً شرقي حائل، واوقعت بهم هزيمة ساحقة . ولكن ابن سعود كان لا يزال ينتظر الوقت المناسب ، ولم يتم الاخوان احتلال حائل الا بنهاية ١٩٢١ .

* * *

نادرا ما يثير الثوار ضجة كبيرة حول مصدر سلاحهم او تمويلهم . وفي العراق كان الدعم المالي خلال عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ يأتي من جميع الأنحاء . وفي اليوم السابق لاندلاع العنف في تل عفر يوم ٢ تموز (يوليو) ١٩٢٠ تحدث ويلسون مع لجنة من ١٥ من سكان بغداد ووعدهم ببيان سياسي من الحكومة البريطانية .

وفي يوم ١٢ أرسل ويلسون نداء الى لندن يطلب مزيدا من الجنود لوقف المد الثوري . واخطرت وزارة الحرب وزارة الهند بالرد عليه « بأن لا يتدخل في المسائل الحربية » . وفي اليوم التالي هوجمت قافلة عسكرية وابيـدت بالقرب من الموصل . وفي ١٧ تموز (يوليو) ١٩٢٠ اصدرت « رابطة ما بين النهرين » بيانا بالاشتراك مع اللجنة السورية التابعة لفيصل موجها الى احرار العراق جاء فيه : « لا شك انكم سمعتم عن الايرلنديين والتشيكوسلوفاك والارمن وسكان القوقاز وليتوانيا .. الخ » وطالب البيان بعرش العراق لشقيق فيصل عبد الله .

وفي ٢٢ تموز (يوليو) ألقي القبض على ميرزا محمد رضا نجل زعيم المجاهدين في كربلاء ، ومعه عشرة من المتطرفين قرب الحلة . ووجد رجال الأمن معـه رسالة موجهة للمجاهدين من شركة « ستاندارد اويل أوف امريكا » توضح ان أموالاً امريكية يتم توزيعها على المتطرفين الشيعة عن طريق القنصل الامريكي في بغداد . وكانت الأموال البريطانية الموجهة لحسـين وفيصـل تنحرف عن وجهتها لتساعد حتى اعداءهم الدينيين الألداء في كربلاء والنجف . وفي ٢٣ تموز (يوليو) ذكر بيان حكومي تُلي في مجلس العموم أن الموقف تحت السيطرة . ولكن في تموز (يوليو) كانت الثورة تعم البلد . وكان معظم شباب المجندين الذين يرسلون الى الحلة دون تدريب كاف أو تعليمات واضحة ولا قيادة جيدة يلقون حتفهم . وفيمـا احتـدمت المعـارك قام السفير الامريكي في لندن بزيارة لوزارة الخارجية للمطالبة « بفرصة متساوية » للامريكيين في امتيازات النفط بالموصل . في الوقت الذي انتشرت فيه المعارك في جميع أنحاء المنطقة وفقا لما جاء في آخر رسالة لليتشمان التي وصف فيها الموقف بأنه لا أمل فيه .

وكان المسؤولون السياسيون الذين يحاولون منفردين حفظ قدر من النظام في ظروف مستحيلة يسقطون واحداً تلو الآخر ، وكان العسكريون والمـدنيون يسقطون في الكمائن ويقتلون ، غير ان مقتل ليتشمان أكثر جنود الجيش البريطاني شعبية في الصحاري كان القشة الاخيرة . فقدم ويلسون استقالته في ٣٠ تموز (يوليو) ١٩٢٠ .

وفيما كان الهدوء يعود تدريجياً ظهر الفرنسيون في دمشق ومعهم قرار الانتداب والقوا بفيصل ولجانه الى خارج البلاد . وعاد كوكس ليأخذ مكان ويلسون ملوحا بغصن زيتون ، وقد آمن بفكرة غيرترود بل بضرورة

حصول فيصل على عرش « عراق جديد ديموقراطي » . وقد بدأ باستشارة نقيب اشراف بغداد وهو اهم الشخصيات السنية ذات التأثير . وكان النقيب قد اخبر غيرترود بل قبل ذلك انه يفضل الف مرة عودة الاتراك على ان يرى الشريف حسين وابناءه ينصبون . غير ان كوكس كان قادرا على الاقناع .

ولما وصل تشرشل وزير المستعمرات الجديد ، الى القاهرة بدا الأمر وكأنه اعاد تشكيل « المكتب العربي » الذي كان كيرزون قد حله في شباط (فبراير) ١٩٢٠ ودمجه في مكتب المقيم بالقاهرة ومعه نشرة « البوليتين » التي لم تعد فرعا للمخابرات العسكرية . وكان في انتظاره كوكس ومعه ذراعه الأيمن غيرترود بل . كذلك كان لورانس وكلايتون ولويد جورج وهوغارث وهيوبرت يونغ ينحركون باستمرار بين الفنادق ومقر المقيم كما كانوا يفعلون في تلك الايام المليئة بالتآمر والتهور عام ١٩١٥ و ١٩١٦ حين كانت مسألة الشريف حسين ما تزال في بدايتها ، بينما كانوا الآن يسعون لتوصيلها لمرحلة النضج والاثمار . وقامت غيرترود بل باعطاء فكرة كاملة للسير بيرسي وامتلأت حقيبة اوراقه بصفحات التقارير التي اعدتها له ، وكانت محتويات تلك التقارير متشابهة بشكل ملحوظ مع الأفكار التي غذى بها لورانس تشرشل ، والتي تتلخص :

ان فيصل الذي لم يعد مقبولاً الآن في سورية سواء من الفرنسيين أو من العديد من مؤيديه لذلك يجب ان يحصل على عرش ما بين النهرين التي اصبحت تسمى من الآن فصاعدا باسمها القديم وهو « العراق » ، وان تنشأ منطقة عازلة بين العراق وسورية وفلسطين تسمى « شرق الاردن » ، تقتطع من الصحراء ويتولى عرشها عبد الله الابن الثاني للشريف حسين . وبحلول أيار (مايو) ١٩٢١ اصبح بامكان فيصل أن يخلف دمشق واضطراباتها وراءه ويعد نفسه لدخول ظافر الى بغداد . وكان كوكس قد عاد الى هناك في تشرين الاول (اكتوبر) السابق وبرفقته السيد طالب النقيب الرجل الذي نفاه الى الهند ، والذي قبض عليه مرة اخرى وأبعد من البلاد قبل تتويج فيصل بشهر .

وكان ابن سعود قد أرسل ابنه فيصل الى اوروبا عام ١٩١٩ لكي يكون له تمثيل في مؤتمر السلام . وكان برفقته احمد الثنيان قريب ابن

سعود الذي تدرب على العمل الدبلوماسي في القسطنطينية . وكان براي احد رجال الاستخبارات الذين ارسلوا للعناية بالامير الشاب ورفيقه ، وقد اثار اشمئزازه الاسلوب الذي تعامل به رجال وزارة الخارجية واللوبي العربي في باريس معهما . وكان سلوك الشريف في نهاية ١٩١٧ قد اغضبه الى حد انه طلب نقله الى فرنسا . وها هو الآن مرة اخرى يجد نفسه في قلب النزاع المتعلق بالشريف .

وفي وزارة الخارجية البريطانية كان العرب يعاملون بشكل يتسم بالوصاية ، وكان هيوبرت يونغ ـ الذي التحق بمكتب تشرشل لشؤون الشرق الأوسط بعد اتصالاته خلال الحرب مع لورانس في سورية ـ يتعامل بدرجة من الخيلاء جعلت الثنيان يقول انه سوف يذبحه اذا قدم الى نجد في يوم من الايام .

وتم ترتيب لقاء بين « الفيصلين » بواسطة جعفر العسكري ـ الذي اصبح فيما بعد وزيرا للدفاع في اول وزارة للمملكة العراقية . وقد جلس جعفر وفيصل ابن الحسين في مواجهة فيصل بن عبد العزيز وابن ثنيان . وسأل ابن شريف مكة على الفور : « من هم هؤلاء الاخوان ؟ لقد سمعت انه غير مسموح لهم بحلاقة ذقونهم » .

وكان هذا وفقا للمتعارف عليه بين العرب ـ يعتبر سؤالا مهينا .

ابن ثنيان ، الذي عارض عقد الاجتماع منذ البداية قام فجأة واخذ اميره وغادر الغرفة وهو يغلي بالغضب ، واخذ يتمتم بعبارات ساخطة وهو يستقل السيارة مع الأمير فيصل بن عبد العزيز والميجور براي معهما وهما يغادران مكان الاجتماع .

وقدر لفيصل بن الحسين ان يعرف بسرعة « من هؤلاء الاخوان ». فبعد استيلائهم على حائل عام ١٩٢١ ، زحفوا على مناطق ابن شعلان ، ثم احتلوا الجوف . وفي ١٩٢٤ احتلوا الحجاز ونفوا الشريف حسين الى قبرص بعد ان تنكر له حتى ابناؤه . وفي كانون الاول (ديسمبر) من نفس العام دخل ابن سعود مكة وارتدى ملابس الاحرام لأول مرة في حياته . وحرّم ابن سعود على قوات ابن دويش المتعصبة أن تنهب أو تنتهك حرمات المدينة المقدسة، وهو أمر لم يسامحه عليه ابن دويش ورجاله الذين كانوا يعتبرون أن الوثنية هي اكبر الخطايا . وفي العام التالي حصل ابن سعود على اعتراف بريطانيا وبقية دول العالم بأنه ملك

غير منازع على وسط الجزيرة ،، غير انه لم يتمكن الا بحلول ١٩٣٠ من طرد ما تبقى من قوات الاخوان بعد أن ادوا الغرض المطلوب من وجودهم .

وبذلك استطاع الامير الذي ركلته بريطانيا اثناء الحرب استرداد أرض أجداده، واشتهرت عنه اقوال مأثورة حول مختلف المواقف ربما كان من أكثرها استخداما قوله : « اذا بذرنا جيدا ايام الرخاء فسنحصد حصادا جيدا ايام الشدة » . كما اشتهرت عنه عبارة وداعية لبقة استخدمها مع محاربيه من الاخوان ومع بريطانيا وهي : « عسى ان يجمعنا الله في الجنة » .

وفي عام ١٩٢٢ قام كوكس بواحدة من أخريات مهامه الرسمية قبل ان يعود للتقاعد في بلاده التي لم يرها الا لفترات محدودة منذ طفولته . فقد ذهب الى العُجير على ساحل الاحساء لتخطيط حدود العراق وسورية والاردن والكويت وبالطبع العربية السعودية . وتعامل الانكليزي العجوز ذو الشعر الفضي مع أمراء العرب ووجهائهم وكأنهم تلاميذ في مدرسة . فقد اكتفى باخطارهم ببساطة اين سترسم الحدود ، ومع شكه باحتمال وجود النفط فانه حرص على تحديد مناطق محايدة بين الكويت والعراق والعربية السعودية تكون بمثابة منطقة عازلة في حالة نشوب خلافات أو حروب . وعين ستورز أول حاكم مدني بريطاني للقدس ، كما عين هربرت صموئيل مندوباً سامياً في فلسطين ليرأس نظام الانتداب ، بعد ان انفجرت احداث العنف والاضطرابات في انحاء الشرق الاوسط من فلسطين الى كردستان ، كما ساد العصيان المسلح العراق . ولم يكن هناك ما يدعو بريطانيا للعجلة في تنفيذ وعدها الثالث وهو المتعلق بانشاء وطن قومي يهودي في فلسطين .

وكان الوفد اليهودي في مؤتمر السلام برئاسة القاضي فرنكفورتر قد جادل وساوم، واستمع لويد جورج وكليمنصو وغيرهما من القادة الى رؤية هارونسون الشخصية حول طبيعة اسرائيل . ولم تستطع بريطانيا أن تحسم ما اذا كانت قد وعدت اليهود ام الشريف حسين بفلسطين . ولم يخف ماينرتسهاغن اعتقاده بأن بريطانيا تمزق وعد بلفور بالتدريج . واكد مكماهون طول الوقت انه ينوي استبعاد فلسطين من الاراضي العربية التي ستحصل على الاستقلال . وفي مناسبة ما تحدى

كيرزون ماينرتسهاغن بخصوص ولائه . فأوضح رجل المخابرات حقوق الصهيونيين ، وأضاف قائلاً : « ان موقفي من اليهود عامة تحكمه حاسة معادية للسامية تم تعديلها من خلال الاتصالات الشخصية ، اما آرائي في الصهيونية فهي آراء صهيوني متحمس » .

وكانت للسير هنري ويلسون ، رئيس اركان الجيش الامبراطوري ورجل الاستخبارات العسكرية الفذ ، نصيحة طالما كررها بخصوص المناطق المتنازع عليها ، فكان يقول : « اخرجوا من الاماكن التي لا تنتمي اليكم وتمسكوا بتلك التي تنتمي لكم » . وقد ادخل في الطائفة الاخيرة مصر وايرلندا ولكنه استبعد منها فلسطين والعراق .

* * *

كان مكماهون ساذجا ، وكان اسكويث وغراي اكثر كسلا أو انشغالا بأمور اخرى ، من أن يقرأوا الرسائل التي بعث بها مكماهون . وقد اعتبر لويد جورج وكيتشنر ـ كما كان تشرشل لفترة وجيزة ـ مغامرة الشريف حسين بمثابة أداة مفيدة في استراتيجيتهم « الشرقية » . والشيء الذي سيظل دائماً مستعصيا على الفهم ، الطريقة التي تمكن بها الضباط الصغار لفترة طويلة جدا ، من أن يهزأوا برغبات ومعارضة الضباط الكبار ، وليس فقط برغبات ومعارضة القائد العام . في حين انه كان يتعين على هؤلاء الضباط الصغار بمقتضى الأصول العامة للانضباط العسكري، عدم مغادرة مكاتبهم في « فندق سافوي » بالقاهرة الا في حالة القيام بمهام توافق عليها الاستخبارات .

وحتى النهاية ، سمح لهم بالوقوف الى جانب محميهم فيصل بن الحسين في مواجهة مقاومة فرنسية عنيفة ، وبتأييد رجل مكة العجوز في المعركة التي ادارها بغباء مع ابن سعود . وكما لاحظت غيرترود بل بشكل صحيح عندما وصل صناع السلام الى مائدة المؤتمر ، ان المحار قد التهم ووضع في فاتورة الحساب . وقالت : « لم تكن هناك اي فائدة من التكهن حول كيفية دفع الفاتورة ، وبأية نسبة » .

وطالب المنتصر المحتمل الوحيد في شبه الجزيرة العربية ابن سعود بحقه ، وورثت امريكا العمل الجيد الذي خلفته الحكومة الهندية ، وورثت نصيبا من عائدات النفط الخاصة برجل عانى خلال حياته من

الفقر المدقع ثم امتلك ثروة لا نظير لها . اما المملكة الهاشمية في العراق ، والتي ساندتها غيرترود بل بكل تعاطف فقد تهاوت وسط اعمال عنف كانت متوقعة .. وقام المخلصون الجدد بسحل آخر الناجين من أتباع الدعوة القديمة للقومية العربية في الشوارع ، لأن المخلصين كانوا واثقين الى حد بعيد من ان المصير نفسه كان ينتظرهم .

وبدأت القومية المنتشرة في اطار الاسلام الابتعاد عن الغرب الكافر والالتفاف حول الشرق الملحد . واستعادت مصر قناة السويس ، وتآمرت بريطانيا وفرنسا واسرائيل لاستعادتها مرة اخرى . واصبح شيوخ الخليج الذين نجوا تحت مظلة الحماية التي وفرتها البحرية البريطانية ، أكثر الناس ثراء وقوة . وأكد شيوخ الاسلام وآيات الله في فارس (أو ايران كما بدأوا يسمونها) مظاهر الاستياء القديم الذي اتسمت به عقيدتهم الدينية ، وندد المؤمنون بالشاه بهلوي « ملك الملوك » . أما روسيا السوفياتية فقد حصلت على الجائزة التي استعصت على القياصرة طيلة اربعة قرون والتي تتمثل في افغانستان ، والحصول على مدخل الى الحدود الشمالية الغربية ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى مما يشبه الوعد الذي قطعه سير ادوارد غراي والمتمثل في امتلاك ميناء يطل على المياه الدافئة . وكرر رئيس امريكي بالحرف الواحد تقريباً تحذير لورد لانسدون عام ١٩٠٣ عندما قال :

« ان اي محاولة من جانب قوة خارجية لتحقيق السيطرة على منطقة الخليج الفارسي ، ستعتبر اعتداء على المصالح الحيوية للولايات المتحدة . وسيتم صد هذه المحاولة بكل الوسائل الضرورية ، ومن بينها القوة المسلحة » .

وهكذا لم يتغير سوى اسم الدولة التي تقوم بدور الحماية .

ستار

اللاعبون والمسرح :

شخصيات عربية

شخصيات الجزيرة العربية	الأدوار الرئيسية

آل سعود ـ الرياض

منذ بدء الحكم الوهابي في نجد (حوالي ١٧٤٠ الى ١٨١٩) كانت الدرعية الواقعة بالقرب من العاصمة الحالية الرياض ، مقرا للاسرة الحاكمة . وفي عام ١٨١٩ تعرضت الدرعية للتدمير بصورة كاملة على يد الجيش التركي ـ المصري التابع لمحمد علي باشا وابنه ابراهيم . وفي العام التالي أعيد بناؤها بصورة جزئية ، ولكنها لم تصبح مقرا للعاصمة الجديدة والدائمة في وسط شبه الجزيرة العربية الا في عام ١٨٢٤ عندما تم طرد الاتراك وحلفائهم من الرياض .

سعود بن محمد المصران : تاريخ الميلاد غير معروف وتوفي في ١٧٢٤ . مؤسس اسرة آل سعود . خلف أربعة ابناء : ثنيان ومحمد وفهان ومصري .

محمد بن سعود بن محمد المصران : تاريخ الميلاد غير معروف . آمن بالمذهب الوهابي الاسلامي الذي كان يدعو اليه محمد بن عبد الوهاب حوالي عام ١٧٤٠ . تم الاعتراف به كزعيم روحي ودنيوي للوهابيين في ١٧٤٧ . توفي في ١٧٦٥ .
(ولد محمد بن عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابي في عام ١٧٠٣ وتوفي في ١٧٩١ ، وعند وفاته كانت معظم اجزاء شبه الجزيرة العربية تؤمن بتعاليمه) . وخلف محمد بن سعود ولدين : عبد العزيز وعبد الله .

عبد العزيز بن محمد آل سعود : ١٧٦٥ ـ ١٨٠٣ . انتشرت سلطة الوهابيين في كافة اجزاء شبه الجزيرة العربية في أثناء حكمه وذلك بقيادة

ابنــه المحــارب سعود . وقد قتل عبد العزيز في مسجد الدرعية في عام ١٨٠٣ على يد رجل من الشيعة انتقاماً من جيشه الذي كان قد قام قبل عامين (٢٠ نيسان / ابريل ١٨٠١) بغارة على مدينة كربلاء الشيعية المقدسة . خلف ولدين : عمر وسعود .

سعود بن عبد العزيز آل سعود : ١٨٠٣ ـ ١٨١٤ . وصل النفوذ الوهـابي الى ذروتـه بزعـامته القوية ، وقد فتح الحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة) وغزا العراق الذي كان خاضعا للاتراك ، وبسط سلطانه على الدول الخليجية . خلف عدة أبناء اهمهم : عبد الله وفيصل ونصر وتـركي وخـالد . وفي خريف ١٨١١ غزا جيش محمد علي باشا بقيادة طوســون ابن الوالي المصري ، وسط شبه الجزيرة العربية . وكان هذا الجيش يضم تعزيزات من قبيلة الحويطات التي كانت تسكن منطقة العقبة .

عبـد الله بن سعــود : ١٨١٤ ـ ١٨١٨ . قاوم التقـدم التركي ـ المصري بشجاعة ، ولكن قوات العدو احتلت الدرعية ودمرتها في ايلول (سبتمبر) ١٨١٨ . واخذ عبد الله أسيرا الى القسطنطينية حيث قطع رأســه في كانون الأول (ديسمبر) ١٨١٨ . خلف ثلاثة اولاد : سعد وسعود ومحمد .

مصري بن سعود : والي من قبل الاتراك ، ١٨١٩ ـ ١٨٢٣ .

تركي بن عبد الله : (ابن عبد الله بن محمد بن سعود بن محمد المصران وليس ابن عبد الله بن سعود المذكور عاليه) ١٨٢٤ ـ ١٨٣٤ . قتل بالقرب من احد المساجد في الرياض في أيار (مايو) ١٨٣٤ .

فيصـل بن تركي آل سعــود : ١٨٣٤ ـ ١٨٣٨ وايضـا ١٨٤٣ ـ ١٨٦٥ . كان يلقب بـ « فيصل الكبير » ، وقد قاد حرب التحرير ضد قوة الاحتـلال التـركية في عهد والده تركي ، اعتبارا من ١٨٢١ . وفي عام ١٨٢٤ تمكن من طرد الاتـراك من الرياض وجعلها عاصمة له . ولكن الأتراك زرعوا بذور الفرقة بين أمراء آل سعود وفازوا بتأييد فرع بعيد من الأسرة بزعامة مصري بن عبد الرحمن بن محسن ، وهو واحد من احفاد سعود الأول . وكذلك تأييد خالد عم فيصل وابن سعود بن عبد العزيز . وقد تم تنصيب فيصل أميراً لدى وفاة والده في عام ١٨٣٤ ، ولكن الأتراك خلعوه في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٣٨ ونفوه الى مصر .

وفي صيف ١٨٤٠ غادرت القوات التركية ـ المصرية وسط شبه الجزيرة العربية بعد ان انخفضت روحها المعنوية نتيجة للهجمات المستمرة عليها ، وبعد ان تعرضت للضعف بسبب حرارة الجو والامراض . واحتل الرياض في عام ١٨٤١ مطالب جديد بالامارة من الاسرة السعودية وهو عبد الله بن ثنيان . وهرب المطالب الآخر وهو خالد الى جدة في ١٨٤٢ . وعاد فيصل في أيار (مايو) ١٨٤٣ وبصحبته عبد الله بن الرشيد وجيش شمر بقيادة عبيد بن الرشيد . واستسلم عبد الله بن ثنيان وتوفي بعد ذلك بوقت قصير . أما فيصل فتوفي في ١٨٦٥ وخلف اربعة ابناء : عبد الله ومحمد وسعود وعبد الرحمن .

الامارات المؤقتة لخالد وعبد الله ، وخلفاء فيصل : كان خالد الذي خلع في ١٨٤٢ يعتبر مغتصبا للامارة ، ولكن الكثيرين اعتبروه الأمير الثامن . وحكم عبد الله بن ثنيان بن ابراهيم لمدة عام واحد من ١٨٤٢ الى ١٨٤٣ قبل ان يستقيل لكي يخلفه فيصل . ومن ١٨٦٥ الى ١٨٧٤ كانت السلطة مقسمة بين عبد الله وسعود ومحمد ابناء فيصل . وكان عبد الله يعيش في الرياض وكان يعتبر بصورة عامة امير نجد ، بينما كان سعود يحكم في الجنوب الغربي ومحمد يحكم في الشمال . وكان محمد اقدر الثلاثة وكادت القلاقل بين مؤيدي كل من عبد الله وسعود تؤدي الى انهاء حكم آل سعود ، كما أدت الى تولي آل الرشيد السلطة في حائل بعد ان كانوا في الاصل نوابا لفيصل . وتوفي سعود في الرياض في عام ١٨٧٤ بعد اصابته في معركة مع قبيلة عتيبة وقد حمله عبيده بعد تلك الاصابة الى الرياض وتوفي هناك .

وفي ١٨٨٧ اقتحم ابن الرشيد الرياض بالقوة ونفى ابناء سعود واخذ عبد الله أسيرا الى حائل ، ونصب عبد الرحمن اصغر أبناء فيصل اميرا . وتم تعيين محمد الابن الآخر لفيصل قائدا لحامية الرياض ولكن تحت اشراف مقاتل من حائل هو سليم بن سبهان .

وكان عبد الرحمن محبا للسلام ولكن ابنه عبد العزيز (الذي كان يبلغ من العمر ١٨ عاما تقريبا) كان مصمما على طرد ابن الرشيد من العاصمة . واستمرت المعارك حتى ١٨٩١ عندما اعاد ابن الرشيد فرض سلطته على الرياض . وهرب عبد الرحمن وأولاده الى قطر حيث بسط آل ثاني حكام المنطقة حمايتهم عليهم . وفي عام ١٨٩٤ انتقل عبد الرحمن

واولاده الى ضيافة محمد بن الصباح حاكم الكويت . وبقي محمد بن فيصل في الرياض حتى ١٩٠٢ نائباً لابن الرشيد .

عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود : ١٩٠٢ ـ ١٩٥٣ . عاد الى الرياض في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٢ مع عمه جلوي وعدد صغير من الاتباع ، وفاجأ عجلان الحاكم التابع لابن الرشيد هناك وقتله واعاد سلطة آل سعود الى الرياض . وعاد والده عبد الرحمن في وقت لاحق ولكنه تنازل عن العرش لابنه وكان يعرف باسم الامام . خلف عبد العزيز اولادا كثيرين ما زال بعضهم على قيد الحياة ومن بينهم العاهل السعودي الحالي وولي العهد . وكان عبد العزيز بن سعود مؤسس المملكة العربية السعودية من اعظم الشخصيات العربية في التاريخ الحديث .

آل الرشيد ـ حائل

علي بن الرشيد :: حوالي ١٨٠٠ ـ ١٨٢٠ . شيخ فرع عبده من قبيلة شمر .

عبد الله بن علي الرشيد : ١٨٣٤ ـ ١٨٣٧ ، وعاد الى الحكم من ١٨٣٨ ـ ١٨٤٧ . اول امير لجبل شمر وقد اجبره الأتراك على مغادرة حائل مع شقيقه عبيد في عام ١٨٣٧ ، ولكنه عرض معونته على قوة الاحتلال التركية ـ المصرية وعاد الى العاصمة مع ٢٥٠ من الجنود النظاميين التابعين للجيش التركي . ومع ذلك كان يعتبر نفسه نائبا لفيصل بن تركي الذي كان موجودا في الرياض . خلف ثلاثة اولاد : طلال ومتعب ومحمد .

عبيده بن علي : ولد عام ١٧٩٠ وتوفي عام ١٨٦٩ . اسمه الحقيقي عبيد الله وقد خرج من الفرع الذي كان يتزعمه في الأسرة مقاتلون اشداء اشتركوا في جيش الرشيد كما خرج منه ايضا قادة سياسيون . وكان يحتفظ بولائه لآل سعود وبايمانه بالمذهب الوهابي الذي كان شقيقه عبد الله يكرهه . وتوفي في الرياض اثناء حلوله ضيفا على عبد الله بن فيصل . لم يتول امارة حائل قط .

طلال بن عبد الله الرشيد : ١٨٤٧ ـ ١٨٦٨ . رفض الولاء لآل

سعود وجعل نفسه واسرته حكاما مطلقين في جبل شمر . ولكنه كان رجلا محبا للسلام وعمل على تطوير الزراعة في المنطقة وبنى مساكن جيدة من الطوب واللبن وكذلك قلاعاً تحيط بها حدائق اشجار النخيل .، وتولى عمه عبيد مطاردة قطاع الطرق الى خارج المنطقة . وفي عام ١٨٥٥ اشترك مع عمه عبيد وشقيقه متعب في الاستيلاء على وادي جوف من نوري بن شعلان . وتوفي نتيجة لاصابته في حادث انطلاق رصاصة بالخطأ في آذار (مارس) ١٨٦٨ ، وكان بذلك الفرد الوحيد في اسرته الذي لم يلق حتفه قتيلا أو في حرب . خلف ستة أبناء قتلوا كلهم بيد مغتالين من افراد العائلة .

متعب بن عبد الله الرشيد : ١٨٦٨ ـ ١٨٦٩ . كان زعيما كريما وباسلا ولكن كان يعارضه فرع من الأسرة يؤيد بندر الابن الاكبر لطلال . وبعد ان حكم متعب لمدة عشرة شهور نصب له كمين في قلعته في حائل وقتله بندر بالرصاص . خلف ولدا واحدا كان عمره عامين لدى مقتل والده وهو عبد العزيز . وعند انتشار انباء مصرع متعب هرب الى الرياض كثيرون من افراد العائلة ومنهم عبيد القوى ومحمد بن عبد الله (شقيق متعب) .

بندر بن طلال الرشيد : ١٨٦٩ . بعد عدة اشهر فقط من تولي بندر الحكم دخل محمد بن عبد الله حائل مع قوة من قبيلة ظافر بقيادة زعيمهم المقاتل ابن سويط وقتلوا الامير ومعظم افراد حراسته اثناء هروبهم في الشوارع . وهرب بعض اتباع الامير الى جبال شمر ولكن تمت ملاحقتهم وقتلهم .

محمد بن عبد الله الرشيد : ١٨٦٩ ـ ١٨٩٧ ، ويلقب بمحمد الكبير . دخل حائل يوم ٢٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٦٩ . كان سياسيا ذكيا لا يقاتل الا في حالة الاضطرار . كان واحدا من أعظم الحكام العرب واكثرهم قسوة . ومع حلول عام ١٨٧٤ كان قد جعل الرياض مجرد ولاية تابعة له كما كان نفوذه يمتد حتى عسير وحلب ودمشق والبصرة . وعندما ثار سكان بلدة القاسم السعودية القديمة ضده قام بتدمير مساكنهم . وكان يتلقى الاسلحة من الكويت التي كانت تحقق اموالا طائلة من تهريب السلاح في ذلك الوقت ، كما كان يتلقى اسلحة من عجير والاحساء .

ولكنه تعرض لنقص كبير في الأسلحة والذخائر بعد ان كان قد استقر المنفيون من عائلة سعود في الكويت ، وبعد ان تصادق عبد الرحمن مع ابن السيد طالب النقيب في البصرة الذي كان يحكم الاحساء باسم الاتراك ، وكان في الوقت ذاته المصدر الرئيسي لتزويد محمد بن عبد الله الرشيد بالسلاح . ولهذا السبب قرر محمد مهاجمة الكويت . وبرغم ان بريطانيا لم تكن لديها معاهدة للدفاع عن الكويت في حينه ، فانها اعتبرت ان الحفاظ على الامر الواقع هناك شيئاً حيوياً . وهكذا تم في ذلك الوقت توزيع الذهب الاجنبي على القبائل العربية بصورة سرية . وتوفي محمد يوم ٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٧ . ويقول كثيرون ان وفاته كانت لأسباب طبيعية ، ولكن ابن شقيقته ماجد بن حمود بن عبيد قال انه مات مسموما .

عبد العزيز بن متعب الرشيد : ١٨٩٧ ـ ١٩٠٦ . لم يطأ طوال فترة حكمه ارض العاصمة حائل لأنه لم يكن يثق بأفراد اسرته الذين اشتهروا بعمليات الاغتيال . وكان يعيش بصورة مستمرة في ميدان القتال محاولا توطيد اركان مملكة عمه محمد الذي توفي دون ان يحقق ما كان يصبو اليه . وعندما تولى عبد العزيز الحكم امر باطلاق سراح جميع افراد اسرة آل سعود الذين كانوا مسجونين في حائل ، ومنهم بعض « العرفاء » ، أو المنشقين السعوديين ، الذين كانوا يدعون بأحقيتهم في عرش الرياض الذي كان عبد الرحمن يشغله من الناحية الاسمية . ومع ذلك تحول هؤلاء ضد عبد العزيز وتآمروا عليه مع شريف مكة . وبعد عودة سلطة ابن سعود الى الرياض بدأ الأتراك في دعم ابن الرشيد بالمال والسلاح . وفي ١٧ آذار (مارس) ١٩٠١ قضى عبد العزيز على جميع أفراد قوة أرسلها مبارك شيخ الكويت الجديد وعبد الرحمن بن فيصل لمهاجمته .

وفي نهاية ١٩٠١ كانت هناك ثورة عامة في الجزء الجنوبي من مملكة ابن الرشيد . وبدأ نفوذه على البلدان والقبائل يقل مع ازدياد قوة ابن سعود . وفي أيار (مايو)) ١٩٠٤ ارسل الأتراك جيشاً بقيادة حاكم البصرة لمساعدته . واحتل هذا الجيش القسيم لمدة ١٧ شهرا حتى اضطر الى الانسحاب في بداية ١٩٠٦ نتيجة لمرض افراده وبسبب شدة الحرارة في الصيف . وفي نيسان (ابريل) من ذلك العام قام عبد العزيز

بن سعود بمهاجمة عبد العزيز بن الرشيد وهزمه في معركة طرفية ، وقتل ابن الرشيد في هذه المعركة يوم ١٢ نيسان (ابريل) ١٩٠٦ .

متعب بن عبد العزيز الرشيد : ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧ . لم يعترف به سوى اتباع والده . وبعد ان حكم لمدة تسعة شهور قتله سلطان حمود بن عبيد . وتم ايضا قتل مشعل ومحمد شقيقي متعب . ولم يبق على قيد الحياة من ابناء عبد العزيز سوى سعود الطفل الذي حمله الى المدينة احد عبيد والده سرا تحت حماية الشريف حسين ..

سلطان بن حمود الرشيد : ١٩٠٧ . حكم لمدة تقل عن عام . وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٠٨ قتله شقيقاه سعود وفيصل في فراشه .

فيصل بن حمود بن عبيد : ويطلق عليه احيانا اسم فيصل بن الرشيد . لم يتول الامارة قط . اشترك مع شقيقه سلطان في قتل اولاد عبد العزيز بصورة وحشية ثم قتل سلطان بعد ذلك . تم تعيينه حاكما للجوف في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٨ بعد ان زاره ضابطا الاستخبارات البريطانيان باتلر وايلمر . وفي ايلول (سبتمبر) من ذلك العام قتل شقيقه سعود وطارده مؤيدو الأمير الراحل عبد العزيز . وفر فيصل الى الرياض حيث حصل على حماية ابن سعود الذي اعترف بأحقيته في ان يصبح حاكما لحائل . لكن ذلك لم يتحقق قط .

سعود بن حمود الرشيد : ١٩٠٨ . حكم لعدة اشهر بعد مقتل شقيقه سلطان . وقد قتل هو نفسه على يد بعض رجال قبيلة شمر من مناصري عبد العزيز بن متعب ، الذي كان سعود ابنه الوحيد على قيد الحياة وما زال موجودا في المدينة تحت حماية شريف مكة ..

سعود بن عبد العزيز الرشيد : ١٩٠٨ ـ ١٩٢٠ . اعاده انصاره في ايلول (سبتمبر) ١٩٠٨ الى حائل وعمره عشر سنوات لكي يحكم تحت وصاية اثنين من اعمامه : هما حمود وزامل ، وهما من اعضاء اسرة سبهان ويرتبطان بأسرة عبيد عن طريق المصاهرة .

وصاية حمود بن سبهان : ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩ . توفي مسموما في ربيع ١٩٠٩ ، ولم يكن له تأثير كبير على مسار الأمور في وسط شبه الجزيرة العربية .

وصاية زامل بن سبهان : ١٩٠٩ ـ ١٩١٤ . كان زامل يتمتع بسلطة مطلقة على مدى السنوات الخمس التي قضاها وصيا على الامارة .

وكانت الاحداث السياسية في حالة اضطراب في شبه الجزيرة العربية عند توليه الوصاية ، وكان كثيرون من اعضاء بطون شمر يتحولون الى مناصرة نوري بن شعلان الذي احتل واحة الجوف يوم ٨ كانون الثاني (ينـاير) ١٩٠٩ ، أي بعد ستين عاما تقريبا من استيلاء آل الرشيد عليها من والده . وكان آخرون يتحولون لمناصرة ابن سعود . وكانت ثورة « تركيا الفتاة » قد ادت في ١٩٠٨ الى تغييرات جذرية في الامبراطورية العثمانية وفي العاصمة نفسها ، كما بدأ العرب يرون فيما فعله الاتراك الذين كانوا يحتلونهم عاملا مشجعا لهم على الحصول على الاستقلال .

وكـان لزامـل اتصالات بالقادة الاتراك والقوميين العرب في دمشق وبغداد والبصرة ، حيث تم انشاء لجان ثورية بهدف الاطاحة بالحكم العثماني . وكان زامل قد ورث عن عبيد ولاءه لابن سعود . ولذلك اعترف في نهاية ١٩٠٩ بأحقية امير الرياض في بسط سلطانه على شبه الجزيرة العـربية ، وفي الوقت ذاته اعترف قادة عرب آخرون ومنهم اعضاء في جمعية « العهد » وجمعية « الفتاة » القوميتين بابن سعود كزعيم لهم . وكان الوحيد الذي لم ينضم اليهم هو الشريف حسين شريف مكة ، الذي اعادته حركة « تركيا الفتاة » الى الحكم في ١٩٠٨ . وهكذا اصبح زامل الوصي على عرش الامـير سعـود الصبي في حائـل ، محورا للمؤامرات الدولية التي اشتركت فيها فرنسا وروسيا والمانيا وبريطانيا والنمسا وتركيا .

وفي عام ١٩١٠ اثبت زامـل عداءه للاتراك عندما هاجم الحاميات العثمانية في تيماء ومدائن صالح ، ونصب هناك حكاما تابعين له وقطع رؤوس انصار النظام السابق . وعندما استعاد ابن سعود الاحساء من الاتراك في ١٩١٣ حاول الباب العالي استعادة ولاء آل الرشيد . وكان النمساويون قد عملوا عن طريق عميلهم آلوا موزيل بتسليح نوري بن شعلان عدو زامل اللدود ، بينما احتفظوا في الوقت ذاته بعلاقات وثيقة مع آل الرشيد .

وفي بداية ١٩١٤ ارسل الاتراك شحنة كبيرة من الاسلحة الى زامل عن طريق تيمـاء . ولكنهم عرفوا ان هذه الاسلحة ستستخدم ضدهم ولذلك تآمروا مع سعود بن صالح السبهان على قتل قريبه زامل. وعلمت بريطانيا بهذه المؤامرة عن طريق المستر ديفي قنصلها في دمشق ، وهكذا

تم ارسال الكابتن شكسبير للتحقيق في الامر عن طريق ابن سعود ، وربما ايضا لمحاولة افساد هذه المؤامرة (وقد كلف شكسبير بمهام عسكرية اخرى وربما كان يحاول الوصول الى زامل نيابة عن ابن سعود الى جانب المهمة التي كلفته بها الحكومة البريطانية) . ووصل الكابتن شكسبير الى مسرح الاحداث قبل ايام قلائل من قتل زامل بالرصاص في الصحراء يوم ١٠ نيسان (ابريل) ١٩١٤ الى الشرق مباشرة من مقره . وكانت بريطانيا قد ارسلت غيرتروود بل ايضا الى حائل في الوقت ذاته على أمل ان تستطيع الاجتماع مع زامل ، ولكن الاسرة الحاكمة كانت قد غادرت حائل في وقت وصولها لتنفيذ مهمتها . وكان الكابتن ليتشمان هو الاوروبي الوحيد ـ الى جانب المسؤولين العثمانيين ـ الذي اجتمع بزامل عندما اقام في معسكر آل الرشيد لمدة خمسة اسابيع في صحراء الشامية في عام ١٩١٠

حكم سعود بن عبد العزيز ١٩١٤ ـ ١٩٢٠ . كان سعود يبلغ من العمر ١٨ عاما عندما قتل عمه زامل . وقد تولى الحكم وكان مستشاره الاول هو سعود بن صالح السبهان الذي كان يشتهر بشروره والذي كان متزوجاً من نوره اخت سعود غير الشقيقة . ووصفت تقارير الاستخبارات البريطانية الامير الشاب بأنه « عنيف وغير مسؤول وغير مهذب وغير متمدن » . وقال ليتشمان في أحد تقاريره إن الأمير الشاب كان فارساً ممتازاً ويبدو انه ليس لديه اي اهتمام بأي شيء سوى رياضة ركوب الخيل . وبرغم ذلك كانت الحكومة العثمانية تساند سعود وترسل له هبات مالية بانتظام وكذلك كميات كبيرة من الاسلحة . ولما تحالفت الامبراطورية العثمانية مع المانيا في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ قررت بريطانيا خطب ود ابن سعود وتشجيعه على إنهاء حكم آل الرشيد ، وتم إرسال الكابتن شكسبير الى الرياض لتنفيذ ذلك .

وانضم شكسبير الى ابن سعود في الصحراء وخطط معه ومع فيصل بن حمود على الدخول في معركة مع قبيلة شمر وتنصيب فيصل على عرش حائل نائبا لابن سعود وحليفا لبريطانيا .

ولما دارت المعركة بالفعل مع شمر فر بعض رجال القبائل من جيش ابن سعود وقتل شكسبير عندما كان يقاتل منفردا ضد فرسان الرشيد . وقد قتله احد عبيد سعود بن صالح وهو نفس العبد الذي قتل زامل

بالرصــاص . وكان آلوا موزيل النمساوي قريبا من ميدان المعركة مع **سعود بن صالح** وسعود بن عبد العزيز اميري حائل .

وفي آذار (مارس) ١٩٢٠ قرر انصار الامير سعود بن عبد العزيز التخلص منه ومناصرة عبد الله بن طلال الشاب الذي كان يطالب بعرش حائل . وتم نصب كمين لسعود وقتل بالفعل . ولكن عبيده قتلوا عبد الله المطالب بالعرش فور ذلك . وفي اثناء حالة الفوضى التي نشأت بعد ذلك توصل ابن عجيل الذي كان وصيا على سعود من الناحية الاسمية منذ ١٩١٦ ، الى اتفاق مع شاب آخر هو عبد الله بن متعب الذي تعرض للقتل ، لكي يتولى الامارة . وبالفعل تولى عبد الله بن متعب امارة حائل التي كانت محفـوفة بالمخاطر . وعلى الفور ألقى الأمير الجديد بمحمد شقيق عبد الله بن طلال الذي بقي على قيد الحياة في غياهب السجن .

عبد الله بن متعب الرشيد : ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ . قام ابن سعود في صيف ١٩٢١ بالهجوم على حائل بمساندة قبيلة ابن شعلان وقبيلة عنزة وقبيلة الحويطات التي كان يتزعمها عودة ابو تاية . وطلب عبد الله بن متعب السلام ولكن ابن سعود فرض شروطا قاسية لذلك . وهكذا قرر عبـد الله القتال خصوصا لأنه كان يتمتع بتأييد فيصل ملك العراق . ولكن قوة من الاخـوان بقيادة فيصل الدويش انضمت الى الهجوم في ايلول (سبتمبر) وحاصرت معسكر عبد الله بن الرشيد .

ومع احتدام معركة حائل النهائية انتخبت قبيلة شمر آخر أمير لها وهو محمد بن طلال . وفي نهاية تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢١ ظهر ابن سعود في المعركة وقاد بنفسه حصار عاصمة ابن الرشيد . وقاتلت قبيلة شمر بشجاعة وقاومت الحصار حتى بداية كانون الاول (ديسمبر) . وكان عبد الله بن الرشيد قد قتل في المعركة . وبعد انتهاء القتال تم سجن خليفته في الرياض مع اعضاء اسرة الرشيد الآخرين الذين بقوا على قيد الحيـاة . واشترك الشريف حسين في مكة وابنه فيصل ملك العراق في تشجيـع نجيف بن كلاب شيـخ قبيلة عجمان على مساعدة محمد بن الرشيـد على الفرار . ووصل الامير بالفعل الى اشجار النخيل المحيطة بالرياض قبل ان يتم اكتشافه . وفقد محمد بن الرشيد يده اليسرى في القتـال وتم اقتيـاده الى السجن مرة اخرى حيث توفي بعد ذلك بوقت قصير . وتم قتل كل اتباعه . وكان ذلك آخر عمل يقوم به آل الرشيد .

فاطمة حائل : كانت السلطة الحقيقية خلف العرش في حائل في يد فاطمـة ، المـرأة المـاكرة والذكية التي تزوجت سبهان المستشار الاول لمحمد . وقد سيطرت فاطمة على امور حائل ابتداء من العام الاخير من حكم محمد بن عبد الله في القرن التاسع عشر الى نهاية حكم آل الرشيد . وكانت فاطمة هي جدة الامير سعود بن عبد العزيز . وكانت غيرتروود بل قد تركت وصفا دقيقا لفاطمة بعد اختلاطها بها في اثناء تقييد اقامتها لدى آل الرشيد في آذار (مارس) ١٩١٤ عندما كان يتم التخطيط لقتل زامـل. وتعبـر غيرتـرود بل عن اعتقـادهـا بأن فاطمـة كانت المحرض الرئيسي على قتل الوصي ، كما انها كانت القوة المحركة وراء الكثير من الاحداث في حائل. وتتفق غيرترود بل مع موزيل في وصفها بأنها كانت الحاكمة الفعلية لحائل .

الاسرة الهاشمية الشريفة ـ مكة المكرمة

ينتمي امـراء او اشراف مكـة المكرمة الى قبيلة قريش ، وهي قبيلة الرسول (صلعم) ، وهم ينحدرون من صلب الحسن بن علي بن ابي طالب وزوجته فاطمة ابنة الرسول .

وقد استمدت آخر أسرة حاكمة سلطتها من الشريف محمد بن عون من أسرة عبيد الله الذي أنهى في عام ١٨٢٧ حكم اسرة ضاوي زايد التي كان يمثلها في ذلك الوقت الامير غالب . وكان اشراف الأماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز يملكون قدرا كبيرا من العقارات في مصر منحها لهم محمد علي باشا . وفي شهور الصيف كان الشريف ومجلسه ينتقلان الى الطائف الواقعة في منطقة جبلية مرتفعة . وكان هؤلاء الشرفاء خاضعين للسلطان العثماني في القسطنطينية بعد انتصار سليم الاول على المماليك من حكام مصر في ١٥١٧ .

محمد بن عبد المعين بن عون : كان شريفا في الفترة من ١٨٢٧ الى ١٨٥١ ، ثم من ١٨٥٦ الى ١٨٥٨ .

عبد المطلب بن غالب : كان شريفا في الفترة من ١٨٥١ ـ ١٨٥٦ ثم من ١٨٨٠ ـ ١٨٨٢ . وكان عبد المطلب من اسرة ضاوي زايد المنافسة . وعينه الباب العالي شريفا في المرتين بسبب الخلافات داخل اسرة عبيد

الله .

عبد الله بن محمد بن عون : كان شريفا في الفترة من ١٨٥٨ ـ ١٨٧٧ .

حسين بن محمد بن عون : كان شريفا في الفترة من ١٨٧٧ ـ ١٨٨٠ . مات قتيلا وخلفه عبد المطلب .

عون الرفيق بن محمد بن عون : كان شريفا في الفترة من ١٨٨٢ ـ ١٩٠٥ .

علي بن عبد الله : كان شريفا في الفترة من ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ . فصله الباب العالي وهرب الى مصر لكي يعيش هناك تحت حماية الخديوي .. وفي الفترة من ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨ كان الحاكم العثماني للحجاز يقوم بواجبات الشريف .

حسين بن علي بن محمد : كان شريفا في الفترة من ١٩٠٨ ـ ١٩٢٤ . وكان يبلغ من العمر ستين عاما تقريبا عندما عاد الى مكة المكرمة في ١٩٠٨ ، وذلك عندما عينه كامل الصدر الاعظم خليفة لعمه عبد الله الذي توفي وهو في طريقه الى مكة المكرمة لشغل المنصب الخالي . وكان حسين متوسط القامة ولحيته بيضاء وذا شخصية قوية . وكانت له اتصالات وثيقة بالساسة من كافة الاتجاهات في القسطنطينية التي عاش فيها ٢٥ سنة ، كما كانت له اتصالات بالحركات الاسلامية وحركات القومية العربية . وكانت له ايضا اتصالات بالمقيم البريطاني في القاهرة عن طريق ابنه عبد الله . وكانت تملؤه الغيرة من ابن سعود الذي حاول ضم منطقة القصيم التابعة له في عام ١٩١٠ ، كما حاول ايضا القضاء على نفوذ ابن سعود بين القبائل قبل وبعد الحرب العالمية الاولى . ونصب نفسه قائدا لحامية مكة في عام ١٩١٦ التي فتحها دون اراقة دماء يوم ١٣ حزيران (يونيو) من العام نفسه برغم ان الحامية العسكرية التركية في القلعة والثكنات القائمة في مكة رفضت التسليم لعدة اسابيع .

وفي آذار (مارس) ١٩٢٤ الغى كمال اتاتورك الخلافة العثمانية، وكان حسين يزور ابنه عبد الله في عمان في ذلك الوقت ، فأعلن من هناك انه خليفة المسلمين . وفي يوم ٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٤ تنازل حسين عن الحكم بعد ان اصبح معظم اقليم الحجاز في يد محاربي ابن سعود ، وسلم حكم الحجاز ورعاية الاماكن المقدسة لابنه علي ، الذي

تمسك بمدينة جدة لأكثر من عام امام الحصار الذي فرضه عليها ابن سعود حتى تمكن من احتلالها في النهاية .

علي بن حسين : كان شريفا في الفترة من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٤ الى كانـون الاول (ديسمبـر) ١٩٢٥ . الابن الاكبر للشريف حسين وكان مصابا بداء السل . ولد في ١٨٨٠ وكان نحيفا وهامته محنية قليلا الى الامام . وجاء في آخر تقرير مخابرات بريطاني عنه في ١٩١٧ انه كان يبدو اكبر سناً من عمره الحقيقي الذي كان يبلغ ٣٧ عاماً في ذلك الوقت . وكـان يتصف بالبسـاطة وكـرم الاخلاق وان كان يثور بعنف وبسرعة بسبب مرضه .

مثّل اباه في المدينة المنورة حتى ثورة ١٩١٦ عندما تولى قيادة القوة العربية التي كان من المفروض ان تحاصر الحامية التركية هناك بقيادة فخـري باشا . وقال الكولونيل باركر الضابط البريطاني المسؤول عن المدينة المنورة والعمليات في شمال الحجاز انه كان ضعيفا ومتقلباً .

عبـد الله بن حسين : أمير شرق الاردن في الفترة من ١٩٢١ الى ١٩٥١ . كان الابن الثـاني للشريف حسـين وكان وزيرا للخارجية في حكومة والده التي تم تشكيلها بعد ثورة ١٩١٦ . ولد في عام ١٨٨٢ وكان قصـير القـامـة وممتلئاً وقوي البنية ويتسم بالمرح وبشفتيه المليئتين ولحيتـه السـوداء وأنفـه السـامي . وكان يتصف بشخصية مفتوحة وجذابة ، وكان يختلط برجال القبائل . ويختلف عن اشقائه في الابتعاد عن روح التعالي . وكان عضوا في البرلمان العثماني بمكة المكرمة ولم يكن على علاقة طيبة مع حركة « تركيا الفتاة » وكان يتشاجر كثيرا مع انور باشا ، وذكرت تقارير الاستخبارات البريطانية انه كان يتسم « بقدرة على الجدل » .

تولى قيـادة القـوة العـربية في الطائف بعد اعلان الثورة العربية ، وتمكنت الحـاميـة التركية هناك من الصمود لمدة أربعة أشهر ، ولكنه احتل البلدة في نهاية العام . توجه الى عمّان في ١٩٢٠ لتنظيم المقاومة ضد الفرنسيين في سورية . وفي آذار (مارس) من ذلك العام نصبه المـؤتمر السوري للقوميين العرب ملكا على العراق ، كما نصب شقيقه فيصـل ملكـا على سوريـة . ولكن فرنسا ألغت اللجنة وعزلت فيصل واصرت على تنفيذ اتفاقاتها التي عقدتها في زمن الحرب مع بريطانيا والتي

تنص على فرض السيادة الفرنسية على سورية الكبرى . وفي نيسان (ابريل) ١٩٢١ عرض على عبد الله بعد المؤتمر الذي حضره تشرشل في القاهرة تولّي امارة شرق الاردن الجديدة التي تم انشاؤها كمنطقة عازلة بين فلسطين وسورية الفرنسية والعراق البريطاني . وتم اعلان عبد الله اميرا لشرق الاردن يوم ١٥ ايار (مايو) ١٩٢٣ .. واغتاله اعداؤه من العرب يوم ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٥١ في القدس وخلفه ابنه طلال .

فيصل بن حسين : كان ملكا على العراق في الفترة من ١٩٢١ ـ ١٩٣٣ . ولد في عام ١٨٨٦ ، وتلقى تعليمه في القسطنطينية مثل اشقائه الاكبر سناً . وكان طويل القامة ومهيب الهيئة . وجاء في تقرير للاستخبارات (ربما كتبه لورانس الذي كان يعرفه جيدا) : « شخصيته اقوى بكثير من شخصية أي من اخوته ، وهو يعرف ذلك ويستغل شخصيته جيداً . وهو حاد الطبع ومعتز بنفسه ونافد الصبر » . وكان فيصل ذكيا ولا يهتم بتوافه الامور . وكان نائباً عن جدة في البرلمان العثماني ، وكان له نشاط كبير مع جمعية « العربية الفتاة » والجمعيات القومية العربية في فترة ما قبل الحرب .

وبعد زيارته للقسطنطينية قضى في عام ١٩١٥ وقتاً طويلاً في دمشق مع جمال باشا والبارون فون اوبينهاين مدير الاستخبارات الالمانية هناك . وحاول مقابلة نوري بن شعلان زعيم قبائل الرولة وعنزه . ولكن ابن شعلان ارسل ابنه نواف لمقابلته . ومع ذلك منع جمال باشا اللقاء بين الاثنين . وعاد فيصل الى سورية في نهاية ١٩١٥ في مهمة سرية بتكليف من والده ، عندما كان الشريف حسين يحاول الايقاع بين بريطانيا وتركيا ويسعى الى تحقيق اكبر فائدة من اي منهما . وعاد فيصل الى المدينة المنورة في شباط (فبراير) ١٩١٦ وبصحبته انور وجمال ، ثم توجه بعد ذلك مرة اخرى الى سورية بصحبة الحاكم والقائد التركيين وبقي في دمشق حتى شهر واحد قبل اعلان الثورة العربية . وفي حزيران (يونيو) ١٩١٦ قاد القوة العربية على خط الحجاز الحديدي ولكنه لم يحقق أي نجاح .

واصبح فيصل رفيقا للورانس في المسيرة المظفرة الى دمشق وفي مؤتمر باريس للسلام . وبفضل الجهود التي بذلتها غيرتروود بل عرض عليه عرش العراق . وتم تتويجه يوم ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٢١ . وتوفي في

عام ١٩٣٣ وخلفه ابنه غازي الذي قتل في حادث سيارة في عام ١٩٣٩ . وخلفه بعد ذلك ابنه فيصل الثاني الذي ظل جالساً على العرش حتى ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ ، والذي قتل فيها فيصل الثاني وكبار شخصيات حركة الاستقلال العربي والثورة العربية .

زيد بن حسين : الابن الاصغر للشريف حسين ، ولد حوالي عام ١٨٩٧ من ام تركية . وكان يتسم بروح الدعابة كما كان أقل توترا من اشقائه . اصبح سفيرا للعراق لدى بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكنه لم يلعب دورا كبيرا على المسرح السياسي العربي .

نصر بن علي : الشقيق الاصغر للشريف حسين . كان يبلغ من العمر ٥٤ عاما في عام ١٩١٧ . كان عضوا في مجلس الشيوخ العثماني وبقي في القسطنطينية خلال الحرب العالمية الاولى . ولكن قيل انه يؤيد ثورة شقيقه .

علي حيدر باشا (حيدر علي) : كان عضواً في الأسرة الشريفية المنافسة ، وهي أسرة الأمير عبد المطلب الذي اعترف به الباب العالي نقيباً للاشراف ، وكان عضواً في حركة « تركيا الفتاة » والبرلمان العثماني . كانت زوجته الثانية سيدة ايرلندية وانجب منها ثلاثة اطفال .. كان اسلامي النزعة ولكنه كان موالياً لبريطانيا التي تلقى ابنه الاكبر تعليمه فيها .

وكان يحتفظ بعلاقات وثيقة مع المسلمين الهنود والدعاة الاسلاميين . وبعد اندلاع الثورة العربية عينه الباب العالي شريفا وارسله الى المدينة المنورة التي وصل اليها يوم ٢٦ تموز (يوليو) ١٩١٦ ، واصدر هناك مرسوماً بتوليه منصب الشريف .

سعد الدين باشا : الشقيق الاصغر لعلي حيدر . وكان عضواً متحمساً في حركة « تركيا الفتاة » وتزوج ابنة السلطان العثماني محمد . توجه الى حائل مع اشرف بك الضابط العثماني الذي كان مسؤولا عن شحنة الاسلحة العثمانية الى ابن الرشيد في ١٩١٤ .

علي بن عبد الله : امير جهينة وكان مقيما في ينبع . تربطه بالشريف حسين صلة مصاهرة . اعترف بالسلطة العثمانية وفر الى سواكن في ١٩١٤ ، عندما حل محله محمد علي البدوي ، ولكنه عاد في حزيران (يونيو) ١٩١٦ . طرد كلا من فون ستوتسينغين ونيوفيلد من ينبع ،

وقاد القوة الهاشمية التي استسلمت لها الحامية التركية في ينبع في تموز (يوليو) ١٩١٦ *.

---

* تشير التواريخ المثبتة الى جانب الأسماء الواردة في هذا الفصل الى الفترات التي تولوا فيها الحكم، وليس الى تاريخ الميلاد والوفاة، إلا ما هو مذكور تفصيلاً.

الأدوار الثانوية	شخصيات الجزيرة العربية

اليمن ـ الامام يحيى : اسمه الكامل يحيى بن محمد حميد الدين المتوكل شريف اسرة شيهاره القاسمية .

ورث لقب الامام في ١٩٠٤ عن والده محمد المنصور ، الذي يبدو انه اغتصب اللقب لأنه ليست هناك صلة ثابتة بين اسرته وأئمة صنعاء الذين حكموا في الفترة من ١٦٠٠ ـ ١٨٩١ تقريبا ،. عندما قاد يحيى حميد الدين ، جد الامـام يحيى ، تمردا ضد الحكم العثماني . وكان يحيى حميـد الدين يعيش حيـاة زاهدة في الجبال الشمالية وقد كانت المركز الأصلي للأسرة الحاكمة اليمنية ، التي نشأت في القرن العاشر عن احد المنحدرين من صلب الحسن حفيد الرسول (صلعم) .

وقـاد الإمام يحيى ثورة ثانية ضد الاتراك في ١٩٠٤ واستولى على صنعاء ، ولكن القوات العثمانية طردته منها بعد عدة أشهر . وحاصر صنعاء مرة اخرى في عام ١٩١٠ ، ولكن هزمته قوة تركية بقيادة عزت باشـا . وفي عام ١٩١٢ توصل الى اتفاق مع الاتراك في أعقاب اعلان الجهـاد ضد ايـطاليـا التي تدخلت في المنطقة . ووافق على الاقامة في شيهـاره الواقعـة شمالي عمران في مقابل راتب سنوي ، ولكن الاتراك وضعوا حاميات في المدن الرئيسية كلها ومنها صنعاء وشيهاره . واقام علاقـات ودية مع محمود نظيم باشا خليفة عزت في عام ١٩١٣ ، وأيد الاتـراك منـذ ذلك الحين . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥ كتب رسالة الى انور باشا دعا فيها الى الله ان ينصر الجيوش العثمانية . وكان المـذهب المنتشر في المنـطقة هو مذهب الزيدية الذي كان الامام يحيى بمثابة إمام له ، وهو مذهب منشق بين الشيعة والسنة . وكان عدواً لدوداً للامام الادريسي في عسير الواقعة شمال اليمن . وقد انضم كثيرون من افراد القبائل اليمنية الى الادريسي في عامي ١٩١٦ و ١٩١٧ .

عسـير ـ الادريسي : اسمه الكامل سيد محمد بن علي الادريسي ، التي تنحدر عائلته من شمال افريقيا . وقد ظهرت هذه العائلة في شبه الجزيرة العربية في ١٧٩٩ ، عندما توجه الى مكة المكرمة سيد احمد الجد الاكبر للامام الادريسي . وكان هناك نزاع مستمر على احقية الادريسي

في فرض سلطانه على منطقة عسير . وكان يبلغ من العمر ٣٨ عاما تقريبا في عام ١٩١٤ .

عدن وحضرموت ـ سلاطنة لحج : حصلوا على لقب زعامة قبيلة العبدلي منذ ١٧٢٨ . وتولى السلطان علي بن احمد في ١٩١٤ ، ولكنه قتل بطريق الخطأ في ١٩١٥ عندما انطلقت رصاصة من بندقية جندي بريطاني بينما كان السلطان يرحب بالسير رونالد ستورز في قصره . وخلفه ابن عمه عبد الكريم بن فيصل يوم ١٣ تموز (يوليو) ١٩١٥ ، وكان يبلغ من العمر ٣٥ عاما . في عام ١٩١٥ احتل الاتراك لحج . وعاش السلطان بعد ذلك في عدن تحت الحماية البريطانية .

مسقط وعمان ـ آل بوسعيد : كانت الاسرة الحاكمة الرئيسية وهي اسرة آل بوسعيد ، تنحدر من صلب احمد بن سعيد من قبيلة ازد ، الذي طرد في ١٧٤١ الفرس من البلاد . بعدها عقد معاهدة مع بريطانيا وبدأت علاقاته معها على هذا الاساس في ١٧٩٨ . واعتبارا من ١٨٩١ ارتبط سلاطنة مسقط وعمان بعلاقات ملزمة مع حكومة الهند البريطانية التي كانوا يتلقون منها دعما مالياً كبيرا كل عام ، وكانت تضمن حمايتهم ايضاً .

وبدأ حكم السلطان تيمور بن فيصل في عام ١٩١٣ ، وهو الابن الاكبر لفيصل بن تركي . وقد حكم فيصل بن تركي من ١٨٨٨ الى ١٩١٣ . وقد ولد تيمور في عام ١٨٨٦ ، وكان يتعرض لتهديد مستمر من شيوخ القبائل العمانية الموجودة بعيدا عن الساحل في داخل البلاد ، وكان يعارضه عمه محمد بن تركي الذي كان يدعي بأحقيته في تولي منصب السلطان . وكان تهريب السلاح والتحريض الذي يمارسه عملاء الدول الاجنبية السبب الجذري في الخلافات والعداوات في تلك المنطقة . وفي ايار (مايو) ١٩١٣ حدث تمرد خطير بقيادة الشيخ عبد الله السالمي ، نزلت على اثرها قوات حكومة الهند البريطانية في المنطقة لمساندة السلطان الجديد . وفي نيسان (ابريل) ١٩١٥ قصفت هذه القوات قلاع المتمردين . وفي خريف ١٩١٥ تعين ارسال تعزيزات الى بيت الفلج لاحباط محاولة قام بها ثلاثة آلاف من رجال القبائل للاستيلاء على مسقط .

ابوظبي ـ حمدان بن زايد : خلف شقيقه طحنون في عام ١٩١٢ .

وكان حاكما حازما ومواليا لبريطانيا ولكنه تورط في تهريب الاسلحة في منـطقة ساحل عُمان أو شاطىء القراصنة كما كان يسمى ، وقيل ان السبب في ذلك يرجع الى رغبته في حماية نفسه ضد خطر غزو ابن سعود لمنطقته .

دبي ـ سعيـد بن مكتوم : خلف في عام ١٩١٢ ابن عمه بطي بن سهيـل الذي كان على نزاع مستمـر معه . وكان محورا لحركة تهريب الاسلحـة وواحـدا من اغنى الزعماء على الساحل . تم انذاره في آب (اغسـطس) ١٩١٣ بعـد ان اطلق مسلحـون من دبي النـيران على السفينة « سفينكس » التي كانت سفينة القيادة للاسطول البريطاني في الخليج .

الشارقة ـ خالد بن احمد : زعيم قبيلة القواسم . خلف ابن عمه صقر بن خالد في ١٩١٤ . كان الوكيل البريطاني المقيم لمنطقة الامارات المتصالحة وكان مقره في الشارقة .

ام القيوين ـ راشد بن احمد : كان حليفاً مثيراً للمشاكل لبريطانيا وكـان نشـاطه الرئيسي في مجـال القـرصنة وارسلت بريطانيا زوارقها المسلحة لمعاقبته في آذار (مارس) ١٩١٤ .

قطر ـ آل ثاني : استقلت بالحكم منذ ارتداد الوهابيين حوالي عام ١٨٧٠ عندما احتلت حامية تركية العاصمة ، الدوحة . وعندما استولى ابن سعـود على الاحساء مرة اخرى في ١٩١٣ ، تم قطع الطريق على الاتراك في قطر . ومنحت بريطانيا ابن سعود تصريحا « شفويا وليس تحريريا » بالاستيلاء على قطر اذا رغب في ذلك بعد احتلاله الاحساء . ويرجع ذلك الى ان الحكومة البريطانية في الهند لم تعترف قط بدعوى العثمانيين بأحقيتهم في المنطقة منذ ١٨٧١ .

وكانت هناك حتى عام ١٨٨٢ ، معاهدة طويلة الامد ولكنها غير ملزمة بين بريطانيا وقطر ، لكن بريطانيا سمحت فيما بعد بالغاء هذه المعاهدة . وكانت قطر محمية غير رسمية للهند . واعتبارا من تموز (يوليو) ١٩١٣ اصبح عبد الله بن جاسم آل ثاني حاكما لقطر . وكان مواليا لبريطانيا وعـلى علاقـات وديـة مع ابن سعـود الذي لم ينفذ العرض البريطاني بالاستيلاء على المنطقة ، وتفاوض عبد الله على استسلام الحامية التركية المحاصرة في ١٩١٥ . وكان عبد الله على خلاف مع شقيقه خليفة . وكانت

قطر مركزاً حيويا آخر لتهريب السلاح .

البحرين ـ آل خليفة : كان شيوخ آل خليفة من قبيلة عتيبة التي احتلت البحرين والكويت ، وكانوا قوة لها شأنها في منطقة الخليج لمدة تزيد عن ٢٠٠ سنة .. وكانت هناك معاهدة تربط بين شيوخ البحرين وبريطانيا منذ عام ١٨٢٠ . وفي عام ١٨٨٠ وقع الحاكم معاهدة مع بريطانيا شبيهة بالمعاهدة المعقودة مع كل من عُمان والامارات المتصالحة ، وتعتبر امتدادا للمعاهدات البحرية الدائمة التي فرضتها شركة الهند الشرقية في عام ١٨٥٣ ، والتي نصت على عدم شرعية القرصنة ومنعت الاشتباكات البحرية .

وتولى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة الحكم في ١٨٦٧ وكان حريصا على استقلال البحرين ويميل الى التآمر مع العملاء العثمانيين والالمان ، ولكنه كان ذكيا وحكيما ونشيطا ، انما كان متقدما في السن عند اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى . وكان شقيقه الشيخ خالد بن علي آل خليفة حاكما مستقلا تقريبا للبلدان الواقعة في شمال جزيرة البحرين وبعض الجزر الصغرى القريبة منها . وكان خليفة بن حمد بن محمد آل خليفة شخصية بارزة في اوساط الناقمين على الاسرة الحاكمة وكانت له علاقات وثيقة مع القسطنطينية .

الكويت ـ آل صباح : فرع من اسرة آل خليفة . ويقال انهم اتوا اصلا من بلدة ام قصر بالقرب من الزبير على ضفاف شط العرب . وبنى افراد الاسرة قلعة كوت على الساحل في مكان كان يعرف باسم قرين ، عندما طردهم الاتراك من منطقتهم في نهاية القرن الثامن عشر . وجاء اسم الكويت من اسم هذه القلعة . وعندما استولى مدحت باشا حاكم بغداد على الاحساء في ١٨٧١ ، اعلن الشيخ محمد بن صباح نفسه مواطنا عثمانيا (وكان يقود هذه القوة التركية مبارك الاخ غير الشقيق لمحمد والسيد طالب ابن نقيب البصرة) . ولكن عندما كانت هناك مفاوضات حول مشروع سكة حديد بغداد ، وكان المشروع ينص على اتخاذ الكويت نقطة نهائية لهذا الخط في عام ١٨٩٩ ، وقعت بريطانيا اتفاقا سريا مع الشيخ ينص على عدم تحالفه مع دول اخرى . واعقبت ذلك معاهدة سرية اخرى بين الجانبين في عام ١٩٠٧ ، استأجرت بريطانيا بمقتضاها منطقة الشويخ من ميناء الكويت ، وهي المنطقة

الوحيـدة التي يمكن استخـدامهـا في خط السكك الحديد على ساحل الخليج (واطلق على المعاهدة اسم عقد ايجار بندر الشويخ) .

ووصــل الى الكـويت في ١٩٠٤ اول معتمـد سيـاسي بريطاني وهو الكـولونيل نوكس . ومنذ رحيل الكابتن شكسبير خليفة نوكس في عام ١٩١٤ ، شعـر كل من شيخ الكويت وابن سعود بأنهما لا يستطيعان الثقة بالوعود البريطانية ، وبدآ في خطب ود العملاء العثمانيين . ومع ذلك ايد كلاهما الحلفاء عند اعلان الحرب . واعتبر مبارك بن الصباح اعظم حكام الكويت قاطبة وواحدا من اقوى الزعماء العرب ، وقد تولى الحكم في عام ١٨٩٦ بعد مقتل اخيه غير الشقيق محمد .

وقد قارن لوفات فريزر رئيس تحرير صحيفة « ذي تايمز اوف انديا » بينـه وبـين ريشيليـو . وكـان الشيـخ مبارك مثالا حيا لرجل النهضة والسيـاسة العربية . وكانت له لحية بيضاء مخضبة بالحناء كما كان يصبغ حاجبيه لاخفاء حقيقة عمره . وتوفي في عام ١٩١٥ عن عمر يناهز ٧٦ عاما وخلفه ابنه الاكبر جابر في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥ . ولدى وفاة جابر في ١٩١٧ تولى سالم الابن المبعد للشيخ مبارك الحكم .

شيوخ وقبائل الجزيرة العربية

غنزه: ربما كانت أكبر قبائل الأشراف وأكثرها ثروة، وكانت المنطقة التي تشغلها ذات اهمية استراتيجية كبيرة ، اذ تمتد من الاطراف الشمالية لسورية الى الجوف والصحراء الغربية للعراق . وكانت المنطقة الرئيسية لهذه القبيلة هي منطقة حمد في سورية التي استولت عليها من قبيلة شمر في عام ١٧٧٠ .

العشائر الرئيسية المتفرعة منها :

ولد علي : وكانوا ينتشرون في حوالي ٨٠٠٠ خيمة في منطقة تمتد من حمص الى تيماء . واهم شيوخ هذه العشيرة هم راشد بن سمير (حوران) ومحمد بن صالح (غربي وادي سرحان) وسعود ابن ملحم (حمص) .

عمارة : لم يتم احصاء عدد خيامها وكانت منطقتها تمتد من عانة الى نهر الفرات والى نجد جنوبا ، وكانت تضم الكثير من البطون . كان زعيمها فهد بن عبد المحسن الضغيم بن هذال ، الذي كان مؤيدا لحركة القومية العربية والذي كان يبلغ من العمر ستين عاما تقريبا في عام ١٩١٤ . وكان معاديا للاتراك وصديقا لكل من ليتشمان وغيرتروود بل . وكان يملك عقارات في كربلاء وبغداد .

بشر عنزه : اتحاد بين سباع وفيدان ، وكانت منطقة هذه العشيرة تمتد من حماة وحلب الى دير الزور . واهم شيوخها ابن مرشد وابن حديب وابن محيد وابن جيشيش . وكان اقوى زعماء هذه القبيلة هو هاشم بن محيد الذي كان مقاتلا شديد البأس وذكيا ومؤمناً بالقومية العربية . ولكنه كان خاضعا لتأثير مدام كوخ التي كانت تعيش في حلب والتي كانت من عملاء البارون فون اوبينهايم .

الرْوَلَة : وهي الفرع الرئيسي من قبيلة عَنزه . وكانت تخيم حول دمشق مع قطعان فخمة من الإبل والجياد. وكانت تملك حوالي ٦٠٠٠ خيمة وكان زعيمها نوري بن شعلان شيخ عنزه واميرها ، الذي كان يملك واحة الجوف الغنية . كما كان يسيطر من الناحية الفعلية على خط الحجاز للسكك الحديدية . وقد خلده لورانس في مذكراته . وكان

آلوا موزيـل معجبـا به . ولكن برغم ما وصفه لورانس عن تعاونه مع البريطانيين ظل الشيخ نوري مواليا للاتراك طوال فترة الحرب العالمية الاولى ، باستثناء الايام الاخيرة من عام ١٩١٨ عندما ادرك ان الدولة العثمانية في طريقها الى الهزيمة . وكان عضوا في كل لجنة عربية عقدت في ذلك الحين كما كان من المؤيدين الاوائل لحركة « تركيا الفتاة » . وكان يحب حياة المدينة والرفاهية برغم ان عمره كان يجاوز ستين عاما عند اندلاع الحرب ، وكان يتسم ايضا بالدهاء .

وكان نواف بن نوري شعلان الابن الاول والمفضل للأمير ، استولى على الجـوف باسم ابيـه في كانـون الثـاني (يناير) ١٩٠٩ وكان من المناصرين المتحمسين لحركة القومية العربية . تزوج ميشاس ابنة عمه فهد بن شعلان الذي اغتاله نوري . وطلقها بعد ذلك فتزوجت فندي بن سعود الملحم من الاقرباء غير المباشرين لابن سعود . وكان الابن الاول لنـواف من ميشـاس هو سلطان بن شعلان ، الذي كان صبيا صغيرا عنـدما زار شكسبير الجوف في عام ١٩١٤ ، واصبح فيما بعد الزعيم القوي لقبيلة عْنزه في الفترة ما بين الحربين العالميتين .

شمـر: قبيلة ضخمـة كانت تنتشر في الأرض الممتـدة من الأجـزاء الشمالية لنهر دجلة الى حدود الحجاز . ولم يتم احصاء عدد خيامها ولكنها كانت اكثر عددا فيما يبدو من خيام عشائر عْنزه . وكان زعماء هذه القبيلة هم آل الرشيد الذين كانوا مستقرين في حائل . ولكن هناك شيوخ آخرون لهم أهمية كبيرة من خارج اسرة الرشيد ويتزعمون عشائر القبيلة التي كانت تمتلك قطعانا ضخمة من الابل وافضل الخيول في شبه الجزيرة العربية .

وكـان مقاتلو هذه القبيلة اكثر مقاتلي شبه الجزيرة العربية بأسا . وكانت أهم عشائرها عشيرة شمر جربة ، التي كانت تنقسم الى فرعين متنازعين هما : ولد فرحان وولد عبد الكريم . وكان يتزعم الفرع الاول الشيخ علي عاصي ابن فرحان بينما كان يتزعم ولد عبد الكريم كل من عبد المحسن ومحمد ابنا عبد الكريم . وقد شنق الاتراك محمد بتحريض من شقيقه فرحان وايضا بتحريض من ابن سعدون زعيم قبيلة المنتفق . وبعد ذلك نشبت حروب بين العشائر المختلفة وبينها وبين قبيلة المنتفق. ومع ذلك كان الشيوخ الثلاثة كلهم من مؤيدي حركة القومية العربية .

عشائر المنتفق : اتحاد للقبائل الشيعية في منطقة الفرات الذي يضم قبـائـل الاجواد وبني تميم وبني سعد وبني حكيم وشبل وفتلة وبني حسن ، وقبـائـل وتجمعـات شبـه بدوية اخرى . وكانت هناك معارك مستمرة على مدى عدة اجيال من اجل السيطرة على هذه القبائل بين اسرة نصير باشا وابنه فالح واسرة منصور باشا وابنه سعدون . وفي السنوات الأولى من القرن العشرين تمكن سعدون باشا من فرض سيطرته بفضل شجاعته في القتال . وكان سعدون باشا يعارض حكومة السلطان عبد الحميد كما ورث عن اسرته تقليد النزاع مع الحكام العثمانيين والولاة التابعين لهم . وفي عام ١٩٠٤ أرسل الاتراك قوة كبيرة لاخضاع قبيلة المنتفق ولكن مقاتلي هذه القبيلة قضوا على القوة التركية في الشطرة .

وفي عام ١٩٠٨ حصل سعدون على عفو من ثورة تركيا الفتاة التي كان يساندها . ومع ذلك حدثت اضطرابات قبلية اخرى في عام ١٩١٠ وقرر نظام الحكم الجديد في القسطنطينية استخدام السيد طالب ابن نقيب البصرة ضد سعدون باشا . وهكذا استدرج السيد طالب النقيب سعدون الى سفينة حربية ، وهناك اعتقله الوالي وأرسله الى حلب التي قيل انه مات فيها من سكتة قلبية في عام ١٩١١ . وعلى الفور حمل افراد المنتفق السلاح بقيادة زعيمهم الجديد عجيمي بن سعدون ابن الباشا الراحل. ولم يغفر عجيمي قط للسيد طالب خيانته . وكان السيد طالب من المنـاصرين الاوائل لحركة تركيا الفتاة ولكنه تحول بسرعة واصبح عدوا لها ومؤيدا لحركة القومية العربية . لذلك قرر عجيمي الذي كان مصمما على معارضة السيد طالب والانتقام لوفاة ابيه ، اتخاذ الجانب المضاد ، وأيد حركة تركيا الفتاة والباب العالي ابتداء من عام ١٩١١ . وعندما تعرضت حركة تركيا الفتاة لضعف مؤقت في عام ١٩١٢ اعلنت القسطنطينية ان عجيمي خارج على القانون وتولى ابناء فالح عدو والده اللدود زعامة القبيلة . ومع ذلك اعيد عجيمي الى زعامة القبيلة في عام ١٩١٣ ، واستـأنف حربـه مع عدوه اللدود ابن السـويـط من ظافر ، وتحالف مع امير حائل وتسبب في حالة من الارتباك حول البصرة .

ظافر : كانت منطقتها تمتد بين الزبير والسماوة على نهر الفرات الى نجد وصحراء شامية . وكانت تتنازع على هذه المنطقة باستمرار مع قبيلة المنتفق . وكانت ظافر قبيلة صغيرة ولكن افرادها كانوا يتميزون بنظامهم

وشجاعتهم في القتال . وكان شيخ القبيلة هو حمد بن السويط . ومع ذلك تحالفت هذه القبيلة مع المنتفق في القتال ضد قوات الشيخ مبارك شيخ الكويت وايضا قوات ابن سعود في بعض الاحيان . وكان ابن السويط يبلغ من العمر حوالي اربعين عاما في عام ١٩١٦ ، وكان ذكيا ومتحضرا وقد نصح ابن سعود بريطانيا عن طريق شكسبير في عام ١٩١٥ بالاعتماد عليه كعدو لابن الرشيد .

مطير : قبيلة قوية كانت لديها قطعان كبيرة من الابل وكانت تخيم في المنطقة بين الكويت وشمال نجد . وكانت تدين بالولاء النسبي لشيخ الكويت وابن سعود ، ولكن كان ابن الرشيد يتصل بها ايضا في الوقت الذي سيطر فيه على وسط شبه الجزيرة العربية . وكان افراد هذه القبيلة هم المؤسسون الأوائل لحركة الاخوان التي بدأت بين رجال القبائل المتدينين الذين اتبعوا دعوة فيصل بن الدويش شيخ مطير للاستقرار في المنطقة الواقعة شرقي بريدة لزراعة الارض هناك .

وبدأت حركة الاخوان بعدد صغير من الاتباع حوالي عام ١٩٠٨ . ولكن هذه الحركة الدينية المتعصبة لمقاتلين مسلحين بايمانهم بمبادىء متطرفة ، سرعان ما انتشرت انتشار النار في الهشيم في وسط شبه الجزيرة العربية ، والتي ايدها في البداية ابن سعود الذي رأى في الاخوان قوة عسكرية لها شأنها . وكان للاخوان دور في انتصار ابن سعود على قوات شريف مكة المكرمة في الحجاز وعلى قوات ابن الرشيد في جبل شمر وفي معاركه الاخرى . ولكن قوة الحركة ازدادت بصورة كبيرة لم يستطع ابن سعود معها فرض سيطرته على الحركة . وبدأ قادة الحركة يطالبون بالجهاد ضد العراق وامارة شرق الاردن اللتين كانتا خاضعتين لبريطانيا . وهكذا قصفت القوات الجوية البريطانية محاربي فيصل بن الدويش كما تخلى عنهم ابن سعود في نهاية ١٩٢٩ . وكان فيصل الدويش البطل المأساوي لشبه الجزيرة العربية وواحدا من أعظم مقاتليها . وقد توفي كسير القلب في سن متقدمة في احد سجون ابن سعود يوم ٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣١ .

عجمان : قبيلة قوية اخرى كانت تحتل الارض الواقعة بين الكويت والاحساء ، وكان زعيمها الرئيسي زيدان بن هذلين . وكانت واحدة من اقوى القبائل واكثرها تقلبا في شبه الجزيرة العربية . وكانت تدين بالولاء

في بعض الاحيان لشيخ الكويت ، وفي احيان أخرى لابن الرشيد ، وفي بعض الاحيـان لابن سعود . وتزوج ابن سعود ابنة زيدان بن هذلين لتوثيق التحالف بينهما .

وساهمت عجمان في بعض الانتصارات الشهيرة في الصحراء ولكنها كانت مسؤولة ايضا عن بعض الهزائم والمآسي . وفي عام ١٩١٥ كان خروجهـا من وسـط معـركة جرب ، السبب المباشر في مصرع الكابتن شكسبير . وفي عام ١٩١٠ وفرت القبيلة المأوى في الاحساء للمنشقين من اسرة سعـود الذين كان يطلق عليهم اسم العرفاء . وفي صيف ١٩١٥ هاجمهم ابن سعود في كنزان غربي الهفوف ، ولكنه تعرض للهزيمة كما قتل في المعركة شقيقه المفضل سعد . وبعد ذلك استمر ابن سعود في مطاردتهم فلجـأوا الى الكـويت حيث منحهم الشيـخ سالم الصبـاح حمايته . وبذلك نشأ خلاف طويل ومرير بين امير نجد والكويت ، البلاد التي كان يعتبرها وطنه الثاني .

بني حرب : تنقسم الى فرعـين رئيسيين : أولهما بني سالم الذين كانوا يؤيدون ابن الرشيد ، والثاني بني علي الذين كانوا يدينون بالولاء لشريف مكة المكرمة . وكانت قبيلة متماسكة تضم مقاتلين اشداء وتمتد منطقتها من الحجاز الى حائل وجنوبي الرياض . وكان من الممكن ان تصبح هذه القبيلة قوة حاسمة في الثورة العربية في عام ١٩١٦ ، ولكن سادتهم الفرقة . وكان كل منهم يحارب الآخر ، وكان زعيماها غاتي بن نهيث ومحسن بن اثم . وكان هناك فرع ثالث لها يسمى زهيد ، يستقر على الساحل حول رابغ ، ويتزعمه قاطع الطريق الشهير حسين بن مبارك الذي كان يتقاضى اموالا من بريطانيا وتركيا باعتباره عميلا سريا لكل منهما .

عتيبة : تنقسم الى فرعين رئيسيين ، رقة وبرقة . واهم شيوخها تركي بن مسلط ومحمد بن حمدي . وكانت متذبذبة بين ابن سعود وشريف مكة المكرمة ولكن افراد القبيلة لم يحبوا المذهب الوهابي . وكانت منطقة هذه القبيلة تمتـد من وادي رمـة الى الطائف وكانت لديها اعداد كبيرة من الخراف والابل والجياد . وكان افرادها مقاتلين ممتازين ومعادين لقبيلة حرب .

الحويطات : كان افرادها يتميزون بأثوابهم الزاهية الالوان ، كما

تميزت نساؤهم بجمالهن الباهر وبكشفهن لوجوههن . وكان مقاتلو القبيلة شديدي البأس . وكان زعيمها الرئيسي عودة ابو تاية الذي شهره لورانس . وقد قابله كل من موزيل وشكسبير في منطقته المسماة ابو تاية على الطريق بين الجوف ووادي سرحان . ووصفه كلاهما بأنه « وغد » . وكان يمثل بالنسبة لشبه الجزيرة العربية ما مثله روبن هود بالنسبة لبريطانيا .

وكانت هناك افرع كثيرة لهذه القبيلة في المنطقة بين صحراء حوران والعقبة وسيناء ، ولكن لم يكن هناك الكثير مما يجمع بين هذه الفروع . ومن بين الشيوخ الآخرين للقبيلة الشيخ محمد بن خيلان ابو تاية ابن عم عودة . وكان يلقب رسميا باسم شيخ الدولة ، وكان مسؤولا عن جمع الضرائب للحكومة التركية . وهناك ايضا احمد بن محمد الذي كان زعيما للفرع المستقر على شاطىء البحر المتوسط في سيناء ، وكان مؤيدا للاتراك ويتقاضى اموالا من الباب العالي .

شخصيات عربية	ادوار فرعية

عزيـز علي المصري : كان ضابطا برتبة صاغ (رائد) في الجيش العثمـاني . عراقي المـولد وتـدرب في القسطنطينية وكان بطلا لحروب البلقان في الفترة من ١٩١١ الى ١٩١٣ . كان عضوا مؤسسا في حركة « العهد » (تاريخ تأسيسـها غير مؤكد ويقال انه كان في عام ١٩١٢ ، ولكن عزيـز المصري اشتـرك مع لجنة دمشق التي وضعت « ميثاق » الحركة في عام ١٩١٠) . كان القوة الدافعة وراء خطة تهدف الى تشكيل تحالف لزعماء القبائل العربية بقيادة ابن سعود ، وهو المشروع الذي ادى الى ثورة مسلحة في عام ١٩١٥ . وفي الوقت نفسه احتفظ بعضويته في جمعيـة الاتحـاد والتـرقي العثمانية (تركيا الفتاة)، وكان من كبار الضباط في الجيش العثماني . نازع انور باشا على السلطة في تركيا في عام ١٩١٤ ، وتم اعتقاله وصدر عليه الحكم بالاعدام بتهمة الخيانة . وتدخل كيتشنر لانقاذه عن طريق إمام الأزهر بالقاهرة. وبعد ذلك تم نفيه الى مصر .

وفي ايلول (سبتمبر) ١٩١٤ زار المقيم البريطاني بشأن مباحثات سابقة دارت بين كيتشنر وعبد الله بن حسين . وقال هناك انه يتحدث باسم « حركـة عربيـة » تهدف الى انشاء دولة عربية علمانية . وكان كيتشنر يشك في اخلاصه في وقت سابق من العام ، ولهذا السبب رفض التعـاون معـه . وفي تشرين الثـاني (نوفمبـر) ١٩١٤ طلب تصريحا بالاتصال بزملائه في العراق . واصبح رئيس اركان جيش الحجاز في تموز (يوليو) ١٩١٦ . ولكن خلافه المستمر مع الشريف حسين وابنائه ادى الى استقالته وتقاعده في مصر في عام ١٩١٧ .

علي رضـا الركابي : من حلب . كان اعلى ضابط عربي في الجيش العثمـاني برتبـة لواء ، قائد حامية دمشق في عهد جمال باشا في عام ١٩١٧ ، وكان قبل ذلك حاكما مدنيا للبنان . كان عضوا سريا في حركة « العهد » . وكان شخصية رئيسية في قصة رحلة لورانس السرية منفردا الى ضواحي دمشق في حزيران (يونيو) ١٩١٧ ، عندما قيل ان لورانس

ترك عودة ابـو تاية وحده قبل الاستيلاء على العقبة ، وانه كان يحمل رسالة سرية من الامير فيصل الى علي رضا الركابي . ولكن هذه القصة التي وردت بالتفصيل في صفحة ٢٢١ من كتاب « يقظة العرب » لجورج انطونيوس تتناقض مع رواية لورانس نفسه للأحداث ، وتعتبر احداثها مستحيلة الوقوع تقريبا على اساس الجدول الزمني الذي وضعه لورانس نفسه لتنقلاته في كتاب « اعمدة الحكمة السبعة » . وكان وزير فيصل ومستشـاره الرئيسي في الفتـرة من ١٩١٩ الى ١٩٢٠ ، ولكن كان من المعتقد انه لم يكن مخلصا لمعارضته للوجود الفرنسي في سورية ، وتم اجباره على الاستقالة .

محمـد شريف الفـاروقي : كان ضابـطا برتبـة ملازم في الجيش العثماني وكان يبلغ من العمر ٢٤ عاما عندما تم اسره في غاليبولي في عام ١٩١٥ . ولد في المـوصل من عائلة عربية شهيرة تدّعي انها من نسل الخليفة عمر بن الخطاب . درس في الكلية الحربية في القسطنطينية . والى جانب اللغة العربية كان يتحدث التركية والفرنسية بطلاقة كما كان ملمـا باللغـة الروسيـة . استجـوبتـه المخـابـرات البـريطانية (قام بالاستجـواب نعـوم شقـير وهـو مسيحي عربي يعمـل لحساب ادارة العمليـات الثانية في القاهرة وذلك في ايلول (سبتمبر) ١٩١٥). طلب رؤية عزيز المصري الذي كان يحمل « رسالة سرية » له . كان يرغب في معاهدة تحالف مع بريطانيا بحيث لا تنتقص هذه المعاهدة من الاستقلال العـربي الكـامل . تم تعيينه كحلقة وصل رئيسية مع الشريف حسين شريف مكة المكرمة . واصبح من رجال الاستخبارات البريطانية في ايلول (سبتمبر) ١٩١٥ وكان اسمه الحركي « جي » .

عزت باشـا : (العـابـد) السكـرتـير الخاص (رسميا السكرتير الثاني) للسلطان عبد الحميد . انضم الى حركة القومية العربية بعد تولي اعضاء حركة تركيا الفتاة الحكم في القسطنطينية في عام ١٩٠٨ . من مواليـد دمشق . وكـان يتمتـع بثروة كبيرة . وتولى مسؤولية جمع الأموال لبناء خط الحجاز للسكك الحديدية لاستخدامه لأغراض الحج . ولكنـه لم يكن متـدينـا ، وكانت الاستخبارات البريطانية تصفه بأنه « متآمر ولا يوثق به » . كان على اتصال مع شريف مكة المكرمة ووزارة

الخارجية البريطانية في نهاية ١٩١٤ ، ومع السير هنري ماكماهون في بداية ١٩١٥ . عاش في باريس ونيس .

نوري باشا السعيد : ولد في بغداد عام ١٨٨٨ ، وتخرج في الكلية الحربية في القسطنطينية . تم اسره في الايام الاولى من الحرب العالمية الاولى في منطقة البصرة وكان جريحا . انضم الى صفوف البريطانيين عندما كان في المستشفى في البصرة . اصبح نائبا لعزيز المصري في جيش شريف مكة . وكان عزيز المصري قد ادخله في عضوية حركة « العهد » قبل الحرب . اصبح اول قائد عام وأول وزير للحربية في العراق في عام ١٩٢٢ ، ثم اصبح رئيسا للوزراء بعد ذلك . غادر العراق بعد الانقلاب العسكري الذي وقع في ١٩٣٦ ، ولكنه عاد رئيسا للوزراء ووزيرا للخارجية وشغل منصب رئيس الوزراء في العراق ١٤ مرة قبل قتله مع الملك واعضاء آخرين من اللجان الثورية القديمة لدى قيام الثورة العراقية في عام ١٩٥٨ . كان ابرز الساسة العراقيين .

جعفر باشا العسكري : صهر نوري باشا السعيد . وكان قائدا للقوة العثمانية التي حاولت غزو مصر مع جيش السنوسي بين تشرين الثاني (نوفمبر)) ١٩١٥ الى آذار (مارس) ١٩١٦ . تم اسره في معركة السلوم . وبعد ان قضى عقوبة السجن قرر مناصرة الثورة العربية ، وخلف عزيز المصري في منصب رئيس اركان جيش الشريف حسين . اصبح حاكما لحلب باسم فيصل في ١٩١٩ ، ومصدرا لتهديد القوات البريطانية في دير الزور والموصل . وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٠ تمت دعوته للانضمام الى حكومة العراق المؤقتة برئاسة نقيب بغداد .

توجه الى القاهرة مع كوكس لحضور مؤتمر تشرشل في ١٩٢١ ، وكان يرتدي خوذة عربية الامر الذي جعل الصحف العالمية تنشر صوره . وبعد هذا المؤتمر أصبح رئيسا لأركان الجيش العراقي . لقي حتفه في الانقلاب العسكري الذي وقع في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٦ .

ياسين باشا الهاشمي : جنرال في الجيش العثماني ، ظل جريحا في دمشق بعد ان احتلها اللنبي . أيد القضية العربية في مرحلة متأخرة وكان من أشد انصار الاستقلال العربي ومن الد اعداء الوجود الفرنسي

في سورية . ومع ذلك كانت له صلات وثيقة بتركيا . وقابل مصطفى كمال اتاتورك في عام ١٩١٩ . اعتقله البريطانيون في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩ واطلقوا سراحه لكي يصبح المستشار الاول لفيصل والقوة الدافعة لفرع حركة « العهد » في العراق الذي تم تشكيله في عام ١٩٢٠ . قيل انه حاول اعادة السلطة التركية الى بعض المناطق العربية بهدف تحقيق طموحه الشخصي . كان من المؤسسين لحزب الشعب العراقي ، وشغل منصب وزير الاشغال العامة ثم وزير المالية ثم رئيس الوزراء في الحكومات العراقية في فترة ما بعد الحرب ، وفي سنة ١٩٣٦ أطاح بوزارته انقلاب عسكري دبّره بكر صدقي ـ وهو اول انقلاب عسكري في البلاد العربية في العصر الحديث ـ فغادر بغداد الى دمشق وتوفي فيها بعد سنة واحدة .

السيد طالب النقيب : من عائلة النقيب في البصرة التي تقول انها تنحدر من صلب احد اولياء السنة وهو السيد احمد الرفاعي ، المدفون في صحراء الجزيرة . وكان افراد الاسرة من ملاك الارض الاغنياء . وعين والده السيد رجب النقيب في منصب نقيب البصرة في عام ١٨٠٠ ، واستخدم نفوذه لدى القسطنطينية في عزل الوالي العثماني حمدي باشا الذي كان امينا وشريفا بصورة غير معتادة ، لأنه عارض التلاعب في الاراضي الذي كانت تقوم به اسرة النقيب . واصبح النقيب صديقا للشيخ مبارك في الكويت والشيخ خزعل في المحمرة ، وكان كلاهما يحقق اموالا طائلة من تهريب الاسلحة . وارسل الباب العالي حمدي باشا مرة اخرى الى البصرة لمعالجة هذه الفضائح . ولكن النقيب ارسل ابنه الى القسطنطينية لكي يقص حكايات مختلقة عن الوالي مما ادى الى سحبه من البصرة مرة أخرى .

وهكذا دخل السيد طالب الحلبة السياسية .

وفي عام ١٩٠٠ قتل السيد طالب عبد الله افندي راوندوز الزعيم الكردي المحبوب الذي كان عدوا للشيخ خزعل ، مما ادى الى حصول خزعل على مساحة كبيرة مزروعة باشجار النخيل . وبرغم ان الشيخ خزعل كان مواطنا فارسيا فانه كان يحكم منطقة عربية . وفي عام ١٩٠٢ تم تعيين السيد طالب واليا على منطقة الاحساء التابعة لابن سعود ،

ولكن حكمه كان قاسيا وفاسداً الى درجة ان الاتراك اضطروا لخلعه . وفي عام ١٩٠٤ امر مخلص باشا الوالي التركي الجديد باعتقال السيد طالب والحراس السود الذين استأجرهم لحمايته . وفي عام ١٩٠٥ تم نفيه الى القسطنطينية ، وهناك اصبح صديقا للأمير عز الدين الذي اغتيل في وقت لاحق . وفي عام ١٩٠٩ عاد السيد طالب الى البصرة ممثلا لحركة تركيا الفتاة التي ايدها في القسطنطينية . ولكن الحركة فقدت ثقتها به وارسلته مرة اخرى الى العاصمة التي تعرف فيها على عناصر ليبرالية من الحركة العربية ، كما كسب رضا كامل باشا الصدر الاعظم الليبرالي بسبب معارضته لحركة تركيا الفتاة .

وفي عام ١٩١٢ اشار كامل باشا على السيد طالب باجراء اتصالات مع بريطانيا . وهكذا توجه الى القاهرة وسيملا ومعه خطابات توصية من المستر كرو القنصل البريطاني الى كل من كيتشنر وهاردينغ ، ولكن كليهما لم يوافقا على الثمن العالي الذي طلبه لتعاونه . وفي العام نفسه اختمرت في ذهنه فكرة الانضمام الى حركة « العهد » القومية بهدف التخطيط لثورة يقودها ابن سعود وانشاء اتحاد عربي يؤدي الى تولي السيد طالب حكم البصرة . وفي عام ١٩١١ عاون الاتراك في اعتقال سعدون باشا . وهكذا اصبح عجيمي بن سعدون عدوه اللدود وقاد قبيلة المنتفق لمناصرة حركة تركيا الفتاة وضد السيد طالب . وساند قائد جيش البصرة عجيمي ، ولهذا قام رجال السيد طالب بقتل هذا القائد (فريد بك) يوم ١٩ حزيران (يونيو) ١٩١٣ . وفي آب (اغسطس) ١٩١٣ اصدر انور باشا اوامره باعتقال السيد طالب ، ولكن السيد طالب ارسل تهديدا الى القسطنطينية . وبدا ان انور باشا تراجع أمام هذا التهديد ووعد بتأييد السيد طالب .

وفي أيار (مايو) ١٩١٤ تم اخطار السفير البريطاني بأن السيد طالب سيصبح واليا للبصرة . وفي الوقت نفسه صدرت تعليمات سرية لجاويد باشا والي بغداد بارسال وحدة من جنوده لاعتقال السيد طالب . وعلم السيد طالب بتحرك هذه القوات وهرب الى الكويت ، وتوجه الى ابن سعود بمقترحات جديدة . ورفض ابن سعود هذه المقترحات ، وارسله مرة أخرى الى البصرة بعد ان احتلتها القوات البريطانية . وتم نفيه الى الهند . وبعد الحرب العالمية الاولى عاد السيد طالب الى البصرة وكان

بامكـانه ان يصبح زعيما للبلاد ولكنه عاد الى أساليبه القديمة . وفي النهاية نفاه السير بيرسي كوكس بصورة نهائية في عام ١٩٢١ . وتوفي السيد طالب في ميونيخ في عام ١٩٢٩ ، وتم نقل جثمانه الى الزبير لدفنه هناك .



ABDULLAH IBN HUSAIN, KING OF TRANSJORDAN **Memoirs, ed. P. Graves,** London, 1950

ROBIN L. BIDWELL **Travellers in Arabia** London, 1976

SIR READER BULLAND **Britain and the Middle East** London, 1950

SIR GILBERT CLAYTON **An Arabian Diary** University of California Press, 1969

MILES COPELAND **The Game of Nations** London, 1969

H. R. P. DICKSON **The Arabs of the Desert** London, 1949

SIR JOHN BAGOT GLUBB **Britain and the Arabs** London, 1959

DAVID HOLDEN **Farewell to Arabia** London, 1966

DOREEN INGRAMS **A Time in Arabia** London, 1970

T. E. LAWRENCE **Seven Pillars of Wisdom** London, 1935

WILFRED THESIGER **Arabian Sands** London, 1960

H. V. F. WINSTONE **The Illicit Adventure** London 1982

Captain Shakespeare London, 1972

Gertrude Bell London, 1978

Leachman "O C Desert" London, 1982

Z. N. ZEINE **The Struggle for Arab Independence** Beirut, 1960

فهرس
الأسماء والهيئات

فهرس الأسماء والهيئات

أ

ب

خ

د

ر

ش

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

لعبة الجواسيس

لهذا الكتاب قصة تبدأ من طوافي طوال السنوات الماضية في مجموعة من الكتب الانكليزية التي صدرت مؤخرا ، وعدد من الوثائق البريطانية التي افرج عنها واصبح من المتاح الاطلاع عليها ، والتي تروي حكاية مجموعة من الأشخاص الذين جاءوا الى بلادنا في مطلع هذا القرن .

وجمعت مع مرور الايام من هذه الكتب والوثائق المنشورة حكاية بعض هؤلاء الاشخاص ، من انكليز وفرنسيين والمان ونمساويين وروس واتراك ، جاءوا الى سورية ولبنان والعراق وفلسطين والجزيرة العربية ليقوم كل منهم بدور مرسوم له . في الوقت نفسه يروي هؤلاء الاشخاص قصة صراع الدول الاوروبية الكبرى للسيطرة على العالم العربي عند بداية هذا القرن . والقصة هذه تناقض في احيان كثيرة ما نعرفه نحن عن تاريخ هذه الفترة ، وتقلب معطيات التاريخ ومسلماته كما تعلمناها وافترضناها .

الا ان من الممكن التعامل مع قصة هؤلاء الاشخاص التاريخيين كالتعامل مع الرواية البوليسية ـ مع فارق بسيط هو ان كل ما فيها حقائق تاريخية ممحصة ومثبت منها ـ وهي في الاصل ايضا حكاية صراع المخابرات السياسية والعسكرية للدول الاوروبية الكبرى في الشرق الاوسط منذ ١٨٩٨ حتى ١٩٢٦ . فكل بطل من ابطال هذه الرواية كانت مهمته التجسس على العرب ، اشخاصاً وحكاماً وزعماءً وجغرافيةً وتاريخاً . وكان التجسس في تلك الايام خليطا من الاكتشاف الجغرافي والتفاوض السياسي والتخابر الشخصي ، مما اضفى على تلك المهنة مسحة من الاحترام بقدر ما اعطاها شغف المغامرة .

ومغامرات هؤلاء « الجواسيس » شملت رقعة جغرافية واسعة . من برلين الى صنعاء ، ومن دمشق الى باريس ، و
ومن جدة الى موسكو ، و
مسرح واسع لعب فيـ
لعبتهم بشروط لا تختل
اليوم ، وإن كانت اكثر إ
اهم ما فيها ، هو ان ما بـ
الاوروبيون قبل ثمانين
بلادنا الى اليوم ، باسم
القديمة نفسها .

£10.00 net
in UK only

ISBN 1 - 869844 - 62 - 9



